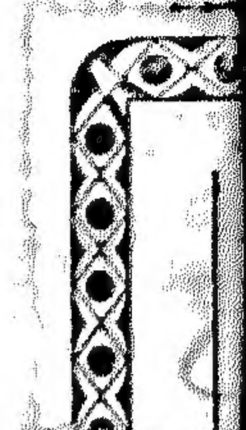




خالد محمد خالد
من العلماء

هذا.. أو الطوفان

" بدون شجاعة لا توجد حقيقة .. "
" وبدون حقيقة لا توجد فضيلة .. "

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

اهداءات ١٩٩٩
الأستاذ/ كامل إبراهيم
أستاذ وفنان الخط العربي



خالد محمد خالد

من العلماء

هذا.. أو الطوفان

بحث هادف.. موضوعه: أخلاقنا من جديد

« بدون شجاعة لا توجد حقيقة.. »

« وبدون حقيقة لا توجد فضيلة.. »

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة

مراجـــع

١ — القرآن الكريم ، تفسير ابن كثير

٢ — أحاديث الرسول ، كتاب تيسير الوصول ويشتمل على الصحاح الستة

٣ — الكتاب المقدس

٤ — علم النفس والأخلاق، تأليف ج . ا . هادفيلد ترجمة الأستاذ محمد عبدالحميد أبو العزم . وراجعه الدكتور عبدالعزيز القوصى

٥ — المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، تأليف اندريه كرسون . ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود ، والأستاذ أبو بكر زكرى

٦ — التربية الجنسية ، تأليف سيرل بيبى . ترجمة الأستاذين محمد رفعت رمضان ، ونجيب اسكندر ابراهيم

٧ — الديمقراطية والتربية ، تأليف جون ديوى . ترجمة الدكتور متى عقراوى ، والأستاذ زكريا ميخائيل

٨ — ديوان ابن الفارض

٩ — التربية لعالم حائر ، تأليف سيروتشرد لفنجستون . ترجمة الأستاذ وديع الضبع

١٠ — مدارج السالكين ، تأليف ابن القيم

١١ — نفسية أبى نواس ـ تأليف الدكتور محمد النويهى

١٢ — قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود

١٣ — فلسفة من الصين ـ تأليف لين يوتانج ، تعريب الأستاذ منير البعلبكى

١٤ — شرح الحكم ـ لابن عجيبة

مطبعة احمد على مخيمر ٧١٩٣٤

الإهداء

إلى الذين يحبون الحقيقة ..

وأيضاً .. إلى الذين يكرهونها ..

لأن الحقيقة لا تحمل ضغناً لأحد ...

فصول الكتاب

هذا الكتاب ..

أنصح للذين سيأخذون هذا الكتاب أن يقرأوه كله أو يتركوه كله . . وإذا هم لم يفعلوا ؛ فلا أقلّ من أن يريحوا أنفسهم من مشقة الحكم له ، أو عليه .

وأقول لهم فى غير منّ : إن وراء كل سطر من سطوره جهداً كابد الصعاب واستنفد الوسع ليصل إلى ما يحسبه حقاً . ثم ليصوغ هذه السطور وَفق الحقيقة المظنونة . .

وهذا الكتاب ــ نذير يخرج فى قومه ليهتف بين ظهرانيهم : احذروا أن تبسطوا طريق المستقبل فوق هاوية . .

ذلك أننا نرث أرضاً مبهوظة بالألغام المخبوءة . لا فى مصر وحدها ، بل وفيما حولها من بلاد وأمم .. وفى كل مجال . فى السياسة ، والاقتصاد والتربية ، والاجتماع ــ يجب ألا نضع حجراً فى بناء ، حتى ننبش الأرض أولا ، ونطهرها جيداً . ولقد أراد كتابكم هذا أن يصنع شيئاً من ذاك ، واختار مكاناً قصياً ، قلما تشد إليه الرحال . . أجل ، لقد اختار مجال السلوك والأخلاق .

ونحن أمة زاغت أخلاقها ، يوم زاغ فهمها ، وتلعثم إدراكها . ومن قبل ، يوم فقدنا الرغبة فى استشراف الحقيقة . وفقدنا الشجاعة فى تقبلها .

إن المسلك الخلقى لمجتمعنا ردىء ــ ما فى ذلك ريب ، وإنما الأمم الأخلاق ــ قضية لا تنكر .. ولكن لماذا انحرف مسلكنا ، وكيف يعود

إلى الجادة والهدى . ؟ ـ هذه هى المسألة . ولقد ذهب كتابكم هذا يبحث ، ويلتمس الشواهد والبينات ، وينبش الأرض ليبلغ الأوتاد التى تشد سلوكنا إليها ، وتحول بينه وبين النماء . ولقد قاسى الريح والمطر . بيد أنه عاد بنتيجة يحسبها ظافرة . وعلى صفحاته القادمة سيبث فيكم مشاهداته ، واستنتاجاته .

ستَرون كيف تواصت الخرافة الدخيلة على الدين والرجعية الاقتصادية، وكبت الطبيعة الإنسانية بأخلاق هذه الأمة فتبرتها تتبيراً . .

وسنبصر الرّكام الهائل من تقاليد الغزاة الذين تعاقبوا فينا تعاقب الليل والليل . . لا تعاقب الليل والنهار . . سنبصر كيف ضلل هذا الركام فهمنا ، وكيف حرمنا من المعرفة ، فحرمنا بالتالى من الفضيلة . أجل . . ، وكيف لا يزال هذا الركام ممسكا بمحاولاتنا الخلقية أن تبلغ غرضها ، ومصمما على أن يرد روحنا الحىّ ترابا فى تراب . . فتطهير ذاكرة المجتمع من رواسب هذا التّراث ومضلاته . واصطياد الخبرات الأليمة والعقد الوبيلة الثاوية فى عقله الباطن : مهمة الفصول الثلاثة الأولى للكتاب وهى :

(أ) هنا . . لا هناك . (ب) طبيعتنا الحرة أعلم . (ج) النبع قبل المصب .

أما الفصل الرابع والأخير وهو .

(د) أقدم لكم الفضيلة . . ؛ فيحاول أن يرسم خطة ويشير إلى منهاج .؛فعلى الذين يعنيهم الأمر أن يهيئوا أنفسهم لعمل شاق بيد أن ممتع ، من أجل تعلية سلوكنا ، وتجويد أخلاقنا .

ولكن عليهم قبل هذا ـ أن يقفوا . ، وينظروا ، ويسمعوا . .

خالد

هنا .. لا هناك

« لست أعرف شيئا عن سر الأله
« ولكنى أعرف أشياء عن بؤس الانسان » ..
— بوذا —

في هذا الفصل

من الغابة .. إلى المدينة
من المحراب .. إلى غرفة التشريح
ليس هناك شياطين ..
التديّن قد يكون انفعالا مرَضيا ..
هذا هو الأنسان ..

من الغابة .. الى المدينة

منذ اكتشف الإنسان نفسه ، وهو يعمل دائبا لترقيتها . وفى كل جيل من أجيال البشرية نلتقى بنفر لم يكن يطيب لهم العيش إلا فى المستقبل حيث يرتادون لقومهم طريق الغد ، ويومضون فى الأفق الأزرق تجاربهم ورؤاهم ، كأنها تنادى موكب الزمن الهادر : أن اتبعنى ، فأنا دليلك على الطريق . .

ولقد ثبت فى روع الإنسان من يومه البعيد الذى نهض فيه قائماً ، أنه يسير إلى أفضل . . وتحت ضغط هذا الإحساس المبهم الوطيد مضى يقتلع خطواته من الأرض شجاعاً حفياً ، ويتحدّر فى طريق الحياة باحثا عن بقية حياته . .

وكان لا يفتأ يتذكر المخلوقات الفذة ، من الزواحف المهولة ، والحيوانات الجبارة — تلك التى كانت معه فى سباق لاهث للسيادة على هذا الكوكب ، وامتلاك زمامه . .

أين هى الآن . ؟ ، ولمن الملك اليوم . . ؟ !

الملك اليوم للانسان ! ! ، أما هى ؟ فقد تخلفت فى الطريق بعد أن ملأت أرض المعركة بأشلاء ضحاياها .

لقد عجزت عن التكيف ، ولم يعجز الإنسان ..

ونسيت تأمين الأرض التى تحت قدمها ، ولم تحسن استشراف المستقبل الذى سيكون مناخا لازما لحياتها ، أما هو فقد فعل . . انتهج التكيف ،

وبذل من نفسه الماثلة فى سبيل نفسه المقبلة ، واصطنع التقاليد والأخلاق ليؤمن بها الأرض التى يقف عليها ، ويدعم بها حاضره .

وهكذا تفوق على الحيوان ، وسيطر على الحياة .

ولكأنما كان يطيب له أن يستعرض أسلحته التى خاض بها المعركة ولا يزال .؛ فما وجد مثل الأخلاق سلاحا شق له الطريق، ومكنه من البقاء !

أجل .. إنه لم يتفوق بالطعام ؛ فمن الحيوان ما يأكل فى وجبة واحدة ما يكفى الإنسان عشرة أيام . !

ولم يتفوق بالقتال ؛ فمن الوحوش ما يقتلع بزئيره الجبال . !

ولكنه تفوق يوم أوتى العقل ؛ فأحسن استعماله ، واصطنع الأخلاق ؛ فأرسى بها قواعد حياته . ولقد عاد « دارون » من رحلته الباسلة يعلن هذه الحقيقة المضيئة :

« إن الضمـــير ، أو الحسّ الأخلاقى هو أظهر فاصل بين الإنسان والحيوان » .

ولكن أليس للحيوان أخلاق . . ؟ أليس الكلب وفيا . ؟ ، أليس الفيل حكيما . ؟ ، أليس الأسد شجاعا . ؟ ، أليس الحمار فاضلا وحليما ..؟!

بلى ، ولكن الحيوان أدرك شيئا وغابت عنه أشياء لم تغب عن الإنسان وإن كانت لاتزال تغيب عن أمم بأسرها من بنى جنسه . فلقد وقع الإنسان القديم خلال تجاربه المتساوقة على مفتاح البقاء والخلود .. ذلكم هو التكيف .. لم يكن يعرف اسمه ، ولكنه عرف حتميته وجدواه ، فجعله معراجا يتبع عليه آماله الصاعدة ، ومن ثمّ ؛ فقد لبث وهو ماض إلى مستقبله يعدّل من أخلاقه ، ويتسامى بتقاليده وعاداته .

لم يكن – إذن – ليقنع بوفاء الـكلب ، ولا بحكمة الفيل ، ولا بحلم الحمار وفضله . ومضى يتوكأ على صديقه الودود – التكيف – بين معاثر الطريق .

كانت الخيانة ، والقسوة ، والعنف أخلاقا فاضلة للانسان . . !

كانت المرأة فى بعض القبائل ترفض الزواج من رجل ليس له سابق فضل فى قتل الأبرياء وسفك الدماء . . ! !

وكان من تمام البرّ بالأبوين الهرمين ، أن يقتلهما الأبناء . . ! !

وكان العهر الجنسى ضربا ساميا من ضروب السخاء والجود ؛ فليس كريماً ذلك الذى لا يقدم لضيفه زوجته أو بنته . . ! !

وكان الاحتفاظ بالبكارة رذيلة يعاقب المجتمع صاحبتها بالعزوف عنها ، وتركها عانساً منبوذة . . ! !

وأما الأخلاق الدينية ؛ فقد كانت تقتضيهم أن يزفوا إلى المذبح الرهيب – فى حفاوة وبشر ، موكبا طويلا من الرجال والنساء والولدان قربانا للاله كى ينبت الزرع ، ويدرّ الضرع ، ويبارك القبيلة . . ! !

فأين هذا التراث اليوم . . ؟

لقد تخلّى عن مكانه لأخلاق جديدة ليست غريبة عن القديم بل منبثقة منه ؛ بيد أنها فى نقطة أعلى تناسب المدّ الزاخر الذى بلغته الحياة .

وهكذا يكيف الإنسان أخلاقه ، إنه لا يهدمها ثم يقول :

دع الرّبع الذى اندثرا — يقاسى الريح والمطرا

بل يفتديها ويصونها بكل طاقته ووسعه وإصراره فلقد علمته التجربة الخالدة الباقية فى عقبه أنها التفوق ، وأنها الحياة . .

ولـكن ، أصحيح أن التجربة البليغة لا تزال فى عقبه باقية هادية . . ؟ حين نرسل من فوق مرتفعات تطورنا التاريخى ، نظرة أو نظرتين يكتنفنا أسف غير قليل .

فلئن كان آباؤنا الأقدمون جدا قدّموا المئات من أنفسهم قربانا الالهة ، فنحن اليوم نقدم الملايين من البشر قربانا لمطامع حفنة آبقة من ذوى الغرور والجشع . . !

وإن التناقض الذى تتشح به أنظمتنا ليكاد يريبنا فى أن تـكون أخلاقنا متكيفة صاعدة . ؛ فنحن مثلا نحذف الرق من حياتنا ونعتبر تجارته مروقا من الانسانية وتنكيساً لأعلامها الخافقة فوق أرض التقدم ؛ ثم نبارك الحروب وندق طبولها ؛ مع أنها الأم الرءوم للرق . . !

وليس ذلك فحسب ؛ بل نحن نحرم الرقيق عند ما يكون بيع فرد لفرد . . ونجيزه بل نتسابق فيه عند ما يكون بيع أمة لأمة . .

أجل . كان الرقيق فى الدهر الأول يساقون فى سلاسل من حديد ، أو فى حبال من مسد ، يساقون إلى حيث يجيئون لسيدهم بالمغنم والربح . إن فى السوق حيث يباعون . ، أو فى الأرض حيث يعملون .

واليوم نبصر أمما بأسرها ، وشعوباً برمتها توثق فى سلاسل غير مطروقة ، وحبال غير مجدولة ، وتسخر لخدمة دول عريضة الأطماع ؛ فماذا تغير من المأساة . . ؟ ؟

أليس العنوان والأطار فقط . . ؟

فالسلاسل القديمة وضعت اليوم تحت اسم المنفعة . .

والسخرة القديمة وضعت اليوم تحت اسم التعاون . .

والمباءات الجمة التى كانت تدعى أسواق الرقيق . أقيمت لها العمائر الشاهقة ، وهيئت لها القاعد الوثيرة ، والمنصات المضاءة ، وصار اسمها — المنظمات الدولية . . ! !

ومع هذا ؛ فليس لليأس مبرر يا أصدقائي ؛ فأرادة التسامى والقدرة عليه جزء من طبيعتنا . وإن مجرد إحساسنا بتخلفنا فى مضمار الخلق ليشد زناد الفهم والمحاولة لنحقق فى مجال ارتقائنا وتطورنا إنسانية أمثل ، وسلوكا أفضل . — ولكن علينا أن نشحذ العقل ونمكنه من جميع سلطاته فهو رفيق باسل وصدوق . كذلك علينا أن نجنبه مهاوى الانتكاس وهو يختار لنا سلوكنا .

ففى ذلك اليوم البعيد حين أراد العقل أن يكشف كنه الفضيلة وسبيلها ركب ثبج الغرور قليلا ، وترك لباب المشكلة وراح يتنزه حول ضفافها . . . وبدلا من أن يبحث أخلاق الانسان فى الانسان ذاته ، مضى يبحثها بعيدا عنه ، حتى غافله الجوار والجدل ، واجتازا به الحدود إلى متاهات مضللة . فاذا هو يبحث عما وراء الطبيعة ، ويسفسط حول المعرفة فيقول مثلا :

— « لا شيء موجود ، وإذا كان هناك شيء ؛ فلا سبيل إلى معرفته ، ولو عرفناه ؛ فليس فى مقدورنا أن نعرف الآخرين به . » ! — وهكذا ! غادر العقل مكانه الحق فى المشكلة تاركا الأخلاق تنمو نموا وجدانيا غير بصير حتى فتحت الحياة بابها لزائر مهيب ، ورائد خفاق — وقف على أرض أثينا يقول لأهلها :

— ارجعوا إلى أنفسكم ، واعرفوها . . إن الحياة والموت ، إن الخير والشر ، إن السعادة والشقوة — كل أولئك فى نفوسكم ؛ فاقرءوها . . .

كان ذلك الزائر – سقراط . .

هتف بالعقل الجموح أن يعود إلى الانسان إذا كان يريد تهذيبه وهتف بالانسان أن يساعد عقله ، ويدأب حتى يحقق لنفسه فضائلها اكتساباً لا صدفة :

– « إذا وجدت الفضيلة بدون أن تبحث عنها فذاك حظ سعيد ، أما إذا كنت مديناً للفضيلة بعنايتك وجهدك وطول بحثك وبلائك ؛ فهذه هي الفضيلة ، وهذه هي السعادة » . . وهكذا طرق سقراط أبواب المدينة وفض أغلاقها .

أجل . إنه في تقديرنا الخاص لم يدخلنا المدينة ، ولكنه وقف بنا أمام أبوابها التي فضّها بعد أن قطع وقطعنا معه في سرعة الضوء آخر مراحل الطريق الطويل الذي طال عليه سيرنا ومسرانا مخلفين الغابة وراءنا . . وميممين شطرَ المدينة وجوهنا .

كيف فتح سقراط العظيم أبواب المدينة . . ؟

لقد دقها ثلاث دقات تخلت بعدها المصاريع عن أماكنها ، وهذه هي الضربات الثلاث :

– فلنعرف أنفسنا . .

– لا فضيلة بغير معرفة . .

– إنما نقترف الشرّ مكرهين . .

وعرفت الحياة ما يحمل هذا الطراز النادر من الخلق ، من برّ بها وإنعاش لها ؛ فوضعت سمعها على طريق الأبدية تتنشق أنفاس العابرين ، وتبلوَ سمتهم . وفجأة فتحت أبوابها لرجل آخر عظيم جد عظيم .

وقف يعلن فى إعجاز وبهر أن الفضيلة غير ممكنة ، مادام نقيضها ممكناً.

— أيها الناس : الفضيلة هى السعادة ، والرذيلة هى الشقاء ، أترون السعادة ممكنة ما دام الشقاء ممكنا . . ؟

وإذن فلكى تظفروا بالسعادة الفاضلة ، لا بد من هزيمة الشقاء المرذول . . —

وواصل « ابيقور » حديثه العذب الممتلىء :

— أتعرفون لماذا يشقى الانسان . . ؟

— لأنه يترك شئونه للآلهة معتقداً أنهم وحدهم سيديرونها . !

— ولأنه يخاف . . يخاف الموت ، ويخاف الآلهة . .

وفغر الأثينيون أعينهم وأفواههم . وحوصر « أبيقور » بدائرة فولاذية من شرر لافح متوهج قذفته أعين كأنها أفواه مدافع . . ولكن الرجل الذى جاء ينقذ الناس وينقذ الفضيلة من الخوف ، ما كان ينبغي له أن يخاف ؛ فانقذف من جديد مندداً بسيد آلهتهم « جوبيتر » :

— « أتقولون إن جوبيتر — يتدخل لحفظ الخير والحق والنظام . . ؟

« إذن ؛ فاسألوه : لماذا يرسل الصواعق على معبده ، ولا يرسلها على — أبيقور — الذى ينكره ولا يعترف له بأى سلطان . ؟ !

« أيها الأثينيون : لا تشغلوا أنفسكم بما تريده الآلهة . .

« إن الآلهة لا تريد منكم شيئاً ، ولا تعيركم بالا ، فافعلوا نحوهم ما يفعلونه نحوكم . . .

« والموت ، لماذا تخافونه . . ؟ ؟

ثم جمع الكلمات فى فمه جمعا مدهشا . وأطلقها كطابور متماسك من رصاص مقذوف :

— طالما كنا على قيد الحياة ؛ فالموت غير موجود . .

« فإذا وجد الموت ؛ فاننا نكون قد صرنا إلى اللا وجود » . . .

وأحسب أن الأثينيين بعد سماع هذا الخطاب ، قد تدفق إعجابهم كالسيل ، وتفتحت حناجرهم كالشلالات العظيمة هاتفة : — مرة أخرى هذه الروائع يا أبيقور . .

فيعود — أبيقور — ويقول :

— « طالما كنا على قيد الحياة ؛ فالموت غير موجود ، فإذا وجد الموت ؛ فإننا نكون قد صرنا إلى اللا وجود » . . . وهكذا اقتحم — أبيقور — المدينة التي تركنا سقراط على بابها . .

لقد كنا نذعر من دخولها ونخاف ؛ فأزاح الرجل العظيم المخاوف من طريقنا . ، ودخل أمامنا ملوّحاً من بعيد بيده البارّة : أن ادخلوا . .

فهل دَخلنا . . . ؟

من المحراب . . إلى غرفة التشريح .

هذه التعاليم التي بشر بها سقراط وأبيقور ، والتي أهابت بالإنسان أن يقتحم حمى نفسه ، ويتقدم غير مذعور لدراستها ، واستنباط فضائلها الثاوية فيها . هذه الصيحة المباركة التي دمدم بها « أبيقور » على الخوف كي يسعى الناس إلى الفضيلة في رغبة لا رهبة ، لم يتح لها أن تبلغ في الضمير الإنساني القدر الذي يمكنها من الثبات والاستقرار .

ذلك أن فتى شاحب البدن ، مشرق النفس قدم إلى الدنيا في زيارة

سريعة ، ومن فوق الشرفة العتيدة فى هيكل « أورشليم » المقدس ، وقف يقول فى ابتهال ضارع وصوت حالم :

— تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الملئكة ليعبدوه ، وتبارك الله الذى خلق الشيطان وأتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له . .

« تبارك اسم الله القدوس الذى من جوده ورحمته أراد ؛ فخلق خلقه ليمجدوه . .

« الرب يقول لكم : من فقدَ نفسه من أجلى وجدها . .

« والحق أقول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق . . لا يولد من الماء والروح ، لا يقدر أن يرى ملكوت الله » كان ذلك النذير البشير هو ـ المسيح عيسى عليه السلام ـ ومن هنا أخذت قوتان خارقتان ـ الدين والعلم ـ تتنازعان العقل الإنسانى وتتوزّعانه . كانا يلتقيان حيناً ، ويفترقان أحياناً . . وعلى الرغم مما ينطوى عليه استعراض المعركة التى دارت بينهما من فتنة تغرى بتتبعها ، فلا ينبغى أن نسمح لأنفسنا بأن تستدرج بعيداً عما نحن بصدد بحثه ؛ فلنبق مكاننا متتبعين مصير الأخلاق بين العلم والدين

كان من الطبيعى أن يدعو الدين إلى الفضيلة ، وإنه ليفقد ذاته لو هو أهمل الدعوة إليها

ولكن الرّؤى الهائلة التى تسيطر على الدين تجعله يحصر اهتمامه فى الله . ، ومن ثمّ فهو يهيب بالناس أن يصيروا آلهة . . أى يتخلقوا بأخلاق الله . . بيد أن العلم يرى فى الدعوة إلى هذا السموّ البعيد إغراء بالقعود والنكوص ـ ذلك أن أهدى السبل لكى لا تطاع . أن تأمر بما لا يستطاع . .

لقد وقف المسيح عليه السلام ينادى الناس قائلا :

— « لا تقاوموا الشر » . .

وبعد قليل سيجيء محمد عليه السلام ليقول :

— « تخلقوا بأخلاق الله . إن ربى على صراط مستقيم »

وكلا الدعوتين نبيلة وفاضلة . ، ولكن هل يستطاع تنفيذها . . ؟

لقد يكون من المعقول أن نتوجه بموعظة المسيح إلى الرب سبحانه مبتهلين إليه ألا يقاوم الشر .. وسيجد الله من كمال ذاته ، ومطلق قدرته ما يصرفه عن مقاومة الشر ، ومع ذلك فالله يرفض هذا الالتماس قبل أن نتوجه به إليه . فهو سبحانه يقاوم الشر كما لا يقاومه أحد . . ويرسل « جبريل » إلى قريتى سدوم وعاموراء ويأمره بأن يقتلعهما من الأرض، ويحملهما على جناحيه . حتى إذا أرهقهما صعودا فى جو السماء كفأها على الأرض فتبرها تتبيرا . لاينجو من الكارثة طفل ، ولاطير، ولانبات ..!

وهو سبحانه يرسل خمسة آلاف من الملئكة مسومين ليقاوموا شر قريش وبأسها . . فكيف إذن يطالب الإنسان بأن يكون أكثر ألوهة من الإله ، ويقال له :

— لا تقاوم الشر . . ؟ !

وموعظة الرسول : تخلقوا بأخلاق الله . . كيف السبيل إليها . ؟

إن ثمت استحالة مادية تعترض طريقنا . فنحن البشر لنا أمعاء يحتشد فيها الميكروب احتشادا يدفع النفس مكرهة إلى سلوك لا ترضاه ولا تريده.. ولكل إنسان كبد وغدد ، إذا أصاب إحداها الخلل سرت العدوى فى غير إبطاء إلى سلوكه فجعلته غضوبا ، أو مدمنا ، أو عربيدا . .

فكيف أرنو إلى مستوى إله لا كبد له ولا أمعاء . . ؟ !

ومع ذلك ؛ فقد ظلت تعاليم الدين موضع تقدير العلم وإجلاله ، وهب من العلماء من جعلوا رسالتهم التوفيق بين المثالية التى تدعونا إليها السماء والواقعية التى تجذبنا إليها الأرض . حتى خلفَ من بعد الأنبياء الطاهرين خلف على النقيض أمعنوا فى تجاهل الإنسان ، وقسموا تبعات الفضيلة والتزاماتها بينهم وبين الناس قسمة جائرة . ؟ فعليهم مهمة التبليغ فقط . ؟ وعلى الناس مهمة التنفيذ . . ! !

وكانوا كما يقول « اندريه كرسون » مؤلف « المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » :

— « صارت الفضائل الدينية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والسذاجة والرحمة ومحبة الله والعدل — واجبا على عامة المؤمنين والمتصوفين ، كما كانت مادة ثرّة للخطب والمواعظ . . أما الشخصيات الكهنوتية الكبيرة ؛ فقد كان لهم شيء آخر — البذخ ، والأحاديث المتأنقة مع النساء ، والشهرة ، والخدم ، والمناصب ، والأرباح » كانت هذه الفصيلة من رجال الدين مسيحيين ومسلمين كارثة على دين الله وعلى دنيا الناس . ولقد وصل العلم الذى حاربوه ولا يزالون يحاربونه ، وصل من الدين ما قطعوه هم بغبائهم وسوء سلوكهم . .

ذلك أنهم شقوا على النفس الأنسانية وأرهقوها حتى سئمت العمل الصالح ، وتراخت قبضتها على الفضيلة

هذا أول . . وشيء آخر ، هو أنهم بالغوا — عن سوء قصد — فى تخويفها بالمجهول وترويعها منه . . وإذ كان لكل فعل ردّ فعل ؛ فقد

صمم الأنسان على اكتشاف ذلك المجهول فلما لم يجد هناك شيئا يخيفه بسط ساقه ومدّ قدمه فى وجوه آبائه الروحانيين ـ سابقا ـ وكان من الطبيعى أن يمرق من كل قيد فاضل ، ولقد همّ ليفعل ، وأوشك الدين أن يقف ليتقبل التعزية فى وفاة الفضائل التى جاء ينشرها ويرعاها ـ لولا أن العلم كان هناك فى الانتظار ؛ فأعطى الفضيلة مفاهيم جديدة ، وبثّ فى قلوب الناس وعقولهم اقتناعا جديدا بحتمية الأخلاق ولزومها ـ اقتناعا لا ينبعث من رهبوت ولا جبروت ، بل من واقع الحياة الأنسانية وتجاربها واحتياجاتها . .

ولم يجحد العلم فضل الدين وضرورة بقائه فى الميدان ولكن بعد تطهيره من بعض رجاله أولا ، ومن الطفيليات التى أقحمها عليه سفهاء شريرون ثانيا . .

واشترط العلم على الدين أن يقتسما التبعات ، ويعمل كل فى نطاق اختصاصه . . وكان فيما أخذه العلم لنفسه تصور المفاهيم الجديدة للأخلاق ، وتشخيص الرذيلة تشخيصا مستمدا من الاعتراف بطبيعة الأنسان وواقعية جسده وبيئته ثم أخيرا تحديد أمثل وسائل التقويم والعلاج ، فأذا كنا ـ فى بلادنا ـ نريد أن نعطى الأخلاق الرفيعة حقها من العناية . .

وإذا كنا جادين فى محاولتنا بعث الفضيلة حارة دافقة فى سلوك الناس . .

وإذا كنا مصممين على إنشاء مجتمع سوى فاضل يسير كما يقول ـ كونفوشيوس ـ بأقدام ثابتة وطيدة على صراط الفضيلة . . فلنمض على ضوء هذه الاتفاقية المبرمة بين الدين والعلم . .

ولنفهم جيدا ، أن أخلاق الأنسان حين تدرس ؛ فيجب أن تتم هذه

الدراسة على ضوء صلة الأنسان بالأرض ، لا بالسماء . . .

ولندرك أيضا أن سلوك الأنسان ليس نتيجة لتدخل من الله . ولا تدخل من الشيطان ـ وإنما هو ثمرة الأنسان وحده . ثمرة أعصابه وغدده ، وغذائه ، وتربيته ، وأسرته ، ومجتمعه . .

ولسائل أن يسأل : هل معنى هذا أن مهمة الدين بالنسبة للأخلاق قد انتهت ، والكلمة اليوم للعلم وحده . . ؟

ونجيب فى إخلاص وصدق . كلا ، ولسوف نزامل الدين ونزامله طوال بحثنا هذا ـ بيد أننا سننظر إلى أخلاق الإنسان كنتاج إنسانى محض . . إن الخلق شبيه الذكاء ـ الكلمة الأولى فى تشخيص علته واختيار وسائل تجويده وتصعيده للعلم . . والعلم بعد هذا يعرف كيف يستعين بالدين فى أداء دوره المحتوم .

ونوجز القضية كلها فى هذه العبارة ـ إذا كان الحكم على الشئ ـ أى شئ ـ فرع عن تصوره ، فلا بد إذن من تصور الأخلاق . وهناك لهذا التصور طريقتان ـ التصور الدينى ، والتصور العلمى التجريبى . . ونحن نختار الثانى ، معتقدين أن الله ذاته يزكى هذا الاختيار .

ولكن لا بد من أن نسأل أنفسنا : لماذا نؤثر التصور العلمى للأخلاق على التصور الدينى . . ؟

ونجيب :

أولا : إن التصور العلمى للمشكلة الأخلاقية يتيح لنا فرصة الكشف عن المصادر الحقيقية لأخلاق الناس وسلوكهم ـ تلك التى تتمثل فى تكوينهم الجسدى والنفسى والبيئى . وهذا فضلا عن توكيده للمسئولية الأخلاقية ،

يهيب بالناس أن يضاعفوا من جهدهم المبذول فى سبيل ترقية النفس وإعلاء طبيعتها ، ما دامت الرذيلة التى تتعبدهم ليست قدَراً مكتوبا ، وما دامت وليدة عوامل من الممكن إزاحتها والتخلص منها ، ثم هى بالتالى توجه الجهود إلى الأهداف الحقة التى تبدأ من لدنها محاولات التسامى والأعلاء .

إن تسعين فى المائة إن لم يكن أكثر من قومنا لايعرفون عن السلوك الانسانى إلا أنه « المقدر والمكتوب » !!

ويعبرون عن منابع هـذا السلوك بآية من القرآن ـ « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجدَ له وليا مرشداً » . .

تسعون فى المائة أو يزيدون ، لا يبصرون الصلات الوثق بين سلوك الانسان وتاريخه الوراثى ، وبين سلوكه وتكوينه الطبقى ، وبين سلوكه وحظه من التربية والصحة والغذاء . . !

إنها مشيئة إلهية تقمصت ذاته ؛ فهو صادق أو كذوب . متواضع أو مغرور . عفّ أو عربيد . لأن الله اختاره لهذا أو لذاك . . ! ! !

وإذن ؛ فما أوهن شعورهم بالمسئولية الأخلاقية إن كان لها فى أنفسهم وجود . . إنهم ليرددون فى يقين عذب قول الشاعر :

كان الذى صوّرنى يعلم فى الغيب ما أجنى وما آثم

فكيف يجزينى على أننى أجرمت ، والجرم قضاً مبرم . . ؟

وهذا الفهم كما قلنا لا يهدم المسئولية الخلقية فحسب بل يقعد بأصحابه عن محاولة السيطرة على النفس وتقويمها . وهذا يفضى بنا إلى سبب آخر من أسباب إيثارنا التصور العلمى . وهو :

ثانياً : التمكين للاعلاء والتفوّق .

إن الكثرة الكاثرة من الناس تعتقد أن هـذا الذى يسير فى موكب الغواية نشوان ثملا ، قد خلق لهذا . وليس إلى مردّ من سبيل . . والذى يسير فى موكب الصلاح قد خلق لهذا ، وليس إلى مفرّ من سبيل .

مشيناها خطى كتبت علينا — ومن كتبت عليه خطاً مشاها

وإن الوعاظ ليتلون على مسامعهم آناء الليـــل وأطراف النهار ، نبأ الرسول حين خرج على أصحابه وفى يده كتابان . .

طوّح الذى فى يده اليمنى وقال : إن أهل الجنة فى كتاب مثل هذا ـ قد علمهم الله فكتب أسماءهم ، وما سيعملون . .

ثم طوّح الذى فى يده اليسرى قائلا : وإن أهل النار فى كتاب مثل هذا ، قد علمهم الله فكتب أسماءهم وما سيعملون . . جفت الأقلام ، وطويت الصحف . . !

وسأله أصحابه :

— إذن ، فيم العمل يارسول الله . . ؟

فأجابهم : اعملوا ؛ فكل ميسر لما خلق له . . ؟

إن الحيرة التى اعتملت فى وجدانات أصحاب الرسول ، والتى عبروا عنها بسؤالهم الذاهل المبهوت : فيم العمل إذن . . ؟

هى التى تجعلنا نرثى لأنفسنا حين نقيس السلوك الانسانى بهذا القياس.

إن عبارة « فيمَ العمل » عقبة ضخمة توضع فى طريق التسامى والاعلاء ، وهى نتيجة محتومة للايمان بأن الله قد اختار لـكل إنسان نوع

سلوكه . وإذن فلا سبيل لتهذيب هذا السلوك وترقيته . .

أما التصور العلمي للاخلاق ؛ فهو إذ يراها ثمرة ظروف خاصة تتغير بتغيرها ؛ فانه يطلق كل قوى النفس وراء الكمال حتى تدركه ويضع بين يديها الوسائل اللازمة لبلوغ هذا الكمال

ثالثاً : الكشف عن المعايير الصحيحة للفضيلة ؛ فنحن مثلا قد نصف رجلا بأنه زاهد ــ وهو فى حقيقته بليد . .

أو نصفه بأنه قنوع ــ وهو فى حقيقته عاجز . .

أو نصفه بأنه ضالّ ــ وهو على خير عظيم . . فما سر هذا التباين ؟ سره أن تصورنا الدينى للسلوك لا يساير القواعد التى استنبطها له العلم من أعماق التجربة الإنسانية . وعلى الرغم من ترحيب الدين بهذه القواعد ، بل واستشرافه لها من زمن بعيد ، كما سنرى فيما بعد ، فإن التصوّر الدينى الذى تحتلّ الخرافة من كيانه مساحة كبيرة ، لا يزال يصرّ على إهدار ما لكشوف العلم من قيمة . !

وأضرب لكم مثلا ــ رجلا مثل « نجيب الريحانى » ــ على المسرح ــ . إذا نظرنا إليه من خلال تصورنا الدينى للأشياء ، حكمنا عليه بأنه فاسق ، وضننا عليه بالرحمة التى نرجوها لأمواتنا . . !!

أليس يفرض عليه موضوع القصة أحياناً أن يتحسس بيديه جسداً غضا ، أو يمتص من شفتى حبيبته فى الرواية رحيقاً عذبا . . ؟ ! إن ذلك إثم وفسوق . . !

فإذا نظرنا إليه من زاوية التصوّر العلمى هتفنا فى إعجاب صادق . يا للفيلسوف الساحر ، إنه معلم ، وإن فنه لجامعة تلقى على المجتمع أبلغ

الدروس وتوجهه نحو أسمى الفضائل . . ذلك أن العلم لم يجد فى الريحانى سوى فنان يعكس على المسرح فى سخرية ، ما تأتيه حياتنا الواقعة فى تبجح ، ثم هو يفئ على المشهد الروائى من أضواء نفسه وتجربته وحكمته ما يجعله هداية مجسدة لا يكاد الناظر ينساها . .

عندما كان المجتمع المتبجح الذليل مشغولا بالسجود لحفنة آبقة من الأمراء ، ويؤم الساجدين أصحاب الفضيلة الذين يغارون على الفضيلة – خرج الريحانى على الناس بروايته « سلامة فى خير » وجعل أحد مشاهدها الطويلة العامرة ، مشهد أمير وحاشيته ، ظنّ الريحانى واسمه فى القصه « سلامة » أنهم يأتمرون به ليسرقوا وديعة المال التى يحملها ، وهناك فى قاعة تشبه قاعات العروش وقف « سلامة » يسخر من الأمير وكأنه يقول للملايين : اصنعوا مثلى !! اصنعوا مع الأمراء الزائفين الذين عندكم فى المجتمع ، مثلما أصنع أنامع هذا الأمير الزائف على الشاشة ، أوالمسرح . . وقف الريحانى يقول :

– انتم يا أصحاب السموّ كده . . حرامية . . غجر . . آه يا غجر . . !!

ومن هنا ، فأن الريحانى لم يكن رجلا فاضلا فحسب . . بل كان رائدا من رواد الفضيلة الخالدين .

رابعا : دراسة النفس الأنسانية ، والسلوك الأنسانى دراسة تجريبية لا دراسة لاهوتية . . بمعنى أن نعرف حقيقة الضمير والغواية ، ونضع الخطيئة فى مكانها الحق بوصفها – عواطف ضلت طريقها – ، والمرض الخلق بوصفه « عقدة مرضية » تحرض علينا اندفاعاتها المغوية المردية . . ثم نرسم نهج العلاج غير متأثرين بغير ما أفضت إليه البحوث النابعة من الخبرة والتجربة

أعرف شابا اضطربت حياته الانفعالية الجنسية اضطرابا وجه سلوكه وجهة منحرفة شاذة . . . وكان من حسن حظه أن استمع إلى نصيحة ألقيت إليه بأن يتعلم فنّ الرقص ويمارسه كهواية دائمة ، وجاءت النتيجة عما لم يكن منتظرا من الفضيلة والاستقامة والتسامى . ، فلو أن النصيحة التى ألقيت إلى الشاب كانت عبارة عن موجز لأحدى الخطب المنبرية التى تدعو إلى التقوى وتنهى عن الأثم ، وهو ما يتوسل به تصورنا الدينى لسلكنا الخلقى ، إذن لكان هذا التعس قد سجل رقما قياسيا فى الاستجابة لنوازع علته وعقدته . .

إن العلم قد وضع الأنسان تحت مجهر كبير وعدسات بصيرة وسلط ضوءا غامرا على دهاليز نفسه واكتشف الثعابين الملتوية المتكورة ـ تلك العقد الخبيثة التى تضله وتغويه وأعطي التصورات الدينية للشيطان والقلب والروح مفاهيم واقعية صحيحة وبذلك وجه الجهود المبذولة لتصحيح شخصيتنا ، والظفر باكتمالنا وجهة عملية مجدية . . وإذن فلنمض معه ، ولنبدأ من هنا . .

ليس هناك شياطين . !

لقد لعب الأيمان بوجود شيطان يسكن قلب الأنسان ويوجهه ، دورا هاما فى حياتنا السلوكية ، ولعلّ هذا الإيمان كان نافعا يوم كان الأنسان يتلقى عن غريزة الخوف إيمانه الوجل بكل ما هو غيب غير منظور . . وإذا صحّ أن يكون هذا التصور للشيطان ولمسكنه ـ القلب ـ وسيلة لاكتمالنا فى مرحلة متقدمة من تطورنا ؟ فأن هذه المرحلة قد دخلت فى ذمة التاريخ منذ أجيال . وبقاؤنا عندها يعنى وقف نمونا ، ويعنى

بالتالى انقراضنا . . وإذ كان انقراضنا غير ممكن ؛ فأن طبيعتنا العاقلة القادرة تتولى نقلنا إلى المرحلة التالية . . ومن ثمّ رأينا فكرة الشيطان تنقرض من ثلثى العالم المتحضر تقريبا ، وهى فى طريقها إلى الفناء التام . . وإن خير مايزجيه المصلحون فى بلادنا هذه أن يتعاونوا مع التطور والتاريخ فى تطهير وجدانات الناس من تلك البقايا . . بقايا القرون التى لم تعد سوى حديث وذكرى .

ولعلّ ماوتسى تونج كان يعنى تحقيق هذا الغرض عندما سيق إليه أحد رجاله وكان قد باع بعض أسرار قومه لغريمهم «شيانج كاى شيك» . . . وبتفتيش الرجل عثر معه على بعض الدولارات الأمريكية . . وقال يعتذر عن فعلته ، وقد تحوّل وجهه إلى قوس قزح ـ أصفر ، أحمر ، أخضر . . معذرة ؛ فقد أغوانى الشيطان . . !

فأجابه ماوتسى ، وقد استلّ دولارا من التى ضبطت معه :

ـ إذا كنت تعنى هذا الشيطان ؟! فقد صدقت . وإذا كنت تعنى شيطاناً آخر ، فدلنا على مكانه فى جسمك لنريحك منه . . أجل ـ إن الشيطان الذى يسكن قلب ابن آدم ويوسوس له ، قد لقى حتفه من زمن بعيد ـ وإن الأيمان بوجود قوة مستقلة عنا تحمل هذا الاسم ، ولها سلطان علينا تدفعنا به إلى الغواية والأثم ، لأكبر معطل للنمو الخلقى الذى يستمد فاعليته من الشعور الأكيد بمسئوليتنا الكاملة عن اكتمالنا ـ هذه المسئولية التى تقوم على أساس وطيد من الحرية والأرادة والاختيار . . . إن خمسة وتسعين فى المائة من قومنا لا يزالون يعتقدون أن الشيطان هو الذى يدفعهم إلى كل موبقة وعار . وفى كل موعظة ، أو خطبة جمعة يسمعون

عن الشيطان أحاديث كأن أصحابها رأوا هذه الشياطين ووا كلوها ، وساروا فى رَعيلها ، وهم يرددون فى ذلك أحاديث لايفقهون ،ولايحاولون أن يفقهوا حقيقة معناها وأهدافها . ونحن لا نكذب رسول الله . وإنما نكذب الفهم المضطرب لأحاديثه . . فالرسول مثلا يقول : إن لكل إنسان لمتين ــ لمة ملك ولمة شيطان . ؛ فهل مفهوم هذا الحديث أن فى جوف كل إنسان ملكا وشيطانا يتصارعان . . ؟

لو كان ثمت وجود مادّى للاثنين لوجب أن يغلب الملاك الشيطان ، ويبطل سحره وتأثيره ، لأن الملاك يمثل الله الذى لا يغلب ولا يقهر . . أو لوجب إذا كانت النتيجة عكسية ألا يؤاخذ الأنسان بشر يأتيه أبدا ، فليس هو أقوى جنانا ، ولا أعز سلطانا من الملك . .

إذن فمعنى الحديث أن فى كل إنسان قوتين نفسيتين نابعتين من ذاته وكيانه ــ هما ما عبر عنهما علم النفس الحديث بالأرادة ، والاندفاع ــ أو ما يعبر عنهما علم الأخلاق بالضمير ، والغواية .

ويشبه هذا قول الرسول : إن الشيطان يضع خطمه على خطم ابن آدم ــ فأينا حدث له هذا ، أو رآه . . ؟

ولكن لما كانت اندفاعاتنا الغرزية الشريرة تسلك للتعبير عن نفسها ، دائما ، أو غالبا ــ الوسائل التحتية ، والهواجس المستخفية . وذلك لأحساسها بأنها تتحدّى التقاليد المرعية والمواضعات الاجتماعية ، كان من أبلغ صور الحديث أن تشبه عقدنا النفسية المستكنة المتربصة بهذا المثال ــ لاسيما والمخاطبون بذلك هم قوم لم يكونوا منذ ألف وأربعمائة عام قد عرفوا شيئا أى شيء ، عن علم النفس ، وعلم التشريح . . !

إذن ليس هناك شيطان ، بل لقد وصل العلم إلى أنه ليس هناك شرّ بالمعنى المعروف لنا .

والمسئلة تسير هكذا :

ا — لكل إنسان غرائز أو طبيعة إنسانية راسخة

ب — كل غرائزنا قيمة نافعة

ج — طريقة استخدامنا لهذه الغرائز هى التى تثمر ما نسميه خيرا وما نسميه شرا

د — وإذن فالخير هو الاستخدام السوىّ لغرائزنا والشر هو الاستخدام المنحرف لهذه الغرائز .

ويؤيد هذا ما نراه من نسبية الخير والشر حتى بالنسبة للفرد ذاته ؛ فحب الظهور مثلا فضيلة عندما نكون فى الخامسة عشرة من عمرنا لأنه يشحذ انتباهنا ويوجهه نحو العناية بتكوين الذات والمستقبل . ولكنه حين نبلغ الستين مثلا يصير رذيلة وشرا

وما أصدق « هادفيلد » وهو يعرف الشرّ فيقول :

— « الشرّ مثل القذارة ، مادة فى غير مكانها . أو على الأصح وظيفة أسىء توجيهها ؛ فهى قيمة فى نفسها ، ضارة إذا أسىء وضعها . »

ثم يضرب لنا مثلا فيقول :

— « الاحتقار مثلا خير وفضيلة — إذا وجه نحو الدناءة . . . وشر ورذيلة ، إذا وجه نحو أولئك الذين لا ذنب لهم إلا تواضع أحسابهم . . والتملك أيضا إذا وصلنا غريزته بحمار جارنا فهو شرّ . . وخير إذا وصلناها بحديقتنا الجميلة الناضرة . . » والآن نسأل سؤالا :

— إذا كان هناك شيطان مادى ينشر الرذيلة ، ويحمى حماها ، أفما كان من المحتوم أن تكون الرذائل واحدة فى كل زمان ومكان . . ؟

لكن المشاهد الملموس غير هذا بكثير . فنحن اليوم وحتى عامنا هذا الذى نعيش فيه عام (١٩٥٣) تجد الرذائل مختلفة ، والفضائل متباينة باختلاف العادات والتقاليد .

فعلى ربض استراليا مثلا تعيش قبائل تستحسن تعددالأزواج ، ويرون تعدد الزوجات إفكا وعارا . . وفى بلادنا ، نبيح تعدد الزوجات ، ونرى تعدد الأزواج إفكا يوجب الرجم بالحجارة . .

فأذا اقترف أحد من قبائل استراليا إثم تعدد الزوجات أو اقترفت امرأة من بلادنا وزر تعدد الأزواج ؛ فهل أغواهما شيطان واحد . . ؟ أم أن للشياطين جنسيات مختلفة ؛ فمنهم الاسترالى ، والأمريكى ، والمصرى . . . ؟ !

لعلّ الذين يأسفون لمهاجمتنا الشيطان على هذه الصورة يمنحوننا رضاهم حين يعلمون أن إيماننا بوجود مادى للشيطان — أى ايماننا بأن الشيطان ذات تفكر وتدبر وتضل وتغوى ، قد أفضى بقوم إلى عبادته ودفع شرّه بتقديسه والتسبيح له . .

ومتى . . ؟ اليوم ، وغدا ، وبعد غد . . .

وأين . . ؟ فى بلاد مسلمة قريبة منا اسمها العراق . . ؟ !

ثم ما هذا القلب الذى يسكنه الشيطان . . ؟

لقد لعبت كلمة « القلب » فى حياتنا السلوكية دورا مشابها لدور الشيطان المزعوم

ولنبدأ حديثنا عن مسكن الشيطان هذا بأعلان تصديقنا وإذعاننا لقول الرسول عليه السلام :

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب . . »

ولكن ما معنى صلاح القلب وفساده فى هذا الحديث . . ؟

هل يعنى الرسول الصلاح المادى . . ؟

لكم تقع أعيننا على أناس لهم قلوب تستطيع أن ترفع جبال الألب بنبضها . ، ومع هذا فبين أصحابها والصالحات الباقيات مثل ما بين القطبين من أبعاد . . صحيح أن سلامة القلب بل وسلامة أى جهاز من أجهزة الجسم تساعد على خلق سلوك سوىّ وديع . كما سنذكر بعد ، ولكن ليس ذلك قاعدة عامة أكيدة كما يفهم من الحديث .

أم هل يريد الرسول الصلاح المعنوى . . ؟ ـ وإذن فما مأتى هذه السلطة العارمة لشئ غير موجود . . ؟ ! !

هناك نبأ آخر سيعيننا على دَحض الفهم غير السليم الذى نفهم به هذا الحديث ، والذى يجعلنا نمنح القلب سلطة غيبية وروحية ثم نوجه عزمنا فى عناء ضائع نحو استرضاء هذا الطلسم واستكناهه .

والنبأ الذى نسوقه يروى قصة فحواها ، أن الرسول وهو غلام ، وكان ثاويا فى ديار مرضعته حليمة ـ هبط عليه ملائكة من السماء ، ومعهم طست وإناء . شقوا صدر الرسول ، وانتزعوا منه بضعة سوداء هى مسكن الشيطان ، ، ثم غسلوا المكان بالمسك والكافور ، ولمسوا مكان الجرح ، فعاد كأن لم يمسسه سوء . . ! !

أصحيح هذا . . . ؟

إن إجلالنا لرسول الله هو الذى يحدونا لتنزيهه عن حدوث ما يزعم الزاعمون أنه حدث . وإن هدم هذه الأسطورة لضرورى لأنشاء سلوك إنسانى فاضل ـ هذا السلوك الذى لا سبيل إليه حتى يتلاشى الوهم الجاثم من تصوّر الشيطان ومسكنه فى أجسامنا . وحتى يعرف جهادنا للاكتمال طريقه إلى مكان المعركة الحقيقى . . ونبدأ ؛ فنقول : إن الذين يحاولون تكريم الرسول بهذه القصة أصدقاء جاهلون .. بمعنى أنهم يسيئون للرسول حيث يحسبون أنهم يحسنون . ! !

فمعنى ذلك النبأ ـ لو صحّ ـ أنّ فى كل قلب أو صدر بضعة سوداء ، هى مسكن ابن آوى . . . الشيطان . ! !

ولكى يكون « محمد » صاحب خلق عظيم ، يؤهله للرسالة والقدوة ، نزع الله من صدره تلك البقعة السوداء حتى لا يجد الشيطان مكانا يأوى إليه حين يعود . . وإذن ؛ فلا فضل لمحمد عليه السلام فى سموّ خلقه ، ولا فى عظمة نفسه . . .

وإذن ؛ فلو أن بيت الشيطان بقى فى صدره لاقترف مثلنا الآثام والأوزار . . .

وإذن ؛ فنحن معذورون حين نعب الخطايا ونكرعها أكوابا وأباريق وأنهارا ، ما دام الله القدير الرحمن لم يستعمل مبضعه فى اجتثاث تلك البضعة السوداء من صدورنا . . ! !

يا أيها الناس . فكروا قليلا ، بل فكروا كثيرا ؛ فليس مما ينشرح له

قلب الله أن يكون خلفاؤه فى الأرض على هذه الشاكلة من السذاجة والغباء..

والآن نستطيع أن نفهم ما يريد الرسول بقوله ـ إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ـ ألا وهى القلب ـ وقوله وهو يناجى ربه :

ـ يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك ـ

إنه يعنى الأرادة ، وبهذا يحقق الرسول معرفة ونبوءة ، فغاية ما وصل إليه علم النفس أن سلوك الأنسان الذى هو ثمرة عوامل كثيرة يسيطر عليها عاملان ـ الأرادة ، والاندفاع ـ ولما كانت الأرادة هى القوة التى تدفع السلوك إلى الخير فقد كان الرسول لا يفتأ يسأل ربه أن يثبت إرادته دائماً على الحق . . ونستطيع بالنسبة للحديث الأول أن نفسره تفسيرا طبيا ؛ فعافية الجسد مرتبطة إلى حدّ غير قليل بعافية القلب

أما أن يكون القلب « فيلا » يسكنها شيطان ؛ فأذا كان لا بد من أن يكون هذا صحيحا ؛ فأنه لا بد أيضا أن يكون قد انقرض نوع الأنسان الذى كان يحمل بين جنبيه هذه « الفيلات » وحلّ بديله نوع من الأنسانية جديد .

التدين قد يكون انفعالا مرضيا

ولا بد لتحرير سلوكنا من العوامل التى تعتاق نموه وتهذيبه ، من أن نفرق بين تبعاتنا الدينية ، وتبعاتنا الخلقية . .

إنك تستطيع أن تصلى وتصوم وتحج ، وأنت مشحون النفس بالعقد المكبوتة . . ولكنك لن تكون قط صاحب ذات منظمة وطيدة ، وسلوك

سوىّ مكتمل ، وفيك هذه الشحنة المدمرة من العقد النفسية .

والصلاة مثلا ، لن ترد عن سلوكنا تلك الآفات التى تعترضه ، كالخجل ، والخوف ، والانحصار داخل النفس ، والتطلع الجنسى وغيرها . . وإنما تردها تلك الوسائل التى استحدثها علم النفس والتربية والأخلاق ، ولاشك أن الصلاة مضافة لهذه الوسائل العلمية ستكون عاملا مساعدا .

وإنا لنلبس الحق بالباطل حين نخال التدين ــ السبيل الأوحد إلى الأخلاق . . وأودّ من القارئ أن يذكر جيدا أننى أتحدث عن التدين ، لا عن الدين . . والتدين هو سلوكنا الدينى ، أي طريقة تنفيذنا للتعاليم الدينية . . وأنا ، وأنت ، والآخرون ــ نعرف كثيرين من الذين يرهقون الأرض بسجودهم ، يصومون النهار ، ويقومون الليل ، ومع ذلك فهم كما يقول الرسول نفسه عليه السلام لا ينالهم من صيامهم إلا الجوع . . ولا ينالهم من قيامهم إلا السهر . . . ! !

أجل . . كثيرا ما تقع العين على نظراء هذا الذى حذر الأعرابى الحكيم منه ولده حين رآه يطيل سجوده فقال :

صلىّ فأعجبنى وصام فرابنى — نحّ القلوص عن المصلى الصائم

هؤلاء وأولئك الذين يلبسون جميع مسوح الرهبان وتنطوى جوانحهم القائمة على ركام هائل من الحقد والخبث ، والأنانية ، وعشق الجريمة . ويمشى الواحد منهم بين الناس كما يقول الشاعر ، بوجه أبى ذر وقلب أبى جهل . . . !

إذن ، فمن الواقع فعلا ــ أن يؤدى الرجل الطقوس الدينية ويظلّ مجردا من الأخلاق الفاضلة الكريمة . ومن لم يسغ منا هذا القول . أو إذا كان هناك من سيحسبه غمزا للدين ؟ فليقرأ هذا الحديث الصحيح :

« ذكر عند رسول الله نبأ امرأة تقوم الليل وتصوم النهار وتداوم على الصلاة والذكر . بيد أنها تؤذى جيرانها بلسانها ؛ فقال الرسول عنها - «هى فى النار - » . . !

هذه امرأة تصلى وتذكر الله وتصوم وتقوم ، ومع هذا فهى رديئة الخلق . . .

وليس ذلك فحسب ، بل إن الرسول ليخبرنا فى حديث آخر - أن أول من يدعى للحساب يوم القيامة ثم يقذف به فى النار - رجل حفظ القرآن ، ورجل قتل فى سبيل الله . . لماذا . . ؟ لأن سلوكهما لم يكن سائرا وفق مظهرها الدينى ، وكان ينقصهما عنصر التطابق بين النية الصالحة ، والعمل الصالح . .

ونحن لا ننكر أن الدين يدعو للأخلاق الفاضلة ؛ فالمسيح مثلا يقول : كونوا كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل . .

— لا يغلبنك الشر ، بل اغلب الشرّ بالخير . .

— لا تغرب الشمس على غيظكم ، ولا تعطوا مكانا للغضب

والرسول يقول : ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن . .

« إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا . .

« إن الله ليبغض الفاحش البذىء »

ولكن ، كيف السبيل إلى هذه الأخلاق . . ؟

أهو التدين من صلاة وصيام ونسك . . ؟

لقد رأينا كيف يمكن أن يتدين الأنسان ، وملء نفسه غواية وهوى ـ لا ، بل إن التدين كثيرا ما يكون ، سيا فى بلاد كبلادنا ـ انفعالا مرَضياً لعقد مكبوتة . . وإدراك هذه الظاهرة ومحاولة فحصها من أجلّ القربات إلى الله ، وإلى الحقيقة ؛ وإهمالها يضيع على المجتمع كثيرا من البرّ ومن الخير ، ومن الصلاح .

ذلك أننا مثلا يأخذنا الجذل والحبور حين نرى شبابنا ينصرفون فى أعقاب المراهقة أو خلالها إلى المسجد ، أو إلى الكنيسة ، ويعكفون على بعض المظاهر الدينية . ونحسب هذا السلوك منهم فضيلة واستقامة ؛ فننام عن ملاحظة أخلاقهم وتعليتها فى هذه السنّ الحاسمة والمرحلة الخطرة الفاصلة ، ولو أننا بحثنا قليلا ، لعلمنا أن هذا السلوك نشوة طارئة ، وانفعال غير طبيعى سيفضى إذا أهملنا ملاحظته وتهذيبه إلى انتكاس مروّع ، أو يتمادى بالشخصية حتى يدسها فى حالة إدمانية ليس لها فواق من البلادة والانطواء والتوهم . .

فنى هذه السنّ تتحرك الغريزة الجنسية فى موكب عارم من الرغبات والمنى ـ وتقف ظروف بعض الشباب عقبة فى طريقها ، ويكاد يسحق شخصيتنا ذلك الجذب الشديد بين الرغبة والعجز ، أو بين الدافع والكابح . فيهب العقل الباطن لأنقاذنا من هذا التردد المؤلم . فيشير نحو المسجد ، أو الكنيسة ، ويوحى لعقلنا الواعي بالهرب شطر أحدهما . دون أن يخبره طبعاً ، أن ما يفعله هو الهرب بعينه ـ الهرب من واقع عجزنا عن تقبله والتفاعل معه . . ثم من موقف كريه جاء نتيجة عجزنا واضطراب حياتنا الانفعالية .

وهكذا يتدين الشاب في هذه السن ، ويفرح ذووه ظانين أنها هداية الله أدركته . والحقيقة التي تغيب عن البال أن هذا السلوك الطارئ ليس تدينا صادقا ـ إنه انفعال مرضى ، إنه الفجر الكاذب الذي يلتمع في الأفق ليضلل الناس عن الفجر الصادق الصحيح . . ! ومن ثمّ ، نرى التدين في هذه السن محاطا بحصار صارم من التعصب الأعمى، كما نراه عاجزا عجزا مطلقا عن التسامح مع الجنس الآخر ـ أعني المرأة . . وهذا يكشف عن لباب المسئلة ويؤكد أن صاحبنا ذاك ليس خيرا ، وإنما هو مريض . .

ذلك أن غريزته الجنسية همست في أذنه عند أول قدومها ، تذكره بأنها هنا . . .

ولما لم يسمع ، أو تظاهر بأنه لم يسمع رفعت صوتها . . وأخيراً تحركت تحرك الجنين ووجهت إليه إنذاراً حاسما . ولأمر ما عجز صاحبنا عن الاستجابة الشريفة لغريزته ، وهرب من الموقف على الطريقة التي سقناها من قبل . وهكذا صار بطريقة لا شعورية يجد لذة ومتاعا وسكينة في هذا الموقف الذي أنجاه من ورطته . .

وما هو الموقف . . ؟ إنه التدين . وهكذا فهو لا يتعصب لدينه ، وإنما يتعصب في الحقيقة لحالة نفسية وجد فيها ملاذا وخلاصا من شقاء التردد ولفح الغريزة ، وما الدين سوى إطار لهذه الحالة وعنوان .

أجل ـ إنه يتعصب للذة التي يجدها بعد أن نجا من الصراع العتيد بين رغباته المتطلعة وقيود المجتمع الزاجرة الرادعة . وهذا يصل بنا إلى الظاهرة الثانية وهي عدم التسامح مع المرأة ، واستهجانه لكل ما يتصل بالجنس

استعرض الشبان المتدينين جميعا ـ نعم جميعا ـ تجدهم يحتفون بكل كلمة يتجشأها واعظ ضد المرأة . . ولقد يتسامح معك بعضهم الكثير لو أنك شككت فى وجود الله ، ولكنه يرفض أى تسامح لو شككت فى أن المرأة دنس وإثم . . !

إن اللاشعور واقف كالديدبان اليقظ ضد كل قوة تريد أن تخرج صاحبنا من لذته الحالمة الواهمة ، هذه التى يجدها فى موقفه السلبى من الجنس الآخر . . وشيء ثان . هو أن شعوره بحرمانه من تلك الفاكهة المحرمة يدفعه بوسائل لاشعورية إلى تعميم ذلك الحرمان ، وجعله سياسة عامة . وهذا هو سر الحرب القائمة بين الرجل والمرأة فى مجتمعاتنا المريضة . .

عام « ١٩٣٧ » كوّنت مع أربعة من زملائى جمعية سرية غرضها ـ نسف بيوت البغاء . !! وقطعنا يومذاك شوطا غير هين فى سبيل التنفيذ الذى شاء فضل الله ألا يتم . .

وفى عام « ١٩٤٦ » ألفت مع زملاء آخرين « جيش الخلاص » على غرار جيش الخلاص الذى أنشأه فى انجلترا ـ وليم بوث ـ وكتبت فى النداء الأول للجيش ما يأتى :

ـ « . . أما الرذيلة ؟ فلا نقول : إننا سنهاجمها ، بل سنعاملها وهواتها معاملة تهذيب لا تأديب ، ورحمة لا قسوة . وسننظر إلى العصاة من خلال حكمة ذلك الصوفى القائل ـ ليس بين الطائع والآثم سوى غلالة رقيقة من ستر الله لو تكشفت عن الطائع لاستويا ـ

« لهذا سنكون رذاذا طاهرا رطبا ينساب على الرذيلة فيزيلها ويطهر مكانها ، ولن نكون سيفا مصلتا أبدا . .

« لن نسمى المجرم مجرما ، بل الصديق المصاب . ولن ندعوَ الآثمة آثمة ، بل الأخت المنحرفة . . ، وعن طريق المصحات النفسية ، وبيوت التوبة سيكون كفاحنا الدائب الهادئ للفساد الخلق فى المجتمع . . »

والآن أطلّ على ذينك اليومين المتضادين . . يوم هممت أن أنسف بيوت البغايا . ثم يوم أردت أن أفتح لهن بيوت التوبة ، وأسميتهن ـ الأخوات المنحرفات ، ! فأرى الحقيقة بازغة بينهما كضوء النهار . .

فى المحاولة الأولى كنت فتى عجز عن التوفيق بين مطالب غريزته ، واحتشام بيئته ، وهرب من الموقف القاسى إلى أقرب مسجد فى الطريق . . . ثم تحولت انفعالات الحب الجنسى إلى نقيضها ـ بغض ، وتعصب ، ورغبة فى الانتقام على طريقة طيب الذكر . . شمشون . ! علىّ ، وعلى الأعداء ـ يارب .

وفى المحاولة الثانية ، كنت قد صرت زوجا وأبا . . وكان قد مضى على زواجى سبعة أعوام ، وهو زمن كاف لاختفاء مشاعر الخصومة الظالمة القديمة بينى وبين المرأة بعد إذ زال سببها ومحركها ـ الحرمان . ؛ فعاد للانفعالات كثير من صفائها وعافيتها ، وصارت تسامحا ، وفهما ، ورغبة فى التقويم . . . !

وأستطيع أن أتصوّر سماع همهمة مختلفة تقول :

— إذن ؛ فأنت تريد أن تحوّل تجربتك الخاصة ، إلى فلسفة عامة . . ؟

وأجيب ، بل هى تجربة عامة تنتظم جميع الحالات المماثلة أو غالبها .

ولقد وضعت خمسة وثلاثين من الشباب المتدين تحت الملاحظة الدقيقة المستطاعة ؛ فخرجت بالظاهرة الآتية :

ا ـــ سبعة وعشرون منهم يحرمون سماع صوت « أم كلثوم » حتى ولو كانت تمدح الرسول ، أو ترتل القرآن . .

ب ـــ خمسة وعشرون ، يحرمون سماع الموسيقى ـ غير العسكرية ـ عشرة منهم يسببون التحريم بأنها ملهاة عن ذكر الله . . وخمسة عشر يسببونه بأنها تحرك نوازع الشهوة البهيمية » ـ وعبارة الشهوة البهيمية . . هذه جاءت على ألسنة ثلاثة عشر شابا . . ! !

ج ـــ اثنان وعشرون منهم ، لا يرون بأسا فى شهود الأفلام السينمائية التى لا تعالج موضوعات غرامية محرضة ، وخمسة من هؤلاء يرهق ضمائرهم ـ جدا ـ فى حالة تحقق شرطهم السالف ، أن يحتوى الفيلم على قبلة أو غمزة عين . . !

د ـــ من هؤلاء الاثنين والعشرين ـ وجدت أربعة عشر لا يرون بأسا فى شهود أفلام الحرب والسطو ، والتدمير ـ ووجدت ستة منهم يرضون كل الرضا عن هذا النوع من الأفلام . . ؟ !

هـ ـــ الخمسة والثلاثون شابا ـ يؤمنون بوجوب إخفاء محاسن المرأة حتى لا يراها أحد . .

و ـــ ثلاثون منهم يرونه حراما وإثما ، أن تقرأ قصة غرام مهما يكن بريئا فهم لا يؤمنون بخرافة الحب العذرى . وواحد لا يجد بأسا من قراءتها ويقول : علينا أن نعرف الشرّ حتى لا نقع فيه . . . (! !)

ز ـــ من هؤلاء الثلاثين الذين يحرمون قراءة أدب الحب ، ثلاثة عشر لا يجدون بأسا فى قراءة قصص « أبوزيد الهلالى » و « عنتر بن شداد » للتسلية المباحة . . وخمسة لا يجدون بأسا فى القراءة لرجال مثل «دارون»

ويجدون لذّة فى أن يوفقوا بين الدين وداروين فى نظرية أصل الأنواع وتطورها . . .

وهكذا نجد معظمهم ، بل جميعهم ينأون ، شاعرين أو غير شاعرين عن كل محاولة تريد تذكيرهم بالمرأة فضلا عن إغرائهم بها ، وفضلا عن دعوتهم إلى تصحيح موقفهم المغلوط من الجنس . .

إنهم سعداء بعزلتهم ، وبعقدتهم ، ومن ثمّ فهم يتحدون كل همسة تهيب بهم أن استيقظوا . . حتى ولو كانت أغنية ، أو لحنا شريفا ، أو كلمة مسطورة . . !

وعلى هذا النسق نجد كل واحد من الذين يتدينون تدينا مرضيا يتعصب للدين فى النقطة التى كانت ملاذه وموئله من الموقف الذى أرهقه وأضناه . . ؛ فالتاجر الذى أفلس بعد ثراء عريض ، ونجاح حافل ـ لا يتجه بتعصبه ضد الجنس . بل ضد المال ؛ فيدافع فى استبسال شامخ عن الزهد والقناعة وبقية هذه العائلة الكريمة . ومثل هذا السيد يأخذه ثمل عميق كلما سمع حديثا يلعن الدنيا ويلعن طلابها ، والمجاهدين فيها ـ وإذا تلوت على سمعه قول بهلول الصوفى :

لا تركننّ إلى الدنيا وما فيها — فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها — ودورنا لخراب الدهر نبنيها
فاعمل لدار البقا رضوان خازنها — والمصطفى جارها والله بانيها

تقول : إذ صببتَ فى أذنيه هذه الأبيات ؛ فكأنك أفرغت فى خزائنه الخاوية أموال قارون ، والولايات المتحدة . . . !

ونحسبه نحن رجلا زاهدا فاضلا ، وحقيقته أنه رجل فاشل هارب . .

أجل . إن التدين ، وهو الطريقة التى نعلن بها عن إذعاننا الدينى ليس كما أوضحنا فى هذه السطور قرينا للأخلاق ؛ فقد يوجد تدين ولا يوجد خلق . . وقد يحدث العكس . كما أن التدين نفسه قد يكون مرضاً خلقيا يحتاج إلى علاج ، ومن هنا نرى أن الاعتماد على التدين وحده فى إنماء الخلق وتحسينه عمل غير صالح .

إنك تستطيع أن تملأ فجاج المجتمع بالطقوس الدينية الصالحة ، وبالمواكب المهللة المكبرة ، وتجعل الصلاة إجبارية ، وتفتش على عقائد الناس كما فعل آخرون من قبل — ولكن ذلك كله لن ينشئ فضائل النفس ، ولا فضائل السلوك . ولن يقدر على هذا سوى التعبير المتوافق المنسجم عن طبيعتنا ، وذلك يقتضى بادى الأمر دراسة هذه الطبيعة دراسة تجريبية لا غيبية ، أى أن نعرف ، ما الأنسان . ؟

هذا هو الأنسان . . !

يقول الفيلسوف الصينى « لين يوتانج » : .

— « إن أوضح الحقائق التى نتعامى عنها هى أننا نملك جسدا ، ويضيق مبشرونا ذرعا بنقائصنا وبغرائزنا ؛ فيعبرون فى بعض الأحيان عن أسفهم لأننا لم نخلق على شاكلة الملائكة ، ومع هذا ، فأن مجرد التفكير فيما يمكن أن تكون عليه حالة الملائكة خليق به أن يربكنا ويذهلنا . .

« إن الغلوّ فى تجاهل الجسد وتوكيد الروح كان مهلكا إلى أبعد الحدود ؛ فقد جعلنا فى حرب مع غرائزنا الطبيعية وجعل من المتعذر علينا تكوين فكرة كاملة عن الطبيعة البشرية ، ولقد جاء هذا الغلوّ وليد

معرفة ناقصة بعلم الأحياء ، وعلم النفس . وبمقام الحواس والرغبات والغرائز فى حياتنا . . »

إن هذه الكلمات الجليلة لتفتح الأعين البصيرة على لباب مشكلاتنا السلوكية ، ولقد قلنا من قبل إنه أتى علينا حين من الدهر ومصايرنا النفسية تقرر فى غيبة من طبيعتنا وتجاهل مطلق لوجودها ، والأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والعفة تملى علينا إملاء دون ما اعتبار لأمكانياتنا ، ودون أن يبذل جهد ما للكشف عن مصادر سلوكنا ـ لكأننا ملائكة جردوا من الغرائز والعواطف والرغبات وفقدوا صلتهم بالأرض التى يعيشون عليها . . ومن جانب آخر كان ثمت تنويم كامل لأهم مقومات الفضيلة ، ونعنى بها الأرادة . .

كانت الأمور تسير هكذا :

ـــ لماذا يزنى « س » . ؟

ـــ لأن لعنة الله سبقت عليه ؛ فكتبه من الزناة : !

ـــ ولماذا يسرق « ع » . ؟

ـــ لأن غضب الله سبق عليه فكتبه من اللصوص . !

ـــ ولماذا يتصف « ز » بالأمانة . ؟

ـــ لأن الله كتبه من الأمناء . !

وكان رواد السلوك الأنسانى وأطباؤه ، هم أجهل الناس به ـ إنهم الوعاظ والمبشرون الذين كانت مقدرتهم تنتهى عند تشنيف الأسماع بحديث طويل عريض عن مناقب الفضيلة ومثالب الرذيلة .. ثم يجف أثر هذه المائدة المقدسة عندما يجفّ ريق الواعظ وتنتهى محفوظاته . .

وقد نجافى دقة التعبير حين نصور هذه الحالة كما لو كانت حدثا ماضيا فنصدر العبارة بالفعل « كان » . فالحق أنها حالة ماثلة وعلة قائمة ، بيد أنه من الحق أيضا أن النتائج الباهرة التى أظفرتنا العلم بها ، والكشوف الصادقة التى وصل إليها فى تفسير حياتنا السلوكية قد جعلت من بقايا النظرة البدائية للسلوك وللأنسان شيئا كالماضى بعد أن فقدت الكثير من مقومات الدوام والاستمرار

لقد آمن العلم بأن الوعظ مسكن لا علاج ـ وماذا تفعل موعظة رهيبة ، أو حبيبة فى العفة ، إذا كانت تلقى على رجل ينطوى تركيبه السيكولوجى أو الفسيولوجى على حوافز حادّة تكرهه على الخطيئة . ؟!

وهنا أخذ الأنسان بيد رفيقه إلى غرفة التشريح فماذا وجده ..؟

لعلكم تذكرون أن علماء المنطق حين أرادوا أن يضعوا للأنسان تعريفا مناسبا قالوا « الأنسان حيوان ناطق » .

لقد كانوا صادقين ، وبين الحيوانية والناطقية تمرّ شخصيتنا الأنسانية فتتلقى التأثير من الجانبين .

إن كلمة « حيوان » تصور الجانب المادى فى الأنسانى وكلمة ناطق ، تعبير عن الجانب الفكرى . والأنسان بهذه المثابة يبدو كنموذج تصوغه مؤثرات مادية ومؤثرات فكرية ، نابعة جميعها من طبيعته المتمثلة فى كونه حيوانا وكونه ناطقا . . ومن هذه الطبيعة يتلقى قدره المكتوب ، ويتحدد سلوكه فى هذا الوجود . ثم تجىء البيئة فتقوم بدور «الشهر العقارى» ..!

إنها تسجل فى لوحها المحفوظ هذا القدر ثم تسهر عليه كى ينفذ فى دقة وإذعان .

ماذا يفعل إنسان له غدد وأمعاء وأعضاء..؟ لنقرأ من كتاب « فن العيش » كلمات ساخرة بيد أنها معبرة . ، يطلقها الفيلسوف الساخر « لى ليوانج » من فم مملوء بالحكمة والمرح . . ؟

— « . . الذى أراه أن أعضاء الجسم البشرى ، الأذن والعين والأنف واللسان واليد والرجل ـ لها كلها وظائف ضرورية . . ولكن العضوين اللذين لا ضرورة لهما على الأطلاق ، ومع ذلك فقد زودنا بهما هما : الفم والمعدة اللذان أورثا الجنس البشرى خلال العصور بلاء قاصما وهما مقيما ، ذلك بأن وجودهما جعل كسب المعيشة مسئلة معقدة . وعندما يصبح ذلك كذلك ، تقحم الحيلة والكذب والخيانة أنوفها فى الشئون الأنسانية . وبدخول الحيلة والخيانة والكذب فى الشئون الأنسانية يبرز القانون الجنائى إلى الوجود . .

« إن فى ميسور النبات أن يحيا من غير فم ومعدة ؛ فلماذا زودنا بهذين العضوين . . ؟ ، ولنفرض أنه لم يكن من تزويدنا بهما بد ؛ أفما كان فى ميسور الخالق سبحانه أن يجعلنا نستمد غذاءنا كما تستمد السمكة والمحارة غذاءهما من الماء ، أو كما يستمد الصرار غذاءه من الندى . . ؟ ، ولو أنه فعل ، إذن لما كان علينا أن نناضل فى هذه الحياة ، ولزالت هموم الجنس البشرى وأشجانه . . » ؟!!

أجل أن الحقيقة لتتكشف لطلابها ؛ فإذا الخطاة أدوات لتنفيذ ما نسميه الجريمة ، يمتثلون فى ذلك الأوامر التى يصدرها المجتمع تارة ، وتصدرها طبيعتهم الانسانية تارة أخرى . . فلماذا إذا كنا جادين فى نشدان الفضيلة والخير ، لا نسعى لتقويم مجتمعنا ، وتعلية طبيعتنا . ؟

إن الإنسان لا يولد كاملا ، ولا يولد ناقصاً ـ لا يولد خيراً ، ولا يولد شرّيراً . ، إنه يولد فقط . . .

وهو مجموع خليط عجيب دقيق من الأعضاء والأعصاب والدم والأمعاء والغدد ـ وبين سلوكه ، وهـذه الأجهزة صلات أشد متانة ووثوقاً مما بينها وبين كافة المواعظ والقوانين .

أجل ، إنها تؤثر فى أخلاقه تأثيراً جماً لا يكاد يضاهيه سوى تأثير التربية والبيئة ـ بل إن طول القامة وقصرها ليؤثر فى تفكيرنا وسلوكنا .

يقول « الكسيس كاريل » مؤلف « الانسان . . ذلك المجهول » .

ـ « إن ثمت تفاوتاً عظيما فى وظائف الأعضاء بين الرجل الطويل النحيل ، والرجل القصير الممتلىء ؛ فالطويل عرضة للاصابة بالسل والعته . والقصير عرضة للاصابة بالهوس والسكر . . »

ثم يقول ـ « وإن سلامة أغشية التنفس والهضم لذات سيطرة عظيمة على مقاومة الجسم للأمراض المعدية ، وعلى توازنه وكفايته الفكرية . .

وتشد غدد التناسل أزر القوى البدنية والعقلية والروحية ؛ فما من خصىّ أصبح فيلسوفاً عظيما ، أو عالماً كبيراً ، وتفرز الخصيتان والمبيضان فى الدم مواد معينة تجعل لأفعالنا كافة مميزاتها الخاصة ؛ فإفراز الخصيتين يورث الجرأة والضراوة والقسوة . . »

إلى هـذا الحدّ نحن خاضعون لدولة الجسم ، بل إن علماء الأخلاق ليرون فى اكتشاف الغدة الدرقية انقلاباً هائلا فى دنيا السلوك الانسانى . . وذلك لما وجدوه لها من أثر فى تحديد وجهته نحو الهدى أو شطر الضلال . . وكل خلل ينتاب أجهزة الجسم يعقبه خلل فى النفس والأخلاق . ولطالما

سيق إلى السجون أناس بسبب كبد مريض ، أو أمعاء مشحونة بميكروب « الدوسنطاريا »

ذات مرّة أردت أن أعرف كيف ينحرف الصبي البرئ انحرافاً ناجماً عن مرض عضوى ، وتوجهت إلى نيابة الأحداث حيث أعانني أحد رجالها الفضلاء على ما أريد .

— هذه فتاة صغيرة السن ولنرمز لها بحرف « ف » تشتغل خادما لدى أسرة لا تمكنها من كفايتها من الطعام والطفلة شديدة النزوع إلى السرقة . ولكن ليس كل شئ تسرقه ؛ فقد يلقى فى طريقها شئ نفيس من حلى ، أو متاع أو زينة ؛ فلا يثير حاستها ولا اهتمامها . . إنها مولعة بسرقة الطعام حيث تلقاه تخطفه ، ولو من البقال ، أو من بيوت الجيران . .

وعندما سلمت الفتاة إلى مكتب الخدمة الاجتماعية للأحداث وشرع يدرس حالتها بدأ رحلته معها بتوقيع الكشف الطبي عليها فألفاها مريضة بديدان الأسكارس التى تقاسمها كل غذاء يدخل جوفها ، ولما كان حظها من الغذاء قليلا ؛ فأنها تعيش فى جوع دائم . . وهكذا بدأت أناملها تتحسس طريق الطعام حتى تكوّنت لها عادة سرقته ، ولقد عولجت «ف» وطهرت أمعاؤها . . وأجريت لنفسيتها تضميدات يسيرة ردّت إليها اعتبارها وثقتها بنفسها . وعادت وديعة أمينة فاضلة . .

فأي مصير كانت المسكينة ستلاقيه لو لم يكتشف العلم جذور العلة فى أحشائها . . ؟

كان المجتمع الرشيد المحترم سينبذها بعد أن ينعم عليها بلقب مجرمة ، وكانت هى من جانبها ستقاوم وترد تحية المجتمع بأحسن منها ، فتسجل

أرقاما قياسية فى فن السرقة ، وتمارس البغاء السرى ، أو يتلقفها أهل المروءة والنجدة من عصابات المخدرات والرقيق الأبيض (!) فيستغلونها فى التهريب وغيره حتى يأتى على «ف» دورها فى الترقية يوما ما ؛ فتتربع على عرش الجريمة وتفوق ريا وسكينة ، بسبب شئ لم تسعَ إليه ولم تحرص عليه ، ذلك هو ــ ديدان الأسكارس . . . ! !

ما أعجب المفارقات التى تنتظمها حياتنا . . ؟ فالأنسان الذى نصفه بالصلاح ، أو الفساد . بالاستقامة ، أو الاعوجاج ما هو إلا ثمرة أشياء لا يمكن وصفها بشئ من ذلك أبدا . !؟ فهذه الغدد التى تسرف فى إفرازها فتسبب لنا شعورا جنسيا ينقلنا إلى الخطيئة ، أيمكن أن ننعتها بالرذيلة ، أو نحملها المسئولية . . . ؟ !

وهذا الجهاز العصبي الذى ينتظم الجسم من المخ إلى القدم والذى ــ حين يرهق أو يمرض ــ يسبب انحرافات عقلية وخلقية باهظة النتائج . . أيمكن أن نقول عنه إنه جهاز فاضل ، أو جهاز مرذول . . ؟

إن هذا ليدعونا إلى تغيير مناهجنا فى تكوين الأخلاق وتحسين السلوك تغييرا أساسيا يبدأ من الاعتراف بواقعية هذه المؤثرات التى تفرض على الأنسان حياته وسلوكه ، وتضع بديل المواعظ المتجشأة ، والتحريمات المحرضة ــ تلك التجارب العليمة ، والنتائج الواعية التى تدأب لبلوغها وتحصيلها علوم النفس والتربية والأخلاق .

أما أولئك الذين لايفتأون يطلقون خوارا مزعجا ، أن أصلحوا الأخلاق . . طهروا الأنفس؛ فما نحسب خوارهم هذا إلا تزجية لفراغ ، ولقد رسم الله تعالى الطريق اللاحبة ، والجادّة الواضحة حين قال :

— « سيروا فى الأرض ؟ فانظروا كيف بدأ الخلق . . . » ؟ !
ترى هل فعل « دارون » غير هذا . . ؟

لقد امتطى ظهر الباخرة ـ بيكل ـ وعنـد ما هبط منها إلى أرض التجربة ، راح يغوص بين رمالها وصخورها ، ومخلفات القرون المستجنة فيها ـ وسواء أصاب شاكلة الحق أم أخطأها ؟ فقد فعل ما يجب أن يفعله كل مؤمن بالانسان ، وبالحقيقة وبواجبه حيال الانسان والحقيقة ـ وهو ما يصنعه اليوم علم النفس والأخلاق . . إنه ينظر كيف يبدأ خلقنا كل يوم . وكيف يجيء أحدنا إلى الدنيا معبأ بوراثات الأوّلين ، أو على حدّ تعبير أحد رجاله «كل امرئ منا سيارة كبيرة يركب فيها جميع أسلافه .....!» ـ ثم يمضى مع الانسان وهو يجتاز مراحل نموّه ، ويبصر غرائزه وهى تنبثق فى أنفة آمرة . ويرصد ظهور العقل الذى هو مجموعة وظائف الدماغ من مخ ، ومخيخ ، ودماغ .. وبروز المعرفة التى هى ثمرة خبراتنا السابقة ، ويرى كيف يلتحم عقل الفرد بعقل الجماعة عن طريق المحاكاة . والمشاركة وعدوى العواطف ، وكيف يتفاعل الجسد مع العقل تفاعلا يثمر أخيراً هذا الذى نسميه « الشخصية الانسانية »

عند ما تبصر رجلا لا يفعل الرذيلة فحسب ، بل ويقف من مسئوليّة فعلها موقف اللامبالاة ، فتريث قبل أن تحكم عليه بأنه مجرم . . فغالباً ما ستجده مريضاً بورم النخاع المستطيل الذى يفضى بدوره لذلك الاستهتار . . ! !

وعند ما تبصر مدمنا للخمر حتى لا يكاد يفيق ؟ فلا تسلط عليه واعظاً ، ولا شرطياً . . بل ضعه بين يدى جرّاح وثيق ليجرى له عملية

بزل فى السلسلة الفقرية ؛ فإنه يرتد سلبيا معافى لا يكاد يذكر عن الجرشيئاً . . !

وصحيح أن المجتمع ، سيما إذا كان متخلفاً فى ثقافته وإمكانياته كمجتمعنا ، غير مستعد لهـذا النوع من العلاج الذى قد يعتبره تدليلا مفسداً . ، وحتى لو آمن بجدواه فإن ظروفه لا تسمح بوضع جميع الحالات وهى تجلّ عن الحصر موضع الرعاية المطلوبة ؛ ولـكن ذلك لا يعنى أن يقنع بعجزه وجهله . بل عليه أن يبدأ رسم سياسة جديدة ينقذ بها من الحاضر ما يمكن إنقاذه ، ويتيح للمستقبل من الفرص العليمة والقويمة ما يجعله وعاء شريفاً لمخلوقات شريفة .

وإلى أن نلتقى فى الفصل الأخير من هـذا الكتاب نكتفى بتسجيل هذه الحقيقة التى نوجز بها جميع ما سبق .

إن أمراض النفس كأمراض الجسد سواء بسواء . ليس للمرء كثير سبب فى تحصيلها ، وليس من المجدى أن يلام عليها أو أن يلتمس له الشفاء من مكان خارج عن ذاته ؛ فلنبحث عن حقيقة سلوكه فى داخله ، وداخل بيئته ، ولن نبصر هذه الحقيقة قط وعلى أعيننا عصابة من سوء تقدير الأنسان ، بأن نضعه فوق قدره ، أو دون قدره . . وإذن ؛ فلندرس سلوكه فى ضوء اعتبارات ثلاثة :

ا — أننا ندرس سلوك إنسان ، لا سلوك ملاك . .

ب — أخلاقنا ليست قدرا فرضته السماء ، وإنما هى ثمرة ظروف إذا تغيرت تغيرت الأخلاق معها . .

ج — ليس السلوك السوى هو الذى يقوم على أساس من تعطيل طبيعتنا الأنسانية وكبتها ، بل هو الذى يعبر عنها جميعا فى توافق وتناغم ورشد

فلننظر ــ الآن ــ كيف تعمل طبيعتنا . .

وما الأغلال التى تؤودها ، وتضنيها . ؟

وهل تستطيع ، إذا حل وثاقها ، أن تهتدى سواء السبيل . ؟

طبيعتنا الحرة ، أعلم .

« إن السم ينتج الترياق . . ، ومن
« طبيعتنا الرديئة تنبثق طبيعتنا الوضيئة
« ثقوا بها ، وتعاونوا معها . . »
ــ دكلسن ــ

في هذا الفصل

السعادة . . لا التقوى
انتهى عهد الخطايا . .
أنت مريض ، لا آثم . .
الأثم ، إدمان الشعور بالأثم . .
التحريم ، معطل الأرادة وصانع الأغراء . .
غرائزنا تعرف الطريق . . .

السعادة .. لا التقوى

إن خير ما نفعله لاكتساب شخصية مكتملة وسلوك فاضل أن نجعل الاكتمال والفضيلة جزءا من طبيعتنا ، وذلك لا يتأتى إلا إذا توافر لطبيعتنا الأنسانية اقتناع كامل بأن الفضيلة تعني السعادة . . أى أن تحس خلال نضالها من أجل مستوى أعلى أنها تمارس رياضة محببة ممتعة ويكون سعيها الحثيث أقرب إلى الهواية ، منه إلى النضال والمجاهدة ـ ولكى يتم هذا على نسق رشيد مجد ، فلا بد من أن يجئ وفق الطبيعة لا ضدها . .

لقد وهبنا طبيعتنا لنسعد بها ، واستعمالها على خير الوجوه هو السعادة ، وبالتالى هو الفضيلة . ولقد أدركت البشرية المتطورة ذلك ، وبث هذا الأدراك فى سلوكها الأنسانى حرارة وبشرا ؛ فتلك البلادة التى كانت تسمى زهدا .. وذلك العجز الذى كان يسمى ورعا . . وذاك الخنوع الذى كان يسمى تواضعا .. والانطواء الذى كان يسمى عفة . . كل هاتيك الغرانيق العلى انقرضت وأخذت مكانها فى جدارة واستحقاق ـ هذه الأخلاق الجديدة النابعة من طبيعة الأنسان . والتى تريد لتكفل له سعادة ناجمة عن ثرائه واكتفائه ، لا عن يأسه وخذلانه . .

ولقد أمعن الفكر الأنسانى فى ربط الفضيلة بالسعادة حتى رأينا أحد أعلامه يعرف علم الأخلاق بأنه « تعليم الناس فن الحصول على السعادة وتحاشى الألم » . . ! !

وطبيعى أن يكون المقصود بالسعادة هنا ـ التوافق المتناغم بين شخصيتنا الماثلة ، وشخصيتنا المرجوة . . بين طبيعتنا ، ومثلنا الأعلى . .

وبقدر استثمارنا لهذه الطبيعة تجيء سعادتنا زاخرة وافرة . والشخصية السوية أعنى تلك التى تكون حياتها تعبيرا سليما وافيا عن غرائزها واحتياجاتها . هى وحدها الخليقة بأن تكون فاضلة وسعيدة .

إنه لأقرب إلى الهداية والنضج ـ ذلك الذى يتفتح وجدانه على نمط سواء وهو يصغى لأم كلثوم تغنى :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى — بمدحك بيد أن لى انتسابا

فما عرف البلاغة ذو بيان — إذا لم يتخذك له كتابا

ثم وهى تغنى :

القلب قد أضناه عشق الجمال — والصدر قد ضاق بما لا يقال

يارب هل يرضيك هذا الظما — والماء ينساب أمامى زلال..؟

ذلك أن البيتين الأولين يرضيان فينا رغبة دينية ، والآخرين يشبعان فينا رغبة فنية . . واستجابتنا الموقفين على صورة متماثلة ينبئ عن طبيعة معتدلة عادلة ، تنطلق منها الرغبات انطلاقا متساويا متساميا وهذا مثل نضربه ، ويقاس عليه كثير من الأمثال .

أما الذين يفرون من رغباتهم ، ويعلنون حربا أهلية ضد طبيعتهم فليسوا من الفضيلة ولا من السعادة فى شئ . . ولقد يتساءل سائل : لماذا..؟ إنهم سعداء فى نضالهم وحرمانهم وأنت تزعم أن الفضيلة الصحيحة هى التى تتحقق بوسائل تجلب معها السعادة ؟ فلماذا لا يكون هؤلاء السعداء فضلاء . . ؟

ونجيب : إننا لا نريد تلك السعادة الزائفة المغرورة ، فالهندى الذى « يقرقش » الزجاج ، ويطوق جسده بالثعابين ، ويتقلب عريانا على أسنة

الرماح ورءوس المسامير ثم يجد نشوة فيما يفعل ليس سعيدا .

وقد يسأل آخر : مادامت الفضيلة هى السعادة ؟ فأولئك الذين يكرعون الخمور ، ويتقلبون بين الأحضان الثملة قوم فضلاء لأنهم سعداء..؟

ونجيب : من قال : إن هؤلاء سعداء . ؟ إنهم أنفسهم لا يجرءون على ادّعاء هذا ؟ فليس فى العربدة سعادة . وإنما هى ــ لذة بين ألمين ــ ، ونشوة كاذبة بين يديها شقوة ومن ورائها شقوة . .

إننا نعنى بالسعادة ، هذه الحالة الوجدانية الفرحة المشرقة التى نجدها حين نعبر عن غرائزنا الراسخة تعبيرا متوافقا ، وبذلك أيضا ــ نستبعد تلك الأسطورة التى عرفها الشرق طويلا تحت اسم « السعادة الروحية » هذه التى تقوم على تحطيم الجسد وجحود طبيعته ، والتى يعتقد الناس أنها مثوبة الذين يدخلون مع طبيعتهم فى نضال مرير شاق تحت اسم « التقوى » !

وأكاد أحسب أن الأنسانية لم تضلل طول حياتها بشىء يضاهى حظها من الضلال الذى سببه لها إذعانها الأعمى لأسطورة السعادة الروحية ، فلطالما كتب عليها أن تبقى تحت تأثير هذا المنوم ، راضية عن بؤسها ورقها ، وشقائها ، شاكرة أنعم الذين يسلبونها النعمة . . . ! مستعيضة عن السعادة الحقة التى تطعم الجائع ، وتكسو العارى ، وتطمئن المذعور ، وتهدي الضال ، بسعادة روحية تنبع من مجاهل لم نرها ، ولم يرها الذين تحدثوا عنها فأطالوا الحديث . وياليتنا نجد من يشخص لنا هذا اللون الفكاهي من السعادة . . وأين يا ترى نجدها ؟

فى الفقر مع الراحة ، أم فى الثراء مع التعب . . ؟

فى العزوف عن الحياة ، أم فى التفوّق على الحياة . . ؟

ثم متى تكون السعادة مادية ، ومتى تكون روحية . . ؟ ها كم خليطا من المشاهد ؛ فلننظر أيها يتبع الأولى وأيها يتبع الثانية .

* إذا قضى الرجل مع عروسه ليلة ودودة ، انطفأت فيها أضواء الكهرباء ، وتألقت أضواء الرغبة ، فماذا تكون سعادتها — مادية أم روحية . . ؟ !

* إذا قضى العابد ليله يتأوح فى ذكره وابتهالاته ؛ فماذا تكون سعادته مادية أم روحية . . ؟ !

* إذا أكبّ عالم على مختبراته سنين عددا يبحث عن مصل يغزو به قلاع ميكروب عنيد ؛ ثم يجد ضالته بعد طول عناء ، وتصطفق حواسه الفرحة فى غبطة هائلة ؛ فماذا تكون سعادته مادية أم روحية . . ؟ !

* إذا أكبّ عالم آخر على أجهزته يتعجل اختراع سلاح يحقق أحدث الأرقام القياسية فى حصاد البشر وترويع الحياة ، ثم يبلغ غرضه ، ويشهد تجاربه المبيدة فى انفعالات راضية جذلى ، فماذا تكون سعادته ، مادية أم روحية . . ؟

الحق أن تنويع السعادة هكذا ، عمل خبيث بقدر ما هو جاهل ، ذلك أن المفهوم الصحيح لها ، أنها الحالة التى يترجم بها إلى الشعور ما يحدث فى داخل طبيعتنا من استشراف وحركة . .

فى داخل طبيعتنا . ، أفهمنا . . ؟ ؟

وطبيعتنا ليس فيها ما هو مادى ، وما هو روحى . . لذلك كان « لين يوتانج » صادقا حين سئل عن السعادة فأجاب ، بأنها عملية هضم سليمة . . وكان زميله الآخر مصيبا حين سئل عنها فأجاب : هى أمعاء نظيفة . .

إن قهر النفس وإذلالها لن يكون فى حسابنا ونحن نتحدث عن الفضيلة والسعادة . . ولقد أتى علينا دهر طويل ونحن نحرص على التقوى ، أما اليوم فأن التقوى تتطور إلى سعادة ، وليس معنى هذا إهمال التقوى والمتقين . ولكن معناه ارتفاع المحاولات المبذولة للاكتمال الخلق نحو نقطة أعلى ــ كشف عنها العلم والتجربة ، فالتقوى هى أن تتوقى ضرارة الغريزة بخنقها . . أما السعادة ؟ فهى أن تروض الغريزة ، ثم تمتطى صوتها وتنطلق بها فى سياحة بهيجة عبر حياتك الممتلئة السامقة .

ولئن كنا مكرهين فيما مضى على التوسل بالتقوى بسبب من ضحالة معرفتنا ؟ فما ينبغى أن نقعد عن السعادة بعد إذ وجدناها .. والفضيلة التى تبغيها السعادة لنا تتمثل فى تحقيق طبيعتنا الأنسانية تحقيقاً كاملا ، ومنحها عن طريق مختار رغبتها ومشيئتها ــ وكل سلوك لا يتم وفق هذه الطبيعة ولا يحقق لوجودها تمكنا وصعودا ، لن يكون فاضلا ، بل ولا إنسانيا ، لأنه يقع خارج نطاق التجربة الأنسانية؟ فكيف نعتبره فاضلا ــ ذلك الذى يفرّ من تبعات الحياة متوسلا بالانتحار البطىء الكامن فى أىّ من تلك الرياضات الدينية القاتلة . . ؟ !

وكيف نعتبره فاضلا ــ ذلك الذى أخفق فى تحقيق غرائزه فآثر تحطيمها ، وفرض قيود مجنونة من الحرمان عليها . . ؟

إن الفضيلة ، وهذا ما سنظل نبدى فيه ونعيد ، هى العمل الذى لا يقوم على هدم طبيعتنا . بل على الاستجابة الفاهمة لها ، والتعبير المنسجم عنها .

وإذن ؟ فلن ننعم بفضيلة العفة على هذا الذى يقمع غريزة الجنس بالجوع . .

ولا بفضيلة القناعة على هذا الذى يقمع طبيعة الطموح بالزهد . .

ولا بفضيلة الذكاء على هذا الذى يقف من مشاكل الأنسانية موقف الحياد ، أو اللامبالاة . . .

فهؤلاء ونظراؤهم تقوم بطولتهم الخلقية على عجزهم عن إتيان الرذيلة ــ كالأبكم الذى لا يكذب ، ليس له فى صدقه فضيلة لأنه لا يملك آلة الكلام التى تجعله صادقا أو كاذبا . . كذلك هؤلاء الذين يبلغون فى ردع طبيعتهم وتأديبها هذا الحد الذى يجعلها شبه معدومة

ألا ما أصدق كونفوشيوس وهو يقول : « الناسك الذى يهرب من الحياة لا يأتى أمرا مذكورا . أما الناسك الأعظم ؛ فهو ناسك المدينة » . . .

والآن ؛ فأن طبيعتنا غاصة بالأعشاب الضارّة الكثيفة التى تعتاق نموها ، وتمتص منها الحياة ، فلتكن محاولتنا الأولى تطهيرها من هذه الأعشاب

انتهى عهد الخطايا . .

فى وجداناتنا فكرة قديمة عن التعبير غير السوى الذى يكتنف سلوكنا . فالدين سمى أخطاءنا السلوكية ذنوبا وخطايا ، وعلم الأخلاق أسماها رذائل وعيوبا ، وكان هدف الدين والأخلاق ولا يزال ــ هو التنفير من هذه الأخطاء . ولكن الأنسان الذى خلق هلوعا ، بالغ فى تصور هذه الدلالات ، وسمح لها بأن تكون ثقيلة الوطأة على نفسه ، فلفحت الضمير الأنسانى بشعور طافح بالدونية ، واحتقار للذات ، وإحساس ناج بالأثم والعار . ولقد حدث نتيجة لهذا أن كثرت فى المسيحية والأسلام تلك الفرق التى جعلت نهجها أن ترتفع بالنفس البشرية عن طريق إهانتها . . (!)

وفى كتب التصوف وسير الصالحين تعثر على حشد حاشد من الذين ذهبوا فى تعذيب أنفسهم وتحقيرها مذهبا بعيدا ، وارتدوا المزق القذرة وتمنطقوا بالأحزمة ، وطبعوا سلوكهم بطابع مضحك وذلك كى ينزعوا عن أنفسهم لباس الكبر والاعتداد .. وهكذا ؛ فأن الدين لم يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون . فلم يكن بد فى ذلك الزمن السحيق من أن توضع أخطاء السلوك تحت عدسة مكبرة حتى تبدو للمستهترين فادحة التبعات وهو ما فعله الدين . فأذا كان الأنسان بحاجة إلى حافز يضبط سلوكه ؛ فأن هذا الحافز يتمثل فى واحد من هذه الثلاث

(١) خوف العقاب ، (٢) رجاء المنفعة ، (٣) احترام النفس. أما الثانى والثالث ؛ فما كانا ليقنعا الأنسان الأوّل ، إذ كانا يتمثلان فى شيء واحد هو ــ حماية النفس ، وحماية النفس آنئذ تعنى الانتصار فى معركة الحياة والبقاء ، فأذا كان السبيل لهذا البطش والأباحية فلا بأس بهما لديه . . وأما الخوف من العقاب ، فلم يكن ليوفى على غايته إذا كانت العقوبة مما يستطاع دفعها بالقبضة العارمة ، أو الحيلة البارعة ــ وإذن فليرتبط هذا الخوف بالمجهول . . أو ليرتبط بقوة لا قبلَ للناس بها . قوة تكون من سعة الاطلاع بحيث تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . . ومن القوة بحيث تقول للشيء كن فيكون . . وليس ذلك لأحد سوى الله الذى قال فى كتابه الكريم : ــ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ــ . . ولقد اختلطت الخطيئة بالجزاء المرقوب لها اختلاطا كاد يأخذ على الناس مسالك الأمل والنجاة ، وصار الغلو فى الخوف الذى وضعوه تحت اسم « المراقبة » غاية المتبارين والمتنافسين . ! !

كان ثمت شيخ صالح له مريدون ، ولقد اختص بحفاوته وحبه فتى منهم نفس الآخرون عليه هذا الاحتفاء ، فسألوا الشيخ عن سرّ هذا التمييز فقال لهم : ليحضر كل واحد منكم معه غدا سكينا ودجاجة . . وفى الغد جاءوا يحملون ما طلبه الشيخ . الذى أمرهم أن يتفرقوا ، ويذهب كل لخبء يذبح فيه دجاجته بحيث لا يراه أحد أبدا . . وبعد قليل عادوا . . يحمل كل منهم دجاجته وأوداجها تشخب دما عدا الفتى المحبو بعطف الشيخ فأنه لما يحضر بعد . . . ولكنه أخيرا يأتى ودجاجته الحية تصيح فى يده ، ودموعه تتحدّر من عينيه كأنها فى سباق . .

سأله شيخه : لماذا لم تذبح دجاجتك . . ؟

فأجابه : لقد أمرتنى أن أذبحها فى خبء لا يرانى فيه أحد ، ولقد كنت كلما أويت إلى مكان أبصر الله يرانى . . ! !

هنالك ابتسم الشيخ ونظر إلى الوجوه المبهوتة وقال : لهذا أفضله عليكم . . !

ليست هذه القصة الصوفية قصة ذلك الفتى وحده ، ولكنها قصة موكب طويل من الذين سلموا أنفسهم لفكرة الخوف الدينى تسليما أفضى إلى النقيض . . والخوف من الله محمود إذا كان تعبيرا دقيقا عن إجلاله وتوقيره . ؛ فأذا جاوز ذلك المدى فقد نفعه وجدواه . . ونحن لا نزال نعتمد فى الحث على الصلاح والاستقامة ، على التخويف الشديد من عذاب الله . بيد أنه من الخير لنا أن نعيد النظر فى الموضوع ، ونعلم أن الاكتفاء بهذه الوسيلة والاعتماد عليها كثيرا ما أنسيانا الهدف وأضلانا السبيل ؟ فنوع

التربية التي نتلقاها ، ونوع الحياة التي نحياها ، وطابع البيئة التي هي وعاؤنا - مع توقير الله ، هو الذي يقرر نوع سلوكنا . . ولطالما استهوت الرذيلة أناسا يخافون الله ويرهبون بأسه ؛ فأبو نواس الذي قال معبرا عن رجائه في الله وخشيته له :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة — فلقد علمت بأن فضلك أعظم
إن كان لا يدعوك إلا محسن — فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرّعا — فأذا رددتَ يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا — وجميل عفوك ثم إنى مسلم

هو نفسه الذي يقول وقد قهرته ظروف نفسه وجموح طبيعته

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هي الخمر — ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
فما الغبن إلا أن ترانى صاحيا — وما الغنم إلا أن يتعتعنى السكر
ولا خير في فتك بغير مجانة — ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وهذا عمر الخيام يلهبه إحساس الخوف من الله فينشد

بينى وبين النفس حرب سجال — وأنت ياربى شديد المحال
أنتظر العفو ولكننى — خجلان من علمك سوء الفعال

ثم يعود باللائمة على نفسه فيناديها

يا من نسيت النار يوم الحساب — وعفت أن تشرب ماء المتاب
أخاف إن هبت رياح الردى — عليك أن يأنف منك التراب

ولكنه يعود فيقع تحت وطأة ضاغطة من تأثير تربيته وبيئته وظروف حياته فيقول :

قالوا امتنع عن شرب بنت الكروم — فأنها تورث نار الجحيم

ولذتى في شربها ساعة — تعدل في عيني جنـان النعيم
أين النديم السمح أين الصبوح — فقـد أمضّ الهم قلبي الجريح
ثلاثة هن أحب المنى — كأس وأنغام ووجه صبيح

ولطالما تحدث القرآن عن الذين يضلون عن علم . . علم بالحلال وبالحرام ، وعلم بجبروت الله وقوة بأسه

فالخوف من الله غير كاف لأحراز الاستقامة . . ومن هنا نرى فشل التربية التى تعتمد عليها الهيئات الدينية في تقويم السلوك عن طريق الأخافة وحدها ، ونستطيع أن نبصر الرسول وهو يزيح عن كواهل الناس هذا الفائض من الخوف بما يضربه لهم من أمثلة .

هذا رجل يأتيه مرتجفا يقول : يارسول الله لقد استوجبت حدًّا . فيربت على كتفه ، ويسأله : هل شهدت معنا الصلاة . . ؟ فيجيب : نعم ، فيقول الرسول ، لا بأس عليك إذن . إن الحسنات يذهبن السيئات . . ويعود الرجل مشبوب الحياة متواثب العزم ، قريبا من الله . بعيدا من اليأس . . وهذه أم تحمل ولدها في حنو ودود ، تقبله وتحتضنه ؛ فيسأل الرسول أصحابه قائلا :

— أترون هذه الأم طارحة ولدها في النار . . ؟

فيجيبونه — أبدا . . يارسول الله . ، فيعقب قائلا

— والذى نفسي بيده ، لله أرحم بعبده من هذه بولدها . .

وهذا عمر بن الخطاب الذى أخبر الرسول بأنه لو كان بعده نبي لكان عمر ، يرى الناس وقد احترقوا بالشواظ المتقذف من تصورهم للنار وطول

تذكرهم لها ، فيقول : والذى نفس عمر بيده ، ليأتين على جهنم يوم تصطفق فيه أبوابها ، لا تجد من تحرقه ـ كما روى عن عمر ـ ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح . .

ولما كان هذا الخوف المدمر ينبع من مبالغتنا فى تقدير الخطيئة ؛ فقد عنى الدين الصحيح لا الدين الذى فى جماجم الجهلة والمغرضين ـ بأن يلاشى هذه المبالغة من وجدانات الناس فمضى يشير فى وضوح إلى الحقيقة التى اكتشفها العلم فيما بعد وهى أن أخطاء السلوك طبيعة إنسانية وضرورة بيولوجية .

أجل ـ لقد جهر بهذا عيسى ومحمد ، وكان صوتهما المرتفع هو الذى عجل بمقدم العلم الذى تسلم الزمام .

ها هو ذا المسيح يقول : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . . أى أنكم جميعا معشر البشر خطاءون . . وما كانت الخطيئة ليكون لها هذا الشمول لو لم تكن أرسخ من أن تكون شيئا طارئا .

وها هو ذا محمد يقول : والذى نفس محمد بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم . .

ويتنزل الوحى بكرامة للذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم . . أى صغار الخطايا فيطمع الرسول للناس فى عفو أشمل ويقول ملوحا بذراعه شطر السماء

إن تغفر اللهـم تغفر جما — وأى عبـد لك لا ألما

أكان هذا من الرسولين الكريمين عيسى ومحمد ، تحريضا على الآثام . . ؟ بطبيعة الحال . كلا ، وإنما هو وضع للآصار التى تؤود الأنسان وتكاد

تبيده ـ تلك التى لا تدفع إلى الفضيلة بقدر ما تصرف عنها وتنفر منها .

ولما كانت المسئلة الجنسية وطأة باذخة على الناس ، سيما أولئك الذين لا يقدرون على الزواج ، فقد هدم الرسول وطأتها حين قال : كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا اليد اللمس ، ثم ذكر فى ختام الحديث أن العضو التناسلى يصدق ذلك أو يكذبه . .

ومعنى الحديث أن كل إنسان فى طور شبابه يخضع لانفعالات عاطفية، مدرك ذلك لا محالة . فأذا لم يسمح لانفعالاته الهادئة هذه أن تتحول إلى خطيئة جنسية كاملة فأنه لا يكون قد أتى خطأ ولا إثما . .

إن كثيرين من مدّعى الورع والصلاح يرفضون هذا التفسير وكأنهم بهذا يضعون أنفسهم فى منزلة أرفع من منزلة رسول الله عليه السلام، فلنضرب بهم عرض أقفيتهم ، ولنقف بجوار محمد فأنه أتقى وأعلم .

إن هذا الحديث فوق أنه احترام لطبيعة الأنسان ؛ فأنه تمزيق للأطار المتضخم الذى وضعت فيه أخطاء السلوك وهو مثل ينسحب على كل انفعالاتنا التى ستعرف فى الصفحات الآتية كيف نتسامى بها ، ولكن بعد أن نتقبلها ونراها فى وضعها الحق .

أنت مريض ، لا آثم . .

وهكذا ما كان الله البارّ ليدع الضمير الأنسانى يتأرجح فى هواء العاصفة ، ويحترق بلفحها ، فمكن العلم من أن يضع يده المباركة على منابع

حسناتنا وسيئاتنا ـ فوجد أن العادات التي يتكون منها سلوكنا مستمدة من مصدرين : الاتجاهات ، والعقد . .

« فالعادات الفاسدة كالشراسة والانحرافات والعناد وانتقاص الذات ترجع إلى عقد مرَضية مكبوتة . والعادات الصالحة ، كعادات الشهامة والجود وعزة النفس ، وعادات الاهتمام بالعمل ودماثة الخلق تنتج من الاتجاهات المستساغة » (١)

كذلك وجد العلم أن الناس لطول بلائهم فى الحياة معرضون لألوان شتى من الأمراض .

ا ــ فهناك الأمراض العضوية ـ وأسبابها جسمية

ب ــ والأمراض العصبية ـ وسببها الصراع العقلى اللاشعورى

ج ــ والأمراض الخلقية ـ وترجع إلى العقد اللاشعورية المكبوتة

د ــ أخطاء السلوك ـ وتنجم عن الاندفاع وراء مثل أعلى وضيع

وكما أننا لا نعالج مرضا عضويا كالروماتزم مثلا بتعذيب صاحبه ، ولا بأغراقه فى سيل من المواعظ الدينية ؛ فكذلك يجب أن يكون سلوكنا مع المريض بعرض خلقى كالسرقة والكذب .

لم يعد بوسعنا أن نفر من مواجهة الحقيقة الناصعة وهى أن سلوك الأنسان ليس قدَرا مفروضا عليه من السماء . . وإنما هو وليد ظروفه ـ ظروف تكوينه وتربيته وبيئته . وإذا بلغت أخطاء السلوك حدّ الأدمان ، كرجل يدمن السرقة ، أو يدمن الغضب ، أو يدمن اللقاء الجنسى المحظور ـ كان هذا مرَضا خلقيا . أما إذا لم تأخذ هذه الأخطاء صفة

(١) علم النفس والأخلاق ــ ح . ا . هادفيلد

العادة والأدمان ؛ فهى إذن أخطاء.. وبعبارة موجزة ننقلها عن «هادفيلد»

ـ المرض الخلقى يرجع إلى عقد مرَضية تنجم عنها اندفاعات لا سبيل لى مقاومتها . .

أما الخطيئة ـ ونؤثر نحن تسميتها أخطاء السلوك ـ فترجع إلى عواطف خاطئة

وحين يهيب المثل الأعلى بالمريض وبالمخطىء يكون الفارق بين الاثنين أن المخطىء لايستجيب له ، أما المريض ؛ فأنه لايستطيع أن يستجيب بحال..

إن كل علاج للمشكلة الخلقية فى مجتمع ما لا يبدأ من الأدراك السليم والتقدير التام لهذه الحقيقة ستكون عاقبته خسرا . . ولقد تعاون الدين مع العلم من قديم فى محاولات الكشف عن كنه السلوك الأنسانى ، وإذا كان الدين لم يصل إلى ما وصل العلم إليه ، فحسبه أنه أطلق الأضواء الدالة على الطريق .

هذا رسول الله عليه السلام يقف ذات يوم خطيبا داعيا إلى مكارم الأخلاق . فيقول بين ما قال :

ـ «.. ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ..» ؟ ـ إن إدراك الرسول لهذه الأعراض ولفت الأنظار إليها لشيء رائع حقا . سيما وهو لم يكن فى غرفة تشريح . . . أما ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه . . ! !

ما علاقة الغضب لو أنه كان رذيلة مجردة تتقمص صاحبها . . ماعلاقتها ذن بانتفاخ الأوداج واحمرار العيون . . ؟

وهناك أيضا قول الرسول :

— « لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . . »

إن الدين دائما يعبر بكلمة « إيمان » عن جماع القوى الخيره المؤثرة الفعالة فى توجيه الأنسان . . هذه القوى التى تتكون اليوم فى نظر العلم من ظروف الشخص وظروف المجتمع ـ أومن الوراثة والبيئة والاستعداد الشخصى . .

وفى الحديث المذكوريخبر الرسول أن الزاني ـ حين ـ يزنى ، لا يتم له ذلك إلا حين تكون القوى الخيرة الكامنة فيه ـ والتى عبر عنها بالأيمان ، فى حالة غيبوبة وانكماش ، وكذلك الحال حين يسرق . أى أننا نستطيع اليوم أن نقول ـ لا يزني الزانى حين يزنى وهو موفور صحة العقل والعاطفة . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو موفور صحة العقل والعاطفة . . وهكذا يشير الدين من ألف وأربعمائة عام ، بل ومن قبل ذلك فى عهد المسيح ، إلى أن أخطاء سلوكنا حين تتفاقم تكون أمراضا لا ينبغى أن تفزعنا ، وتملأنا شعورا بالدونية والانحطاط ـ بل علينا أن نتلقاها بوسائل العلاج العلمى . كما نفعل بأى مرض عضوي سواءبسواء . .

ونحن لا نعنى بكون أخطائنا أمراضا ـ الأمراض العضوية النابعة من الجسم وحدها ـ بل وأمراض المجتمع أيضا . . فالمرء منا يحيا داخل نطاق هائل فسيح من المتناقضات ، والعواطف والميول . . ووسط هذا المضطرب اللجب لا يكاد يملك نفسه . ، وإنه ليفقد خلال سعيه فى الحياة واتصاله بالجماعة كثيرا من شخصيته الحقيقية ، ويتنازل مكرها عن بعض معنوياته وفضائله وكما يقول « امرسون »

ـ «العواطف معدية» ـ وإدراكنا لهذا يدعونا إلى تذكر مانفقده من ذاتياتنا ، ويحرضنا على استرداده حتى لا تذهب شخصياتنا بددا

ومن حق القارئ أن يسأل :

ـ لحساب من ، هذا التدليل للنفس البشرية والدفاع عن أخطائها ..؟

وأجيب صادقا ـ إنه لحساب الفضيلة وحدها .. ذلك أن شعور الأنسان بأنه مخطئ أو مريض يدعوه إلى البحث فى سكينة وثقة عن تصحيح لخطئه ، أوعلاج لمرضه . أما حين يرى داخل إهابه مجرما شريرا . فسوف يفضى به هذا الشعور الملح الكاذب إلى أحد طريقين :

١ ـ الاستهانة بكل القيود ، والوثوب على كل موبقة جاعلا شعاره

ـ أنا الغريق ؛ فما خوفى من البلل .. ؟ !

٢ ـ أو الانطواء على نفسه فى مذلة وحسرة وإكراهها على رياضات دينية معينة تصعق طبيعته وتفسدها

ولعلّ الرسول كان يخشى المعنى الأول ـ عندماسيق إليه رجل سرق ـ وآخر رآه فجاء يشهد عليه ـ ولما همّ بأداء شهادته قال : رأيت هذا يسرق كذا ...

فتمعر وجه النبي من الغضب وقال له :

ـ لا تقل رأيته يسرق ، ولكن قل : رأيته يأخذ .. ! ! !

صحيح أن القرآن يقول « والسارق والسارقة .. » ولكن الأسلوب الذي يستعمل للتوجيه العام ، غير الذى يستعمل فى مواجهة خاصة .. لذلك لم يكن الرسول عليه السلام يقول لأحد صنع سوءا ، لماذا تفعله .. بل كان يرسل الحديث إرسالا عاما ويقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا .. ؟

وإن أولى مهامّ هذا الكتاب الذى تطالعه الآن ، أن يضع السلوك الأنسانى فى موضعه الحق باعتباره خطأ أو مرضا ، لا إثما ولا جريمة . وأن يردلأنفسنا البشرية اعتبارها المفقود ، ويذهب عنها روعها ومخاوفها ـ ويهيء لها ظروف الفضيلة ثم يدعها تمضى إليها فى حرية مقرونة بالمعرفة ، واختيار مصحوب بالشغف . .

هذه سبيلنا ندعو إليها على بصيرة من العلم والدين معا ونحن لا نأتى بجديد على الناس حين نعرض هذه النصوص الدينية المخففة ؛ فهم يسمعونها من فوق منابر الجمعة ، وفى كل المحاضرات الدينية . . ولكن الجديد هو إزاحة الستار عن المفاهيم الصادقة الصحيحة لها . . وحين ترد أخطاءنا إلى وضعها السليم بوصفها مرضا لا جريمة ، فلن نساهم بهذا فى استجاشة الغرائز وإشعال الشهوات . بل نساهم فى إحداث النقيض . . والفضيلة لا تضارّ أبدا بالشجاعة فى تلمس الحقيقة المفضية لها ـ بل هى تضار بتلك الهمسات الخجولة المثقلة بالحياء والتقوى . . أجل ، وتضيق ذرعا بهؤلاء الذين يستحيون من القول ، ولا يستحيون من العمل . . .

وإنا لنسأل بدورنا : ماذا هيأ إخفاء الحقائق وتجاهلها من فضائل وماذا أثمر من خلق . . ؟

ونستطيع أن نأخذ الجواب من الحياة المضطربة لكثير من الشباب . . إنها تهيء أخلاق السكرة التى ينفعل بها صاحبها ـ مؤقتا ـ وهو واقع تحت تأثير رغبة أو رهبة فأذا ما برحت هذه مكانها ، تروح السكرة وتجيء الفكرة

ذات يوم تلقى مفتى إحدى الهيئات الدينية فى مصر خطابا من

شاب أنهك الورع قواه ، وأخمد عواطفه وظنّ أنه قد صفى مع طبيعته كل ما بينهما من حساب متعلق بالمسئلة الجنسية وانتصر فى الموقعة ، وما علم أن رَمقا من طبيعته كان لا يزال متشبثا بأرض المعركة ، ففى يوم ألقت إليه الصدفة بالفتاة التى يحبها ، والتى طالما كافح الرغبة فى مجرد رؤيتها ـ يقول فى رسالته : إنه لم يدر بعد إذ رآها فى مكان خال ماذا حدث له .. ! لقد أفاق من سكرته فوجد نفسه قد مزق الملابس الداخلية للفتاة وأتى ما اعتبره هو جريمة وحشية ، وإن كان لم يرتكب ما يستوجب حدّا .. !

ولقد كان صاحبنا حريصا على تقرير المعنى الأخير فى خطابه وهو أنه لا يستوجب الحدّ .. (؟ !)

لو أن هذا الشاب المسكين لم يساعد بادى الأمر على تربص انفعالاته والتفافها حول حرمان مكبوت لما ألفى نفسه فى هذا الموقف الجنونى الذى بعثر على أرضه نثارات أعصابه المتداعية ، ومزّق الملابس الداخلية المظلومة .. ! !

ولقد ظلت إرادة العجز والأخفاق تشدّه إليها ، فهو بعد هذا الذى حدث لم تنفعه ثقافته فى حفزه إلى التماس الصواب من تجربته .. ختم رسالته يسأل المفتى :

ـ هل يتقبله الله ويغفر له إذا هو انتحر تكفيرا عن إثمه وخطيئته..؟!

لقد عرفنا هذه الحالة لأن صاحبها أعلن عن نفسه فى خطاب . وهناك آلاف الحالات المشابهة .. أفليس الأجدى والأوجب أن نشيع فى قومنا ثقافة أخلاقية جديدة تقوم على الواقع وتستهدى مع الدين بالعلم .. ؟

إن لى تجربة تدل على مدى استعداد الناس للأصغاء والتفهم ..

ففي عام ـ ١٩٤٧ ـ انتدبني صديق لى لألقاء خطبة الجمعة فى أحد مساجد منيل الروضة وكان يعمل به إماما وخطيبا . وذهبت أحمل فى وعيي موضوع خطبة لا أحسب أنها ألقيت فى مسجد أبدا . .

كان موضوع الخطبة ـ « كيف نسوس عواطف أبنائنا وبناتنا ، وكيف نعاونهم فى سن التطلع والحب » . . ؟ !

قد أكون مجنونا فى نظر بعض القراء . ، ولكن من حسن الحظ أن العلم قد اكتشف قرابة وثيقة بين العبقرية والجنون . . (!)

. . . ـ . . الحظ أيضا أننى لم أكن وحدى المجنون ؟ فلقد أنصت

هل وإعجاب مبهوت . . أنصتوا إنصاتا

جزا عن تفسير كنهه ودواعيه قلت



ـ « . . إنه لا خيار لكم فى هذا الذى سأعرضه عليكم ؟ وإذا كان هناك خيار؛ فليس بين أن تفعلوا ، أو لاتفعلوا . . ولكن بين أن تستعملوا الفطنة ، أو تتقبلوا العار . . إن لأبنائكم قلوبا ستعشق شئتم أم أبيتم . ولبناتكم قلوبا ستتطلع شئتم أم أبيتم . .فبدلا من التوسل بالزجر وتقطيب الوجه ، والحلف بالشوارب المفتولة على طريقة « الفتوات » ـ تعاونوا معهم ، فذلك أزكى وأهدى سبيلا . . قولوا لهم فى أنفسهم قولا بليغا . . وأتيحوا لهم فرصه . . .

«لقد غفر الله لعباده اللمم ، وقال فى تبرير هذه المغفرة ـ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . . . وأراد أن ينهاهم عن الغرور المهلك فقال : فلا تزكوا أنفسكم . . .

فنحن إذن من الأرض ، ولنا طبائع ، خير وسيلة لترويضها ـ التسرية عنها . .

ثم صحت فيهم ، أيها الناس . أفهمتم جيدا . . ؟ إن الصداقة خير من الفاحشة . . وإذا لم يتمكن المجتمع من الأولى ؛ فسيكره على الثانية . . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . . ! ! !

واحد فقط هو الذى برم بالحديث وأعلن عن برمه بعد الصلاة . . ولم أجد نفسى بحاجة لأقناعه ؛ فقدتولت ذلك عنى جمهرة من المصلين الذين تفوقوا على يومئذ فى العبقرية . أعنى فى الجنون . .

إنى لا أنسى هذه الواقعة أبدا ، ولا أغفل عن مغزاها الجليل ـ وهو أن قومنا على درجة مبشرة من الاستعداد لتقبل الجديد والتعاون مع التطور والعلم . وكل قعود من جانبنا عن بذل الواجب بحجة تأخر الناس وتعصبهم ، فليس إلا عملا داحضا ، وهربا غير كريم .

والآن ، وقد تبين لنا أن أخطاءنا السلوكية ليست آثاما ولا جرائم ، فقد آن أن نحيط علما بحقيقة أخرى هى :

الأثم ، هو ادمان الشعور بالأثم . .

تدور التربية الخلقية فى مجتمعنا حول محور مزدوج أسلفنا الأشارة إليه ـ هو : التخويف بالله ، والمبالغة فى تضخيم الخطيئة ـ وليس منا من ينكر أثر الدين فى بلادنا ـ والدين لا يعلن عن نفسه ، ولا يقوم بتبليغه ملائكة صالحون فاهمون . . ، إذن لا ستراح الناس كثيرا . . ولكن يبلغه أناس تباينت أحلامهم ووجهاتهم ـ وإن كانوا جميعا إلا قليلا منهم يعتمدون

اعتمادا مطلقا على التخويف والمبالغة.. ولقد أفضى ذلك إلى تزويد كل فرد بألحاح صاعق يدعو النفس إلى الشعور الممض بالأثم فهل نحسن بهذا إلى الأخلاق . . ؟

كلا ، وإن كل إنسان يضع داخل نفسه « عدادا » لأحصاء ذنوبه وأخطائه لن يكون فاضلا بالمعنى الصحيح لكلمة « فاضل » والذين يرتكبون هذا الوزر لن يخدموا قضية الأخلاق لأن الأخلاق السوية تبدأ اليوم من هذا الشعار « ارفع رأسك ؛ فليس هناك ما يخجلك » . . ولن يخدموا قضية الدين الذي هو أعرف بحقيقة الأنسان وأكثر حنانا على قضيته..لقد تواصت المسيحية ، والأسلام خيرا بسكينة النفس وطمأنينتها ، ولقد قطعا على إدمان الشعور بالأثم طريقه حين دعيا إلى اعتراف الأنسان بخطئه اعترافا عابرا بينه وبين نفسه ثم التوبة وهي العزم على عدم مراجعة ذاك الخطأ.. هذا هو المسيح يقول: «إن اعترفنا بخطايانا فهوأمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم » ـ ويقول : « . . . وليتب إلى الرب فيرحمه ، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران » . . وهو يفسر هذا تفسيرا رحبا إذ يقول : « لأن ابن الأنسان لم يأت ليدعو أبرارا للتوبة ، بل خطاة . . » وإذ يقول للتي زنت : أما أدانك أحد ..؟ فتقول : لا . ؛ فيجيبها : ولا أنا أدينك . ، اذهبي ولا تخطئي . . .

ولقد جعل الأسلام مجرد الدخول فيه محوا مطلقا لكل ما أتى الأنسان من جريرة وإثم . . وكذلك جعل التوبة حدا فاصلا ، فقال الرسول : الأسلام يجبّ ـ أي يقطع ـ ما قبله ، والتوبة تجب ماقبلها . »

وهذا يدل على أن الدين ينظر إلى أخطاء السلوك كأفراز طبيعي

لا ينبغي أن يأخذ من تفكيرنا ومشاعرنا سوى اللحظات التى نقرر فيها أن من الخير ألا نعود . وليس فى هذا الأفراز الطبيعى ما يشينك . وإنما يشينك الأصرار عليه .. فما أشقى الذين لاعمل لهم سوى اجترار خطاياهم .؟!

ذهب قوم إلى رسول الله عليه السلام يقولون له :

ـ لقد قتلنا وأسرفنا فى القتل ، وزنينا وأسرفنا فى الزنا ، وإنا لنعلم أن ما جئت به هو الحق ، لو تخبرنا أن لما فعلنا مغفرة وكفارة . .

وأراد الرسول أن يهيئ أنفسهم للخطوة القادمة ؛ فقال لهم : ليس عندى لكم اليوم شئ ـ اذهبوا وارجعوا غداً .. وفى غد عادوا ؛ فتلقاهم النبي طلق المحيا دافق البشر وأخبرهم أن الله أنزل فى أمرهم وحيا ، ثم مضى يتلو :

ـ « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . .

لكن القصص الصوفى لعب فى حياتنا الشعورية والفكرية والسلوكية دوراً إثمه أكبر من نفعه . . ولولا أن أوربا ردت الدين الذى عليها ، فبعثت إلينا بموجة من النور نظير تلك الموجة التى أرسلناها إليها من قديم مع فيلسوفنا العظيم ـ ابن رشد ـ لولا موجتها هذه التى كشفت لنا عن محاسن العلم ، بل وعن محاسن ديننا التى لم نكن نحسن وعيها وتقديرها حتى ألقى العلم عليها أضواءه فعرفناها . . لولا هذه الموجة العارفة التى أعطتنا مفاهيم جديدة للسلوك ، ومعايير صحيحة للخلق لكنا اليوم حيث يشمت العدو ويستاء الصديق . .

لطالما كنت فى مواعظى الدينية أروج سموم الشعور بالأثم ظانا أنها أجود العقاقير الشافية . . !

كنت أدعو الناس لأن يغلظوا على أنفسهم في الحساب . . أن يجلدوا ضمائرهم بالسياط إن استطاعوا . . أن يحاسبوا العين على كل نظرة . . ، والفم على كل همسة ، والقدم على كل خطوة .. وأن يصنعوا كما فعل الرجل الصالح الذى غلبته نفسه فنظر إلى محاسن امرأة ، فأقسم ليفقأن عينه الآثمة وبر بقسمه . . ! !

كنت أدعوهم إلى إبادة حواسهم ، وأقول لهم : روى فلان عن فلان، عن فلان- أن سيدي فلانا قال : « لن يكون المرء مريدا صادقا حتى يرى المرأة ، فيسأل نفسه - امرأة هذه أم حائط . . ؟ ؟ !

وأنت، ألم تسمع مرة فى مسجد أو فى كنيسة أو فى جمعية دينية قصة الذى حرم على نفسه مضغ الخبز ، فكان يأمر أهله أن يقددوه ويسحقوه .. وفى كل وجبة طعام يتناول منه سفتين. ولما سئل عن ذلك أجاب : لقد أحصيت الزمن الذى يضيع بين سفه ومضغه ، فوجدته يسع مائة تسبيحة . . ؟!

أو هل سمعت قصة الصالح الآخر الذى بدا له يوما أن يجرى لخطاياه حسابا ختاميا - وهو غير الحساب اليومى والسنوى الذى كان يجريه ؟ فوجد نفسه قد عاش عشرين ألف يوم فصرخ :

- يا ويلتا - لو لم يكن لى كل يوم سوى ذنب واحد للقيت الله بعشرين ألف ذنب ، فكيف ولى فى كل يوم عشرات الذنوب ثم شهق شهقة الموت . ؟ ! !

صحيح أيها السادة أنكم قد لا تسمعون الآن من يقول نفس هذه العبارات .. ولكن تأكدوا أن المجتمع يعوج بمن يأكل الشعور بالأثم قلوبهم على هذا النحو وإن لم يصرخوا ، ويسفوا العيش المسحوق . . ومن بين شبابنا المتعلم أغلبية من هذا الطراز

وإذا سئلنا ، لو كان ذلك كذلك لماشهدنا فى المجتمع كثرة الموبقات..

نجيب : إن كثرة الموبقات نتاج محتوم لهذا السلوك المضلل – فاللحم المتورم لا يدل على صحة وامتلاء . ومرض نمو العظام لا يدل على سموق القامة وجمالها . . وهناك ظاهرة تمثل خطرا أشد هولا – تلك هى أن الجماهير الصالحة فى بلادنا صارت تستنيم لهذا اللون من الأيحاء والتربية ، وأمست تجد فى المواعظ الراعبة المخوفة سكينتها وملاذها وأمنها..وتستطيع أنت أن تعثر على هذه الظاهرة فى كل مكان . فى المعبد ، وفى الطريق ، وفى المنزل . .

حدّث أسرتك مرّة عن الجنة ونعيمها وأنهارها ، وعن الملك العريض الذى سيكون لكل واحد فيها..ثم حدثهم عن النار .. عقاربها ، وغسلينها ، وهولها – وارصد انفعالاتهم وتعبيرات وجوههم ؛ فستجد الذى وجدته أنا مئات المرات .

ذات أمسية ، وكنت ألقى موعظة بأحدى قرى المنيا ، مضيت أحدث الناس عن الجنة ، وكنت حديث عهد بقراءة كتاب يصفها كأنه رآها [1] وشرعت أصف لهم فى حبور ونشوة كل شىء فيها – أبوابها ، مصاريعها ، طرقاتها ، مقاعدها ، حورها ، ولدانها ، قصورها – وإذا صوت يشق السكون الحالم ويقول :

– قول لنا شويّة فى النار علشان نخاف ونتقى الله . . (! !) وتبع الصوت همهمة موافقة وتأييد من أكثر المستمعين .

---

(١) هو كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » تأليف ابن القيم

واضطررت أن أغادر الجنة آسفا، وبدأت معهم رحلة النار من أولها..
من خروج الروح والشجاع الأقرع . . !

والشجاع الأقرع - إن كنت لا تعرفه - ثعبان هائل، تزعم الأسطورة الدينية أنه يقف فى مدخل قبر الميت الذى كان تاركا للصلاة ليؤدى لجثمانه تحية القدوم . . أى أنه « تشريفاتى » من نوع خاص . له مائة ألف رأس - ولعلنا الآن ندرك لماذا هو أقرع . ؟ لقد وزع شعر رأسه على مائة ألف رأس .. فى كل رأس مائة ألف فم ، فى كل فم مائة ألف ناب . ؟ ومن حسن حظ البشر المساكين أن واضع هذه الأسطورة لم يكن يعرف من الأرقام الحسابية أكثر من المائة ألف . . !

لعلّ سوق الحديث على هذا النسق يضحكنا ، ولكنه قمين بأن يحرك فى تفكيرنا الاهتمام الممزوج بالأسف العميق فأن أمة يغتذى وجدانها فى النصف الثانى من القرن العشرين بهذه البقايا البائدة المنقرضة ، ويؤمن سلوكها الأخلاقى بهذه المزعجات الوبيلة لابد وأن تنتهى إلى مصير مشابه للطريق التى اختارتها .. ومرّة أخرى ، نقول : إنه قد تختفى قصة الشجاع الأقرع من مجال الدعوة والتوجيه ، ولكن طبيعة المنهاج الذى تنتهجه الدولة والمجتمع لتقويم السلوك لا يزال غاصا بالمعنى الذى تصوره هذه القصة . . التخويف الشديد ، والزجر الرهيب . . وهكذا يتحوّل الدين الذى هو عزاء وحفز إلى ما أراد له الحق ، والنهازون أن يكون . . !

أليس رب هذا الدين هو الذى نادى داود قائلا :

— ياداود بشر بى عبادى ؛ فانى أحب أن يقولوا : غفور رحيم .. ؟

لقد أمسينا من طول إصغائنا لهذا اللون المتشائم المرعب من التربية

والتوجيه لانجد متعة فى غير هذا الدمار ، وصرنا - واعظين وموعوظين - نجد راحة وعزاً فى ترديد مثل هاتين الآيتين - خلقناكم من ماء مهين.. ثم رددناه - أى الإنسان - أسفل سافلين .. ؟ ولا نكاد نجد نفس الراحة حين نقرأ - ولقد كرمنا بنى آدم ، وجعلناكم خلائف فى الأرض ، خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . . ! !

إن إدمان الشعور بالأثم لذو خطر ما حق إذ هو يخلق حالة وجدانية رديئة ومؤذية هى « الاشمئزاز من النفس » . .

وتصوّر نفسك حين تفرض عليك معايشة رجل تشمئز منه وتمقته . إن حياتك معه ستكون سلسلة من التناقض والألم ، مع أنك قد تجد الفرصة لنسيانه أو لمفارقته بعض الوقت . . لكن انظر عندما يكون هذا الرفيق نفسك التى بين جنبيك والتى لاتستطيع مغادرتها أو مفارقتها. لأنها أنت . . عندئذ ستكون حربا أهلية يفنى فيها بأسك ومناعتك . ثم تجد الرذائل فيك آخر الأمر قلعة متهدمة مستسلمة ؛ فتعشش فى أنقاضها وتبيض . ، وهكذا أيها السيد الورع تكون قد ذهبت تنشد صوفا ، فرجعت وصوف ظهرك مجزوز . . ؟ ! !

إن احترام الذات هو خط الدفاع العاصم ، والديدبان اليقظ الذى يصيح بكل عابر من الرذائل - قف . ، من أنت . ؟

وأنت لكى ترتفع بنفسك لا بد أن تكون على وفاق معها واحترام لها . وهذا الاحترام لن يوجد ما دمت تلوك آثامك وتجترّها ، وما دمت تسحق هذه النفس التعسه بمطارق اللوم والتوبيخ . . أجل ، لن تستطيع أن تسلك مراقى التعلية والتسامى بنفسك حتى تحوز تقديرك واحترامك .

ولن تستطيع أن تحترمها حتى تتقبلها ، بحيث لا ينسيك احترامك لها مايرتكبه سلوكك من أخطاء.. وبهذا تكون إنساناً سليم التصرفات ، فليس على ظهر الأرض من لا أخطاء له . وكما يقول الشاعر : ـ

لا تفاخرني بهجر الطلا ـ فأنت جان في سواها أثيم

وعفاء على كل فرد يشمئز من نفسه ، وعلى كل مجتمع يتكون من هؤلاء الأفراد . .

أنظروا إلى أثينا ، لقد كان لها مثالبها ونقائصها ، ولكن فضيلتها الكبرى التي خلدتها وخلدت عقلها وسلوكها ـ أنها على حد تعبير « لين يوتانج » جعلت آلهتها مثل الرجال . . أما نحن فنريد أن نجعل الرجال مثل الآلهة . . ! إن بين أيدينا وقتاً طويلا حتى نحوز أخلاق الآلهة ، وقتاً نصفى خلاله الحساب مع أمعائنا وغددنا ونظمنا جميعاً . .

وليس حديثنا هذا دفاعاً عن الأخطاء البشرية ، ولا إهداراً لفضيلة محاسبة النفس .

فنحن نبيح الشعور بالخطأ ريثما نصححه ونتحامى العودة إليه ، ولكننا نرفض إدمان الشعور بالأثم والأيغال فيه . .

نريد الانسان الذي يحاسب نفسه ، ونرفض الذي يغالى في هذا الحساب..

نريد الذي ينهى موقفه من الخطيئة أو بتعبير صحيح مع الخطأ بهذه العبارة ـ لا بأس ، ولن أعود . .

ونرفض الذي يخور كالثور الذبيح ويقول : ويلاه . ماذا أعمل . .

إن الأنسان أعظم عند الله من كل أخطائه ، وإن ما يبذله من جهد في سبيل استمرار الحياة ليرجح كل ما يسببه نضاله من غلطات . ونحن نطلب من قومنا أن يذكروا هذا دائما . .

وإلى الفتيان والفتيات الذين يسحقهم شعور صاعق بالأثم نوجه النداء أن « ارفعوا رءوسكم ، وامضوا شجعانا » . .

لقد كان موسى عليه السلام رسولا عظيما ، ومع هذا فقد ارتكب من أخطاء السلوك ما كان كافيا لعزله من الرسالة . ؛ إذ ألقى الألواح التى تحمل كلام الله على الأرض . وأخذ برأس أخيه هرون وهو نبي مثله ، وجرّه على الأرض . ، وضرب ملك الموت حين جاءه فى صورة إنسان وفقأ عينه . (! !) ولم توجه إليه كلمة عتاب . بل قيل له على حد تعبير ابن القيم : (١)

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد — جاءت محاسنه بألف شفيع

وأنت كانسان حبيب الله وقرة عينه ، ومحط رجائه .. أجل ، أنت ولا شيء سواك .

إن الملائكة لا يخطئون ، ولا يشتهون ، ومع هذا فقد فضلك الله عليهم وجعلهم فى خدمتك . !

ولننظر هذا الحديث أيضا :

يروى الأمام أحمد فى مسنده أن النبى قال :

— ما من يوم تطلع شمسه إلا وتقول الأرض : يارب ائذن لى أن أزدرد ابن آدم ، فقد أكل خيرك ومنع شكرك . . وتقول السماء يارب ائذن لى أن سقط كسفا على ابن آدم فقد أكل خيرك ومنع شكرك . . وتقول الجبال يارب ائذن لى أن أطبق على ابن آدم فقد أكل خيرك ومنع

(١) مدارج السالكين لابن القيم

شكرك . . وتقول البحار يارب ائذن لى أن أبتلع ابن آدم فقد أكل خيرك ومنع شكرك . . ؟ فيجيبها الله جميعا :

— ما لكم ، وعبادى . . ، لو خلقتموهم لرحمتموهم . . .

ذروهم لى . إن تابوا إلىّ ، فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم . . !

إننا نسوق هذا الحديث ونحن واثقون من أن الصورة الشكلية للمحاورة لم تحدث ؛ فليس هناك سماء استأذنت الله أن تسقط ، ولا بحار استأذنته أن تبلع . . ولكنها لوحة فاتنة بقدر ما هى صادقة ضمنها الرسول حقيقة شعور الله تجاهنا ، نحن البشر المكافحين فى سبيل الحقيقة والمثل الأعلى . ، ما أروع هذه العبارة المشرقة ؛ لو خلقتموهم لرحمتموهم . . ؟ !

أما هو — سبحانه — وقد خلقهم ، فأنه يعلم من خلق . . يعلم الحوافز التى تشكل سلوكهم . . يعلم ظروف تكوينهم الجسدى وتكوينهم الطبقى ، وظروف تربيتهم ، ووراثاتهم ، والبيئة التى تعكس عليهم سرها ونجواها . .

لقد كان فى روسيا القيصرية جماعة أطلقت على نفسها اسم « الخليستى » أى السوط . . يتبادل أعضاؤها التعذيب بالسياط تكفيراً عن سيئاتهم وتطهيراً لأنفسهم ؛ فهل تريد أن تكون عضواً فى جماعة « الخليستى » المنقرضة . . ؟ ! إنك لتفعل هذا ، ولو لم تجلد نفسك ، أو يجلدك واعظك ، أو تجلدك الجماعة الدينية التى تنتمى إليها بسوط مجدول . . إنك تفعله حين تجلد نفسك أو تسمح لغيرك بأن يجلدك بسياط التقريع والتوبيخ . .

ألا وإن أعظم مافينا خطايانا ، إذا عرفنا كيف نتخذ منها مزية . ألم تكن كبرى خطايا آدم أكله من الشجرة . . ؟ فلننظر الآن إلى أية حياة حافلة هائلة أفضت تلك الخطيئة . ؟ !

كيف كان هذا الكوكب سيعمر لو لم يشرفه السيد آدم ويشرفه أولاده الناسلون من كل حدَب . . ؟

كيف كان موسى وعيسى ومحمد سيبزغون ، وتبزغ معهم التوراة والأنجيل والقرآن . . ؟

كيف كان رجال مثل سقراط ، ونيوتن ، ولنكولن ، وماركس ، وشارلي شابلن، وفولتير ، ومكسيم جوركي ، وغاندي ، والأفغاني سيشعلون نبراس الحقيقة ويهزون الوجود ، ويعطرون الكون . . ؟

هل تعرفون نبأ الفيلسوف الذي عثر على جمجمة في بقايا هيكل إنسان ، فراح يضربها بسوطه ويلقي عليها أسئلة توبيخية هازئة :

— هل انتهيت لهذا المصير بسبب انغماسك في الملذات . . ؟ !

— هل كنت مجرمة فارة من وجه العدالة . . ؟ !

— هل ارتكبت إثماً يلحق العار بأهلك وذويك . . ؟ !

ما أكثر الذين يصنعون منا بأنفسهم مثل صنيع ذلك الفيلسوف بالجمجمة ، وما أفدح الخطأ الذي نجترحه بهذا الصنيع . !

لو لم يكن للشعور الملح بالأثم من ضرر سوى وقف اهتمامنا باكتمال أنفسنا وترقيتها لكان كافياً — ودعوني أضرب لكم مثلا :

لو أنك وأنت تسير في الطريق عثرت على قطعة مستديرة يمكن أن تكون نحاساً ، ويمكن أن تكون ذهباً . ثم جلوت جزءا منها لتبلو كنهها . .

فماذا يحدث إن وجدتها نحاساً . . ؟ ستلقي بها في الطريق .

وماذا يحدث إن وجدتها ذهباً . . ؟ ستتم عملية الجلاء حثيثا كي تنتفع بها وتستثمرها . . .

وكذلك أنفسنا حين يحيلها الشعور بالأثم قطعة من نحاس تافه رخيص . عندئذ تقف كل محاولات تعليتها والتسامى بها ، ونلقى بها فى الطريق ــ طريق الإهمال والابتذال والضياع . . !

وهذا ــ فى تقديرنا ــ هو الذى جعل الرسول ينكر على الشاهد الذى قال رأيته يسرق ، وعلمه أن يقول رأيته يأخذ .. إنه أراد أن ينقذ نفساً إنسانية من ورطة الموقف وخزيه ، ويخفف عنها وطأة الشعور بالأثم كيما تنهض من جديد . .

وهو الذى جعله يقول للزاني الذى جاء لاهثا معترفا

ــ لعلك لامست . . لعلك قبلت . . قاصدا بهذا أن يرد إليه ثقته بنفسه واحترامه لها . عن طريق تهوين وقع الخطيئة عليه . .

وهو الذى جعل المسيح يقول قولته الخالدة :

ــ من كان منكم بلا خطيئة ؟ فليرمها بحجر . . إنه لأفضل عزاء يقدم لنفس جريحة ، بل وأفضل حافز أيضا . . وهو الذى جعل « سقراط » يقول :

ــ ليس العجب أن تكون خطاء ، بل العجب أن تكون عفيفاً . .

وهو الذي جعل كونفوشيوس يقول :

ــ أعرف أناساً رفعتهم الخطيئة إلى مقام القديسين . . إنه نداء الحقيقة يهيب بالبشر فى صيحات موصولة أن يبقوا على احترامهم لأنفسهم ويتقبلوها كما هى . نداء يريد ليباعد بين الإنسانية ، واليوم الذى يصير فيه الشعور بالإثم فضيلة ونسكا ، لأنه اليوم الذى تبدأ فيه هذه الإنسانية رحلة الانقراض . .

من أى مصدر يستمد وجداننا المخاوف القلقة ، والمشاعر الحادة بالخطيئة .. ؟

ــ من التحريم . ولقد أمضت طبيعتنا الأنسانية فى أصفاد التحريم زهرة شبابها . ولولا الانطلاقات التى كانت تهتبلها ، والسياحات التى كانت تفرّ إليها ، لبدت اليوم أكثر ضآلة ، وأدنى نموا ــ وحين كان يزور الحياة ضيف سديد النظر من العلماء والمصلحين ، لم يكن ينسى أن يحلّ من أغلال التحريم عقدة أو عقدتين قبل أن يمضى .. ولعلّ ثقل وطأة التحريم على الناس هو الذى جعل الأمام الفاضل أحمد بن حنبل يتورع عن المبادرة إلى الحكم بالتحريم على الأشياء فلقد روى عنه أنه كان إذا سئل عن شئ محرم قال :

ــ أحسبه حراما .. ثم يتلو قول الله « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ... »

وإن البشرية اليوم لتداخل عصرا لن يكون للتحريم فيه على سلوكها كبير سلطان . سواء كان هذا السلطان دينيا ــ أم مدنيا ، كتابا مقدسا ، أم قانونا موضوعا . ذلك أن الأنسان الجديد قد اكتشف نفسه ، ووقف على كنه حوافز السلوك وبواعثه ، واكتشف العلم أن التحريم هو الأب الشرعى للأغراء . فكلما أسرف مجتمع على أفراده فى إشاعة التحريم ، كلما أعطى الأغراء فرصة العمل الناجح ، والقنص المظفر .. وما أصدق عائشة أم المؤمنين ، وهى تعبر عن كشف اليوم من ألف وأربعمائة سنة فتقول :

— . . لو حرم على الناس جاحم الجمر ، لقال قائل : لو أذوقه .!!!
والتربية الحديثة تقوم على استبعاد التحريم ، ورفع نيره عن النفس الأنسانية ما وجد إلى ذلك سبيل .

ترى هل نقصد بحديثنا هذا إلغاء القوانين ، أو إباحة ما حرم الله ..؟
أم هل نقصد إلغاء التحريم قاطبة ، وجعل الحياة كلأ مباحا يرعى فيه من يشاء كيف يشاء . . ؟

أظن أن الذى يتابع حديثنا فى بصيرة ووعي لايمكن أن تدور برأسه هذه الخواطر الواشية ؛ فأيماننا بالله ، وبالعلم ، وبالتطور ـ وهو إيمان يملأ صفحات الكتاب ألفه وسناه ـ هذا الأيمان ينأى بنا عن استحسان هذه الطفرة فضلا عن تحبيذها وترويجها ؛ فمهما يكن الأوج الذى سيشارقه الأنسان ، سيظل تحريم بعض ألوان حياته ونشاطه سياسة مقررة .. وأى أبله يتصور مجيء يوم يكون فيه قتل الأنسان نفسه أو قتله غيره عملا غير محرم ولا محظور . . ؟ وعلى هذا المثال نستطيع أن نقيس كثيرا من المحظورات الباقية فى حياتنا لترد عنها عوادى التحلل ، وغوائل الفوضى والاضطراب..وإذن ؛ فنحن نريد باستبعاد التربية الحديثة للتحريم أمرين:

الأول : الأسراف فى التحريم ، وهو شيء يضعه الدين والعلم موضع الاعتبار ـ أما الدين ؛ فهذا هو رسول الله يقول : إن أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يكن حراماً عليهم ؛ فحرم بسبب مسألته . !! قال الرسول هذا بسبب إلحاح أصحابه فى السؤال عن أشياء لم يحرمها الله عليهم بعد . وأما العلم ، فقد تأكد لديه أن الأغراء وليد التحريم. ومن ثم قال قائله : ـ ليس هناك ما ينبيء عن انحطاط أمة ، مثل كثرة قوانينها . . !!

الثانى : أننا نستبعد التحريم حين نريد تصور السلوك الإنسانى وتشخيص علله وآفاته ـ إذ ما دمنا قد سلمنا بأن أخطاءنا السلوكية وأمراضنا الخلقية وليدة ظروف معينة ؛ فمن الحتم إذن أن ندرس السلوك من حيث آفاته ومقوماته فى ضوء علاقته بهذه الظروف . .

ونعود للأمر الأول فنقول : إن مجتمعنا يخوض فى مخاضة واسعة من المحرمات التى لم ينزل الله بها سلطاناً ـ ولقد كان الاستعمار التركى الجهول كلما حرم شيئاً لمصلحته مزج هذا التحريم بالدين حتى يضمن إذعان الناس وحسن تقبلهم . وحتى يومنا هذا ، لا تجد أقرب إلى لسان الوعاظ ورجال الدين والهيئات الدينية من كلمة « حرام » ، ! فالسينما حرام والموسيقى غير العسكرية حرام ، وفن الرسم والتصوير ونحت التماثيل حرام، وذهاب الفتاة إلى الجامعة حرام ، وقراءة الكتب العلمية حرام ، ومعاملة البنوك حرام ، والنظر إلى المرأة حرام ، ولا يزال فى القاهرة نفسها أناس متدينون . إذا ترامت صوب أسماعهم أنغام موسيقية جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، لأن هناك سيلا من الأحاديث المعزوة إلى الرسول تدعوهم لهذا . . !

وهذه النصوص التى تملأ كتب الدين جميعها ، تصور لنا خطورة هذا النوع من التحريم . ففيما يختص بالموسيقى مثلا لا تجد كتاب فقه ، أو توحيد ، أو حديث ، أو مواعظ إلا ويعتمد فى تحريمها على حشد جمّ من الأحاديث . .

فهناك مثلا من يحدثنا أن الرسول قال : يمسخ أناس من أمتى فى آخر الزمان قردة وخنازير . قيل: يارسول الله ـ أليسوا يشهدون ألا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . . ؟

قال : بلى ، ولكنهم اتخذوا المعازف والقينات فباتوا فى لهوهم ولعبهم ، وأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير . » !

وحين يجد مؤلف الكتاب نفسه فى تناقض بين حين لا يرى أحداً من الناس يمسخ قرداً ولا خنزيراً . . يقول إن المراد بالمسخ هنا مسخ القلوب لا مسخ الوجوه . أى أن الموسيقى التى تهذب الوجدان وتصقله ، وتتسامى بالخلق وبالطبع ــ تحيل قلوب عشاقها إلى قلوب القردة وطباعهم إلى طباع الخنازير . . ! ويكاد يقوم إجماع بين علماء الاسلام على أن سماع الموسيقى حرام إلا فى الأعياد . ويعتمدون فى هذا على حديث صحيح هو أن عمر بن الخطاب دخل يوم العيد على رسول الله ؛ فوجد فى حضرته امرأة تضرب الدف ، فانتهرها وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله . . ؟ فهدأ الرسول روعه قائلا :

ــ دعها يا عمر ، فأن اليوم يوم عيد . .

وما دمنا قد ضربنا الموسيقى مثلا لمشكلة التحريم ، فدعونا نسهب قليلا فى توضيح هذا المثل حتى نستغنى به عن سوق أمثلة أخرى من المحرمات والمحظورات .

لقد أحصى بعض العلماء الأقدمين الأحاديث النبوية الواردة فى تحريم الموسيقى فوجدها تبلغ الثلاثمائة . . !

كيف يطلب من قوم يحترمون عقولهم أن يصدقوا هذا . . ؟

إنه لو كانت جميع معازف عصرنا الموسيقية موجودة فى عصر الرسول وأراد فعلا تحريمها لما كان بحاجة إلى أكثر من حديثين أو ثلاثة ، فضلا عن ثلثمائة . إن لم يكن صاحبنا قد أخطأ فى الحساب ونسى مائة أخرى ــ

فكيف ولم يكن من الآلات الموسيقية فيعهد الرسول عليه الصلاة والسلام سوى « مزمار من البوص » و « دف من الجلد » ؟ ! ثم لماذا تحرم الموسيقى . . ؟

ألأنها تعزف فى الليالى الماجنة الحمراء . . ؟ ، إذن فشربه الماء بالأكواب حرام ، لأن بعض الأكواب يستعمل فى احتساء الخمور . ! ؟

ثم كيف نطلب من الناس أن يحترموا رأينا فيما نحرمه عليهم ـ إذا هم وجدوا بين محظوراتنا مثل هذه المغانم التى تسمو بأذواقهم وأخلاقهم وتعينهم على مشقات الحياة . . ؟

وهل حالت الثلاثمائة حديث المنسوبة ظلما إلى رسول الله ، هل حالت بين الناس والأصغاء إلى الموسيقى كما لو كانوا فى عبادة . . ؟ ـ كلا . بل إنها لم تحل بينها وبين أئمة الدين وأعلام الفقه

فهاهو هذا الجنيد يحضر مجلس سماع منعش ، فيتماوح الحاضرون وهو ساكن ؛ فأذا عوتب فى هذا أجاب : وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمرّ مر السحاب . . !

وهذا أبو طالب المكى يقول فى كتابه القوت « إذا أنكرنا السماع ؛ فقد أنكرنا على سبعين صديقا من خيار هذه الأمة . . !

وهذا هوإبراهيم بن سعدونالمزنى أقسمأثناء زيارته لبغداد ، ألايحدث فيها عن رسول الله أو يقرأ دروس الفقه إلا وبين يديه « عود » يضرب على أوتاره بنفسه ..!، وإبراهيم بن سعدون هذا ، خرّج له أصحاب كتب السنة جميعا بما فيهم البخارى ومسلم .

وهذا هو الأمام مالك يحكى عن ذكريات شبابه الورع يوم شهد مجاس

سماع فى « بنى يربوع » شهده أفاضل العلماء ، وكان ثمت معازف ودفوف وعبدان يغنون ـ فتناول « مالك » الدف وأخذ يغنى :

سليمى أزمعت بينا ـــ فأين تظنها أينا ؟

وقد قالت لأتراب ـــ لها زهر تلاقينا

تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينـــا

ويروى عياض عن محمد بن الحكم قال : كان أبي والشافعى وابن بكير وجماعة من أصحابهم فى عرس وكان هناك لهو ودف فما أنكره واحد منهم. !

وهكذا مصير كل تحريم يقوم على اضطهاد طبيعتنا ، فالذين أرادوا تحريم الموسيقى ووضعوا لهذا ثلاثمائة حديث نسبوها إلى الرسول ، لم يزيدوا الرغبة فيما حرموه إلا ضراما . . وهناك عشرات المسائل التى تكتنفها فتاوى التحريم من كل جانب ، ومع ذلك فالناس يكرعونها كما لو كانت أكوابا من الليمون المثلج . !

أليس خيرا من تركنا الناس يمارسون ما يعتقدون أو يظنون أنه حرام وتتكوّن فيهم على توالى الأيام عادة الاحتيال على التشريع أو الاستهانة به ـ أليس خيرا من هذا ، أن نقتصد نحن فى التحريم ، ونطهر الذاكرة الأنسانية فى أمتنا من أكداس المحرمات التى تقعد بها عن التبرز فى الحياة ، والتى تجعلهم يمضون فيها وهم منقسمون على ذواتهم ، غير متفاهمين مع أنفسهم . . ؟

فإذا رجعنا إلى الغرض الثانى الذى ذكرناه آنفا ، وهو تصور مسلكنا الأخلاقى ، وتشخيص آفاته وبحث مقوماته بعيدا عن سلطان التحريم ، وجدنا ذلك ضروريا ؛ فالمحاولة الأخلاقية الرشيدة إنما تهدف إلى تعلية الباعث . حتى يتوافر للسلوك عنصر الاقتناع والانبعاث الذاتى مما يضمن للفضيلة المكث والبقاء

أما التحريم فغاية ما يصنعه أن يضبط السلوك بعض الوقت وليس له على الباعث أى سلطان ـ والسلوك المضبوط رهبة من عقاب أو رغبة فى ثواب لا يدعو للاعتماد عليه ، فقد يتراخى انضباطه عندما تتراخى صلة الثواب أو العقاب به . . وإذا نحن اجتلينا الحقيقة فى هذه المسألة وجدنا أن السلوك الخير بدون باعث يقف وراءه لا يساوى شيئا . وأعمالنا نفسها لا توصف بالحسن ولا بالقبح . إلا تجوّزا . . وإنما يوصف بذينك الوصفين أصلا ـ بواعث أعمالنا . .

ولنضرب لهذا مثلا ـ القتل ـ ، هل يمكن إذا جردناه من بواعثه ودوافعه أن نصفه بأنه حسن ، أو بأنه قبيح .. ؟ كلا . ، ومن أجل ذلك نرى منزلته تتكيف وفقا لدوافعه .

فهو جريمة ـ إذا كان باعثه رديئا كالعدوان . .

وهو فضيلة ـ إذا كان باعثه خيرا كالدفاع عن الوطن . .

وهكذا رأينا الدين يمجد القتل ويعد عليه بأرفع منازل الجنة . . ثم رأيناه يلعنه ، ويتوعد مرتكبه بعذاب أليم ، ويأس مدقع من رحمة الله . الأول إذا كان فى سبيل الله ، والثانى إذا كان من أجل الهوى والغرض وشهوة الانتقام .

وما دامت الحياة الأخلاقية الرفيعة لا تقوم إلا على بواعث رفيعة . . وما دام التحريم محذوف السلطان على البواعث ، عاجزا عن التأثير فيها ، فأن الأسراف فى استعماله بحجة حماية الأخلاق يكون لغوا عظيما . ولذا كان من أذكى لفتات الدين قول الرسول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . .

فإذا أردنا للمجتمع أخلاقاً فاضلة ، فلنهيء له البواعث الفاضـــلة ـ والبواعث الشريفة تجيء ثمرة الأرادة المشحوذة ، والتجربة الحرة . ومن عجب أن التحريم يعطل الأرادة ويطارد التجربة ويفتح الباب على مصراعيه للأغراء . .

إننا نستطيع بالتجربة أن نفرق بين مرحلتين من مراحل تطور الإنسان . المرحلة القديمة جداً ، والحديثة جداً . . فنقول :

كان شعار الطور القديم : تجنب . .

وصار شعار الحديث : جرّب . .

ذلك أن التحريم المصمت السادر الذى لا يترك بجانبه فراغا لعلامة استفهام كان على رأس خصائص القرون الأولى . أما اليوم فقد صارت التجربة الحرة فى كل شيء هى نبراس العصر ومقوم حياته

وإنا لنذكر كيف عاش المجتمع الأوروبى دهراً طويلا مكظوم الأنفاس ، معصوب العينين ، معطل الحواسّ داخل حصار لا يرحم من محظورات الكنيسة ، ولكن التجربة التى أزجتها إلى الحياة قوة الحقيقة ، انقضت على تلك المحظورات حتى أزاحتها . . ونذكر أيضاً ما حدث مثل هذا فى الشرق الإسلامى كله حيث لا تزال التجربة فيه فى دور التثاؤب والتمطى . وعلى أية حال فقد تداعت كبريات الحصون التى شادها نظـام ـ تجنب ـ، وشاد التطور التاريخى للناس حضارة جديدة فى اقتصادياتهم وفى سياستهم ، وفى أنفسهم شعارها ـ جرب ـ وكل سلوك للناس لا يقوم على أساس من هذا الشـعار لن يستطيع ذووه أن يحملوا شعار المدنية الفاضلة التى نعايشها

ومن حق القارئ أن يسألني ماذا أعني بالتجربة الحرة في السلوك الخلقي . . ؟

ــ هل أعني أنه لكي يكون الإنسان صادقاً فعليه أن يجرب الكذب، ولكي يكون شجاعا ، لا بد من أن يجرب الجبن ، ولكن يصير أمينا يجب أن يجرب الخيانة ، ومن أجل العفة يجرب العربدة . . . ؟

ــ لو قلت في إجابتي ، نعم ، لما عدوت توكيد وجود بعض خواص طبيعتنا الإنسانية ، فأكثر الناس لا يعرفون مغبة الكذب ولا عقبى الخيانة ، ولا مصير العربدة إلا من تجاربهم الخاصة ، وحتى اليوم لم يبلغ ذكاؤنا الإنساني ، ولا سيما في المجتمعات المتخلفة المنسوب الذي يدعوه للانتفاع بتجارب الآخرين . .

ولكن على الرغم من هذا فأني لا أقول : نعم . .

ليس ضربة لازم أن نجرب الكذب لكي نكون صادقين ، ولا الخيانة حتى نصير أمناء .

وإنما نعني بما ذكرنا ــ أن نؤمن بالتجربة كمصدر للخير وللفضيلة ، وللحقيقة . .

ثم إن الأرادة ــ إرادة الترقي والصعود لا وجود لها في نطاق التحريم . . وإنما توجد إرادة أخرى بديلها هي : إرادة الانكماش والأخفاق . . .

ذلك إن الأرادة وهي حادي سلوكنا القويم تستمد يقظتها وانتباهها من المثل الأعلى الذي نختاره لأنفسنا ــ ولنفتح أعيننا على كلمة « نختاره » فالاختيار إذن من أهم مقومات الأرادة ، التي هي أهم مقومات الخلق

جميعا . . فهل يلتقيان ، الاختيار والتحريم . . ؟ أبدا

فهى شامية إذا ما استهلت   وسهيل إذا استهلّ يمانى . . !!

ولسوف نظفر بمغانم كثيرة إذا سمحنا لعقولنا أن تدرك أن ما تعانيه مجتمعات شرقنا العربى من ترهل فى عزمها ، وانثلام فى إرادتها ، إنما يرجع أولا وقبل كل سبب آخر إلى جو التحريم الخانق الذى لف حياتها فى مثل الضباب وجردها عصورا طويلة من حقها فى الاختيار

فلندرك جيدا أن الأرادة كما يعرفها علم النفس والأخلاق - هى وظيفة لذات . مثل الهضم الذى هو وظيفة المعدة . .

وإذا كان الهضم الردئ يعود على المعدة نفسها بالدمار . فالأرادة الرديئة تعود على الذات بالدمار . .

وإذا كان لابد لسلامة الهضم من عصارات الكبد والبنكرياس ، فلا بد كذلك للأرادة من عصارات التجربة والاختيار

وهذا ما يهيب بنا أن نقلص ظل التحريم سواء منه الدينى الذى يملأ كتب الدين المحرفة وأفواه الوعاظ المثقلة بما لم يحرمه الله ، والقانونى الذى يوضع بغير روية ولا قصد ولا تفكير .

إن أجل ما يظفرنا بالاكتمال الخلقى هو إرادتنا التى يجب أن نضحى بالكثير فى سبيل إيجادها . . وإذا مكنت قوما من هذه الأرادة فاقذفهم عبر محيطات المنى والرغبات . ولا تخش عليهم سوءا . .

إنهم قد يصيبهم رذاذ عابر ، ولكنهم لن يذهبوا مع الغارقين . .

غرائزنا تعرف الطريق

والآن نسأل سؤالا :

ـــ أليست الأرادة بحاجة إلى طريق تمضى فيه ، وبالتالى فهي بحاجة إلى من يدلها على الطريق .؟

وأيضاً ، إذا كان الشعور بالأثم كما ذكرنا من الخطورة ؟ فلماذا نأثم ، وأليس أفضل من الزجر عن الشعور بالأثم الزجر عن الأثم ذاته ..؟

ونجيب عن أول السؤالين بأن مثلنا الأعلى الذى نختاره فى حرية وإرادة هو الذى سيحدد لنا طريق السلوك . ولسوف تحمل الصفحات القادمة توضيحا لهذا . .

ونجيب عن السؤال الثانى بسؤال آخر هو : كيف نأثم . ؟

أو بعبارة أصح ، كيف نأتى هذه الأعمال التى توصف بأنها إثم .. ؟

إن كنه هذه الأخطاء يتلخص فى كونها نتيجة المباراة القائمة والدائمة بين حقيقتنا ومثلنا الأعلى . . بين واقعنا الذى هو كائن ، ومثالنا الذى نرجو أن نكونه . فحياة الفرد منا قصرت أم طالت رحلة محتومة تبدأ من ذاته الماثلة وتنتهى عند ذاته المتخيلة ـ تبدأ من واقعه الذى لا حيلة له فيه ، وتنتهى عند مثاله الذى آثره وارتضاه . أو الذى يريد أن يحقق عنده ذاته تحقيقاً كاملا ـ إذا كان ذا وعى أخلاقى سليم

إنها صورة موجزة لحياة النوع جميعه . فقد بدأت الإنسانية رحلتها من ذلك النموذج البدائى الذى كانت الغابة مأواه وكتابه ، نعيمه وعذابه . وهي اليوم وغداً وبعد غد وإلى الأبد ماضية فى رحلتها الصاعدة مصممة

على بلوغ مثلها الأعلى . ولـكن ماذا فعلت الإنســـانية حتى بلغت شأوها الحاضر . . ؟

لقد اقترفت من الأخطاء والخطايا ما يجل عن الوصف والحصر وإن الإنسانية خلال تطورها الصاعد لتشق طريقها إلى مثلها الأعلى بين عناصر غريبة عن هذا المثل إن لم تـكن معادية له . وكذلك يفعل الفرد ـ أى فرد ـ فنحن جميعاً ، أنت ، وأنا ، والآخرون نشق طريقنا إلى الفضيلة وإلى مثلنا الأعلى بين عناصر غريبة عنهما ، ومعادية لهما إلى حد كبير . .

وكما أن أحدنا يكد فى الأرض فيشقها ويزرعها ويسقيها ثم يأتى الصقيع أو العواصف فتقتلع ثمار كدحه . كذلك تقف منا موقفا مشابها ، تلك الظروف الفعالة فينا ولكن هذا لايدعو إلى اليأس ، فعلى حدّ تعبير العلامة الانجليزى « دكنسن » السم أنتج الترياق وكما ولدت قسوة الطبيعة فى الأنسان إرادة وذكاء قاوم بهما أعاصيرها وزلازلها ، فـكذلك تولد فينا تلك العناصر الغريبة التى تعتاق مسلـكنا الخلق ـ قوى تقاومها وتنتصر عليها

ولكن علينا أن نثق بالطبيعة الأنسانية ؛ فهى وحدها عدتنا فى النضال.. إن الدعوة إلى تحطيم الغرائز ، وتسفيه مشيئتها دعوة إلى الخذلان الكامل. ولقد علمنا تاريخ الأنسان ، وتصور غرائزه وخصاله . أن نثق بها ـ أعنى غرائزنا ـ ثقة كاملة

يقول دكنسن :

ـــ « . . كيف وجدنا هذا الأنسان فى أول أمره ، أى من الساعة

التي بدأ فيها يتصرف بنفسه في أقداره . . ؟ هل وجدناه في ذلك الوقت مسالما ذكيا رحيما معينا لبني جنسه ـ كما هو اليوم ـ . . ؟

ـ «لا ، بل وجدناه حيوانا مغطى بالشعر يمشي على رجلين، جاهلا، قاسيا مخرفا منقسما إلى آلاف من القبائل والجماعات المتعادية ؛ فكانت الحرب وكان الاسترقاق وكان ما يستتبعان من مصائب وآلام وجدت مع الأنسان من بداية عهده . وكانت شرور لا بد منها تصيب الأنسان كما يصيبه الفيضان والنار . .

« هذا هو الكائن الحيّ الذي وجد دون أن يكوّن له في وجوده خيار ، والذي أطلّ في طفولته على العالم بعد رقاده الطويل في أحضان الوحشية ، ومضى ، يجره من قدميه ويتعلق به من عنقه ما ورثه عن أسلافه من الحيوان . .

« فأذا كانت له الآن مدافع وبوارج ؛ فلأنه كانت له في الأصل مخالب وأسنان . . وإذا كانت الدعارة والفسق تنتشران بين أفراده ؛ فلأنه كان من قبل يلجأ إلى السبي والاغتصاب . . وإذا كان له اليوم عمال وأجراء ؛ فلأنه كان له فيما مضى عبيد وأقنان » . . .

إن كلمات « دكنسن» على مافيها من فكاهة تنصف طبيعة الأنسان . فالحق المشاهد ، أن غرائزنا تسير في طريقها عن بصيرة . وحسبها لكي يوثق بها ـ أنها ماضية دائما إلى أمام . . لا تنتكس أبدا . ولقد قضت ملايين السنين وهي تعمل وتجرب ، وتخطىء ، وخلال هذا تنمو قدرتها الفائقة على الاختيار والخلق والتصميم نموا مطردا .. وهي لا تبيد أبدا . لكنها تتطور .

فغريزة المقاتلة باقية ، ولكنها تتطور من الظفر والغاب إلى المدفع البارجة . .

وغريزة الجنس باقية ، ولكنها تتحول من السبي والاغتصاب إلى الزواج والأسرة

وكما يقول « ديورانت »

— « . . تحول الجشع عند الأنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والانتحار إلى فلسفة » . . .

إن غرائزنا ـ هذه القوة التاريخية التى تكوّنت لنا على طول الطريق الذى قطعناه ، لباقية بقاء الحياة نفسها ، وكل تعطيل لها تعطيل لمهمة الحياة ـ ولعلّ أصوب من التعبير بكلمة ـ تعطيل ـ التعبير بكلمة ـ تبديد ـ فغرائزنا لا تتعطل أبدا ولا تقف عن العمل . ونحن حين نكبتها لا نصنع أكثر من تحويل طاقتها الهادفة البناءة إلى عمل مبدّد هدّام ـ عمل يتسم بطابع الانتقام والشغب والفوضى . .

إنها أعرف منا بالطريق ، لأنها وحتى قبل أن ينبثق فينا العقل كانت رائدنا العليم البصير ، وكما ذكرنا من قبل فأن تطورها الصاعد يدعونا للثقة بها . وصحيح أنها تتطور فى بطء . ولكنها مع هذا سيدة للوقف مما يجعلنا ملزمين إذا أردنا الظفر بسلوك فاضل غير قلق ولا منتكس أن نوائم بين حقوقها الطبيعية ، وشعائرنا الخلقية . . وإن ذلك لممكن إذا سلمنا بادى الأمر بوجودها وفائدتها ـ لكن من المعروف أننا فى بلاد احتوشتها التقاليد ، وضللتها الأساطير ، وقادها الجهل والجاهلون إلى مهمه وعر . ؟ فلقد وقفنا ولا نزال نقف من غرائزنا موقف الخصومة الغبية

وكل تربيتنا فى الأسرة وفى المجتمع وفى المدرسة والمسجد والكنيسة تحرضنا عليها ــ فهل فى ذلك من خير . . ؟

هل كبت الغرائز واضطهادها نهج سوىّ للتسامى والاكتمال . ؟ ــ سنجيب على هذا فى الفصل القادم إجابة مدعمة بالشواهد والأرقام حين نتحدث عن ــ « الكبت حرب أهلية » . . وحسبنا الآن أن نشير إلى أثر غرائزنا فى التطور التاريخى للانسان ونظمه ودنياه .

فمثلا ، أليست غريزة الجوع هى التى حققت حرية الإنسان وأعلنت حقوقه . . ؟ ــ أجل ، فلولاها ماقامت الثورة الفرنسية ، ولولاها ما كانت الثورة الروسية . هاتان الثورتان اللتان أحدثتا فى تطورنا التاريخى ، وصنعتا لمستقبلنا الإنسانى الشىء الكثير ، بل الأكثر من الكثير . . .

وغريزة الجنس التى لا تزال تلاقى فى بلادنا أذى كثيراً ، من حفظ النوع الذى كان سينقرض حتما سواها . . ؟

وحتى غريزة القتال ــ ها هى ذى تعمل دائبة ناصبة لتقريب عصر السلام ؛ فهى الحافز الكامن وراء مخترعات الموت كالقنبلتين ــ الذرية ، والهدروجينية ــ هاتان اللتان سيدفع فتكهما الماحق إلى التفكير الرصين الحاسم فى وضع أوزار الحرب ، والزج بها فى متحف « مخلفات العصر الوحشى للانسان » . . (!) حيث ترتفع غريزة المقاتلة بعد ذلك إلى نقطة أعلى ، يراق فيها مكان الدم العرق ، وتطوح فيها بديلا من رءوس الناس رءوس المشاكل والصعاب . . !

ونحن حين ندعو لتوقير غرائزنا لا نعنى بطبيعة الحال ترك حبلها على غاربها . إذ لا بد من أن تسير فى حمي العقل وهداية المثل الأعلى ــ

وهذا ما جعلنا نختار دائماً التعبير بـ « طبيعتنا » ذلك أن عقلنا ، ومثلنا الأعلى جزءان من طبيعتنا . . وهدفنا هو : إطلاق سراح الطبيعة ، لا سراح الغريزة . ومن أجل هذا جعلنا عنوان هذا الفصل من الكتاب « طبيعتنا الحرة . . أعلم » أجل ؛ نحن ندعو للتعبير المتوافق الحر عن طبيعتنا ككل واحد ، والعقل البصير والحاسة الخلقية الهادية من أهم عناصر هذه الطبيعة . . أما أن نطلق سراح جزء من طبيعتنا على حساب حرية جزء آخر منها . كما نفعل حين نطلق غريزة الجنس ونكظم الحاسة الخلقية ، أو نطلق الحاسة الخلقية ونكظم غريزة الجنس ؛ فهذا كما سنؤكد فيما بعد ، هو الكبت الصاعق ، والضلال المبين . وإذن ؟ فغرائزنا تعرف الطريق شرط مسايرتنا لها وتعليتها ــ وهذا هو أظهر فارق بيننا وبين الحيوان ؛ فللحيوان غرائز مثلنا ، ولكنه عجز عن استعمالها والتكيف معها ؛ فوقف حيث هو . . أما نحن فقد قدرنا فصرنا أناسيّ وبشرا ــ وهذا بالضبط هو الفارق بين الأمم ذات الإنسانية الناضجة الراقية ، والأخرى ذات الإنسانية البدائية الفجة . .

فلنعلم جيداً ، أن إطلاق هذه القوى الهائلة وتوجيهها فى الطريق الصحيح ــ هو الحل الوحيد والسليم لمشكلة سلوكنا وأخلاقنا . . فبدلا من أن نبحث لها عن شكائم جديدة ــ وهو ما يريد دعاة الأصلاح الدينى أن يفعلوه اليوم ــ تعالوا نحطم بقية السلاسل التى تحتجزها ، ونسير بها فوق مرتفعات تطيقها ، أما الكبت فلا يثمر سوى النقيض المر الوبيل ــ وإن هذه الحقيقة لطوع إدراكنا لو نشاء . ؟ فنحن ــ مثلا ــ لا نقبل على الماء فى أيام فطرنا مثلما نقبل عليها فى أيام صومنا .. وعند يسير أحدنا

عبر صحراء متلظية وقد نضب ماؤه ، وجفّ ريقه ، ثم يقع بعد طول ظماء على ماء آسن ؛ فأنه يعب منه كما لو كان عذبا فراتا ـ بنهم لا يجده فى ظروف عادية لم يداخلها حرمان .

ولهذا ؛ فأن شهرا كشهر رمضان ـ قد تحوّل عندنا إلى شهر الطعام ، لا شهر الصيام . فنحن ننفق فيه على بطوننا أضعاف ما ننفقه فى أى شهر آخر ـ ذلك أن غريزة الجوع تصر على تعويض ما يؤخذ منها مع أننا لا نكاد نأخذ منها شيئا ..! وليست غريزة الجوع وحدها . فمن المحتمل أن يكون هناك ما يمكن أن يسمى « تداعى الغرائز » ففى هذا الشهر بالذات يدب فى الغريزة الجنسية ضعف نشاطها المعتاد ، فهل هى العدوى انتقلت إليها من غريزة الجوع . . . ؟

أم تراها أحست بما سيناله منها شهر العبادة والنسك فهبت للعمل ، وآثرت أن تأخذ صفة الهجوم . . ؟ !

ونستطيع أن نؤكد أن محاولات الاتصال الجنسى غير المشروع تكثر فى المدن التى نضرب القاهرة مثلا لها ـ تكثر فى شهر رمضان عنها فى أى شهر آخر . .

وهذا الشاهد بليغ الدلالة ؛ فنحن فى ذاك الشهر لا نثار الغرائز ولا نكبتها ـ إنما نصنع فقط يسيرا من القمع ، فكيف إذن لو كبتناها كبتا ينطوى على تحد وإقصاء . . ؟

هناك أمم بأسرها يجيب سلوكها على هذا السؤال ..! صار الانحراف الجنسى فيها ، أو هو على وشك أن يصير شعيرة وعبادة . . !

لماذا . . ؟ وهل حدث هذا نتيجة تفريط فى الدين وإنكار له . . ؟ كلا ؛ فما أكثر ما يصلى أهلها ويصومون . ! ولكنه حدث كنتيجة محتومة لجهلها بحقوق طبيعتهـــا الأنسانية ، وعجزها عن مسايرتها والتفاعل معها .

لقد ظن ناس هذه الأمم أن الشرف والنخوة والدين فى تحطيم الغرائز العاملة

وبدلا من أن يحتفظوا بالخلايا التى يجنون منها العسل . ، ذهبوا يدمرونها — ومع ذلك ، فما استطاعوا . ، وتبروا أنفسهم تتبيرا . . !

ولما كان المجتمع بتقاليده ووراثاته وثقافته المحرض الأول على الحرب الدائرة بيننا وبين طبيعتنا من جهة ، وبيننا وبين الحقيقة من جهة أخرى ، فقد آن لنا أن ننتقل بالحديث إليه . .

المنبع، قبل المصبّ

« يحمل المجتمع فى رحمه جنين
كل جرم يقترف فيه . . »

ـ كوتليت ـ البلجيكى ـ



فى هذا الفصل

مسئولية المجتمع

مشكلة العيش

مشكلة الجنس

التكبت حرب أهلية

مشكلة الفراغ

بين طبيعتنا الأنسانية والبيئة التى نعيش داخل نطاقها ، ارتباط وثيق تظهر آثاره فى سلوكنا وأخلاقنا . . وإذا شبهنا طبيعة الأنسان بالأرض ، فأن البيئة تشبه المحراث الذي ينبشها ، والبذور التى تبذر فيها ، والماء الذى ينساب خلالها ويرويها .

والطبيعة الأنسانية + النظام الاجتماعى يفرزان السلوك ويعينان نوع الأخلاق التى يتخلق بها الفرد والجماعة . . وعلى طول الطريق التى سار عليها البشر تتألق هذه الحقيقة كنجوم السماء . . وإنا لنلاحظ أن تطور السلوك الأنسانى يجئ مصاحبا لتطور البيئة ، وانفساح المجال الذي تحقق فيه طبيعتنا ذاتها . ومن هنا كان كل ضغط على طبيعة الأنسان ، وكل كبح لزمام التطور فى المجتمع مؤامرة سفيهة ضد الأخلاق وضد الفضيلة.. لقد كان الأنسان القديم ـ إنسان الغابة ـ ينجب ذرارى يشبهونه ويشبهون الغاب . . فلما ترقى وسكن المدينة صار ينجب ذرية من نوع آخر تليق بسمته الجديد ، وتليق بالمدينة . وكذلك الحال فى الأخلاق تماما. فالطبيعة الأنسانية الفجة ، والنظم الاجتماعية البدائية كانتا تتعاونان معا على إنتاج أخلاق فجة وبدائية حين تقاس بمعاييرنا الخلقية اليوم . وكلما أحرزنا من النمو والتقدم نصيبا تبع ذلك تقدم ونمو فى المفاهيم الخلقية والسلوك الأنسانى..

فالانتحار مثلا كان فضيلة . وإذا أسأت إلى آخر إساءة أغضبته غضبا دفعه إلى الانتحار أو الألم ، فحتم لزام عليك أن تنتحر . وتصير منبوذا نجسا إذا أنت لم تفعل . . فأين ذهبت تلك الفضيلة اليوم . . ؟

وكان على رأس فضائل الناس ـ كما أسلفنا قبلا ـ أن تقدم لأضيافك

زوجتك أو بنتك ـ ولعلّ هذا يفسر قول نبي الله لوط عليه السلام لقومه حين هاجموا داره ليفتكوا بضيوفه فتكا جنسيا ـ « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم إن كنتم فاعلين » . . فأين هي هذه الفضيلة اليوم . . ؟

لقد تخلفت في الطريق كما تخلف سواها من الفضائل التي استنفدت أغراضها . وسقطت في رحلة الانتخاب الطبيعي لخصال الأنسان بعد أن أدت دورها وأنهت مهمتها . .

وكذلك القرصنة ، كانت فضيلة تتمثل فيها عدة فضائل كالشجاعة والتضحية . . فالأنسان الذي يقطع الطريق على قافلة تنوء بالزاد والخير ثم يسوقها إلى قبيلته وقومه ، رجل فاضل شجاع . فهل لا تزال القرصنة فضيلة . . ؟

لقد تطورت مع الأنسان والبيئة حتى صارت تجارة . ولسوف تتطور التجارة إلى شيء آخر أهدى وأمثل ، بعد أن انزاح الستار عن دورها الضار في استعمار الشعوب وإيقاد الحروب..وهكذا يتلقى سلوكنا الأنساني صورته وسماه من طبيعتنا النامية ، وبيئتنا المتطورة . ، وليسوا سواء ، سكان كوكبنا الأرضي اليوم . ففي المجتمعات المتخلفة نجد أخلاقا متخلفة ، وتصوراً رجعيا لمعنى الفضيلة ونموذجها .. ولسنا نعني بالتخلف هنا ماتعنيه السياسة الدولية المعاصرة .. (؟ !) وإنما نعني به كل إعراض عن التعاون الصادق مع حركة التاريخ . . ومن هنا تبدأ مسئولية المجتمع عن سلوك أفراده فالمجتمع الذي يصر على أن يعيش في منتصف القرن العشرين مدثرا بنظم قرون خلت ، وأزمان عفا عليها التطور لا يحق له أن يطمع في غير أخلاق تلك القرون ، وخصال ذلك الزمان . .

ولا بد أن « ماركس » كان يريد تعزيز هذه الحقيقة حين قال :

— « إن ضمير الأنسان يتغير تبعا لتغير علائقه الاجتماعية وحياته الاقتصادية . ؟ فاسحقوا استغلال الأنسان للأنسان ، تذهب العداوة ، وتذهب مع العداوة الرذيلة » . . .

إن أصول الأخلاق اجتماعية . وفضائل الناس ورذائلهم ، بنات المجتمع وحفيدات الزمن . . والمجتمع - أى مجتمع - هو الوعاء الذى يحتوينا داخل محيطه . ونحن فيه كالماء ، نتلون بلون إنائنا . .

أجل ، وكما يبدو الماء أحمر اللون إذا وضع فى إناء أحمر ، أو أخضره ، إذا وضع فى إناء أخضر . . نبدو نحن أيضا ، ولنا لون المجتمع الذي يستوعبنا . بل إن الأمر أبعد من هذا وأخطر ؛ فالماء قد يفقد لونه الحقيقى خارج الأناء فقط ، ثم هو يظل ماء بكل لونه وخصائصه ومذاقه . . أما نحن داخل المجتمع ؛ فأننا نفقد الكثير من خصائصنا الذاتية ، أو على الأقل نفقد الكثير من نشاط هذه الخصائص ما لم يكن المجتمع لائقا ومشجعا .

إن مشكلاتنا الأخلاقية لم تعد تتمثل فى إدراك أن هذا حلال ، وهذا حرام . . أو هذا خير ، وذلك شر . . بل تتمثل على وجه التحديد فى إدراك نوع المجتمع الذى يساعد بمفاهيمه ونظمه على فعل الحلال ، وهجر الحرام . .

ولقد عرفت الأنسانية من تجاربها المتساوقة أن الصدق والعفة والأمانة والشجاعة والتفاؤل خير . . كما عرفت أن الكذب والمجون والخيانة والجبن والتشاؤم شر . . وحين جاء الدين نفسه يدعوها إلى الصدق مثلا لم يكن يدعوها لشىء ابتكره . بل كان يدعو إلى فضيلة موجودة بالفعل .

انبثقت من تجربة الأنسان واحتياجاته . ودور الدين لا يتعدى تزكيتها والتحريض عليها . .

أجل . ، وما أيسر أن يعرف الناس الفضيلة والرذيلة . ، ولكن ما أعسر الظفر بالفضيلة ، وما أضناه . . !

فلنجعل المجتمع من الصلاحية والأمكانية بحيث يتيح لأفراده أن يحققوا ذواتهم تحقيقا متساميا رفيعا .

إنه لحق أن الأخلاق الفاضلة تمثل وحدها نصف الوسائل التى تحقق الأمة بها عظمتها وارتقاءها . وحق مثل هذا الحق أن نظم المجتمع وتقاليده وثقافته تمثل تسعين فى المائة من الوسائل المفضية لمكارم الأخلاق . ونضرب لهذا مثلا ؛ ففى أثناء دراستنا الانحراف الخلقى بين الشباب وتعقبنا أسبابه وجدنا خمسة عشر شابا فقدوا أمهاتهم وهم أطفال بسبب الطلاق . . وعندما كبروا وازدهر شبابهم زلت أقدامهم ، وتداعوا أمام أول إغراء — إنهم لا يعرفون كيف حدث هذا ...؟ ولكن العلم يعرف .. ففى طفولتهم التعسة فقدوا حنان الأمهات وعطفهن . وحلّ بديل هذا الحنان المفقود شغب زوجات الآباء ، أو فراغا مجدباً للذين لم يتزوج آباؤهم بعد الانفصال عن الأمهات . .

وطال تلمس هؤلاء البائسين لقلب عطوف يضمهم ويدفىء وجداناتهم المرتعشة المقرورة . .

طال شوقهم إلى حنان الأم يشرق فى وجوههم ، وإلى أناملها الرطاب تداعب خصلات الشعر المنسدل فوق الجبين . ولكن هيهات. .ولما كبروا ، وصاروا شبابا ، ساروا فى الطريق الغاصّ المزدحم ، وتلقفهم الذين اكتشفوا

جوعهم إلى العطف والحنان . وكانوا ذئابا يرتدون مسوح الرهبان . .

وبدأت المأساة . . . فلو لم تكن هناك فوضى الطلاق التى أودت بخمس عشرة أم ، ما ربحت الخطيئة خمسة عشر شابا يانعا بهذه السهولة.. وهكذا سنجد المجتمع بتقاليده ونظمه وراء كل موبقة يرتكبها الناس . ، فلنطهر المنبع قبل المصب . . ولنعد النظر فى تكوين المجتمع قبل أن نفكر فى تغيير الفرد . .

وإذا علمنا ــ أولا ــ أن الطبيعة الأنسانية ، والبيئة الاجتماعية يشمران فى تضامن وطيد سلوكنا . .

وإذا علمنا ــ ثانيا ــ أن كل تنافر بينهما يقوض شريعة أخلاقنا . .

وإذا علمنا ــ ثالثا ــ أن المجتمع أقدر على التطور السريع الصاعد من الطبيعة البشرية . . ؛ فقد صار لزاما علينا أن ننتفع بقابلية المجتمع هذه . ونمكنه من التحوّل الحاسم إلى أفضل . ليعوض تطور طبيعتنا البطىء وليأخذ بيدها فى ثبات صاعد واستقرار متجدد.. ونقطة البدء التى ننطلق منها إلى غايتنا هى تحديد القاعدة التى يقوم عليها مجتمعنا وإدراك الأوضاع التى تكتنفه . . ومجتمعنا هذا قاعدته ، المباراة غير المتكافئة . .

أجل ، ولنحفظ هذه العبارة جيدا ــ المباراة غير المتكافئة . ! !

وقد يكون فى عزمنا أن نتحول به إلى أفضل . بيد أن واقعه الذى يميزه اليوم هو كما وصفناه ــ مجتمع مباراة غير متكافئة . وحيث يوجد هذا الوصف ، توجد النقائص الخلقية جميعها ــ وتصير رذائل المجتمع قوات اجتماعية لا يستطيع الفرد ــ أى فرد ــ أن ينجو من إسارها

ذلك أن المباراة غير المتكافئة تعنى أن ينطلق أفراد المجتمع فى سباق

لاهث وظالم . لا يبدأ فيه المتسابقون من نقطة واحدة ـ هى الكفاية الذاتية ، ولكنهم ينطلقون من نقاط شتى أكثرها بعدا عن الهدف هى الكفاية والشرف . .

والمجتمع العربى كله يحمل هذا السمت ، ويضطجع فوق هذه القاعدة ـ من أجل ذلك نراه يموج بنقائص الكذب ، والنفاق والغش ، وفقر النفس . . ولم يعد يعرف عن الرذيلة إلا أنها الزنا وشرب الخمر . . وحتى هاتين ورغم استنكاره لهما يحتلان فيه مكانا مرموقا .

ومن الوضع الاقتصادى السىء الذى رزح مجتمعنا تحت وطأته قرونا مملوءة بالسطو والقهر والاستغلال . من هذا الوضع الذى لا نزال نحاول التخلص من قبضته العارمة الآثمة رسخت فى حياتنا مشكلات ثلاث هى فى ـ رأينا ـ الآبار التى تنزح منها جميع نقائص المجتمع وكافة رذائله وأخطائه . تلك هى :

ا ـ مشكلة العيش . .

ب ـ مشكلة الجنس . .

ج ـ مشكلة الفراغ . .

وبعبارة أخرى نقول : إننا نرث اليوم مجتمعا مريضا ، نرثه من القرون الطويلة القاتمة التى جثمت على صدره ، وجثمت معها عليه تقاليد غزاة لم تكن لهم عقول الحكماء ، ولا قلوب الرحماء . . وقبل أن نبدأ فى علاجه ورد العافية إليه ـ علينا أن نشخص علته جيدا ، ونحدد معالم شخصيته الضامرة المبهوظة . .

وهذه المعالم ـ كما ورثناها ـ تتلخص فى أنه :

ا — مجتمع استغلالى . .

ب — مجتمع انفصالى . .

ج — مجتمع عاطل . .

ومن تفشى روح الاستغلال فيه قرونا عاتية نشأت مشكلة العيش . . ومن سيطرة تقاليد الانفصال عليه نشأت مشكلة الجنس — وعن هاتين المشكلتين مضافا إليهما ضآلة الفرص وسوء تكافؤها نجمت مشكلة الفراغ . ؟ وكل محاولة لتصحيح سلوكنا ، وتجويد أخلاقنا تفقد فاعليتها ما لم نضع هذه المشاكل الثلاث موضع البحث والاعتبار . فلنفعل ذلك إذن . وبغير إبطاء . ولنبدأ بأولاها وأعتاها . .

مشكلة العيش . .

لن نكون مغالين ، وأيضا لن نكون ماديين إذا قلنا لمن يبحث عن الفضيلة والرذيلة : فتش عن اللقمة . !! فلقد كان العيش ولا يزال الملحمة الكبرى التى تتناثر منها حوادث السلوك الأنسانى وعثراته . وهذا لايعنى عدم وجود مؤثرات أخرى . بل يعنى أن مشكلة العيش كبرى هذه المؤثرات وأهمها — ومشكلة العيش تبدأ من البحث عن اللقمة . ثم لا تعرف مضاعفاتها نهاية تقف عندها . . وهى لهذا مشكلة . . وهى أيضا لا تجد مناخا ملائما سوى المجتمعات التى تقوم على المباراة غير المتكافئة . حيث يلهث الناس وراء الثروة والشهرة والسلطة والنجاح . وإذ كان تكوين المجتمع لا يسمح بنوال هذه الأشياء بغير الكذب ، والحيلة ، والسرقة ، والنفاق . فأنها جميعا وبقية أسرتها المرذولة تصبح سلوكا عاما ينسى الناس فى لجات

اندفاعاته أنها نقائص وخطايا . . لقد بدأ الأنسان وغايته الكبرى لقمة تسد جوعته . . وفى سبيل الظفر بتلك اللقمة مضى يقتـــل ، وينهب ويكذب ، ويحتال . .

ثم تطورت احتياجاته . ولم يعد الطعام وحده أولى غاياته بل امتلاك الأرض التى تخرج الطعام . . ثم تطورت شهوة الامتلاك مع تطور البيئة والنظم فصار يرنو إلى امتلاك الأسواق . . وعلى طول هذا الطريق رويت الأرض بدماء البشر وسفك الناس كثيرا من أعمارهم على أديم المعركة التى أزجتها المباراة الظالمة حول امتلاك اللقمة ، وامتلاك الأرض ، وامتلاك لسوق . . ، ولا يزالون يفعلون . . !

كل الذى حدث أن المشكلة التى كانت تلتف حول مطالب متواضعة . . ضخمت وأمست متعلقة بمطالب أكثر . . والنقائص التى كانت تزجيها شكلة العيش لبست ثيابا تنكرية للفضيلة . فالسرقة تحولت إلى ملكية . كما تحولت القرصنة إلى تجارة . . وإذن فالأخلاق التى كان يفرزها النزاع لى اللقمة . يفرزها اليوم النزاع على الأسواق . . ، وعلى الشهرة والمجد النجاح . . . !.!

وإذا طبقنا هذه الظاهرة على أخلاقنا الفردية وسلوكنا الشخصى جدناها . . فالناس بطبيعتهم يريدون لأنفسهم مزيدا مستمرا من النجاح . سبيلهم لهذا طبعا ، الوسائل التى تتناغم مع ميول المجتمع الباطنة ، وخصاله راسخة ولما كانت المجتمعات إنما يحدد ميولها ويكيف خصالها ـ تكوينها لاقتصادى ، أى مشكلة العيش فيها ، فأن أخلاق الأفراد تجىء انعكاسا اضحا وتاما لهذه المؤثرات .

يقول الفيلسوف الانجليزى « بنتام » :

— « . . يسود الناس اعتقاد خاطئ عن تكوين الأخلاق . ؛ فهم يرون أن الأنسان يكيف أخلاقه ويتجه ناحية الخير أو الشر ، وبذا يعد مسئولا عن أعماله . بينما الحقيقة خلاف ذلك . إذ أن أخلاق المرء وليدة ظروف لا سلطان له عليها ، وهى الأحوال التى فيها يولد ، وفيها يعيش ، وفيها يؤدى عمله . وبناء على هذا المبدأ لابد من العمل على توافر الظروف الصالحة من النواحى الجثمانية والأدبية والاجتماعية إن شئنا تكوين الأخلاق السليمة الفاضلة ، ولن يتسنى لنا الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا توافرت الثروة . إذ بدونها يكون الفقر من نصيب الأغلبية ، والفقر من الظروف السيئة الشريرة لأنه يولد الجهل ، ويحطم الصحة ، ويربى الجبن » . .

ألا فليقف أمام هذه الكلمات طويلا — أولئك الذين يتوسلون إلى تجويد الأخلاق وتعلية السلوك بالمواعظ ، والقوانين ، والصراخ المتشنج فى مكبرات الصوت التعسة البائسة . . ! !

والآن نسأل سؤالا :

— هل معنى ارتباط الأخلاق بالنظام الاقتصادي للمجتمع أو مجرد انتقال جماعة ما من مجتمع مباراة إلى مجتمع مساواة يصاحبه على الفور انتقال السلوك وتسامى الخصال . . ؟

ونجيب : لا ، ليس ذلك كذلك ، فالسلوك الأنسانى كما أسلفنا ، بطئ التطور . . ولكن الذى لا ريب فيه أن خلاص المجتمع من المعوقات الاقتصادية وذيوع المساواة والتكافؤ فيه من شأنه أن يفتح فى الحال والتو أبواب الفرص للترقى المتدرج فى المسلك والخلق

إن بين المباراة المتفاوتة والفضائل العالية هوة بعيدة الغور مترامية الوصيد. والمجتمع القائم على هذا اللون من المباراة لا يعرف سوى الخصال التى تذكى بين أفراده حمى التنافس والتزاحم والتكالب.. إنه ينتج الأخلاق بنفس الطريقة، ولنفس الغاية التى ينتج لها الفحم والحديد..!! فكما أنه ينتج الحديد والفحم - مثلا - ليزيد ثراءه وبأسه، كذلك ينتج الأخلاق ليزيد ثراءه وبأسه.. ولما كان الصدق والحب، والأمانة، والسلام، والعدل، وكل هذه الفضائل الوضيئة تحتم أن يكون جميع الثراء لجميع الناس..

ولما كان مجتمع المباراة غير المتكافئة يقوم على أن يكون معظم الثراء لعظماء الناس..

ولما كان مقياس العظمة فى هذا المجتمع هو طول الباع فى الحيلة والكذب، والاتضاع، والانتهاز، والعربدة المتنكرة فى نسيج فضفاض مصنوع من الاحتشام. فأن العملة الصحيحة تختفى من السوق حتما. والفضائل الحرة الباعثة لا يبقى لها وجود إلا على ألسنة ليس وراءها ضمائر ولا قلوب.

كيف يستطيع مجتمع المباراة هذا، أن يهب أفراده الفضيلة والحكمة. وهو قائم على نشدان المصلحة الخاصة ودعم المآرب الشخصية أو الطبقية..؟؟

إلينا مثلا عابرا يشير إلى حالات أكثر رسوخا وتفاقما.. مثل الموظف فى شركة لبيع الملابس والأقمشة.. إنه إذا كان يشتغل بالمرتب فقط يكون أدنى إلى الصدق والنصيحة فى بيعه. فهو فاتر الاهتمام بخداعنا وتضليلنا.. ولماذا يخدعنا ويغشنا..؟ إنه سواء عليه أن يبيع طول يومه ثوبا واحدا،

أو ألف ثوب. فله مرتب محدودسيأخذه.. أما إذا أغرينا هذا الموظف بما يسمى « العمولة » فسيتحول من فوره أو على التدريج إلى إنسان آخر مخاتل مضلل غشاش. يقسم على جدة البضائع المخزونة من الحرب العالمية الأولى ، ويقنعك بشتى الوسائل أنها أحدث عهدا بالآلة التى نسجتها من صبح اليوم بضحاه.. !وهو يزداد إمعانا فى سلوكه التجارى هذا كلما رأى زملاءه يبيعون أكثر ، ويجنون أكثر..

وعندما تسير فى الطريق ؛ فتبصر عمارة شاهقة. ويقول لك زميلك السائر معك : أتعرف لمن هذه..؟إنها لفلان.. ثم يعدد لك الوسائل التى هيأت له اقتناء هذه وأضعافها ، وهى كلها مما يحادّ الفضيلة والشرف. فأنك ستجد فى نفسك نزوعا واعتمالا. فأن كان عمرك ولىّ بكيت الفرصة التى أضاعها منك تمسكك بالفضيلة . . وإن كان فى العمر بقية وللعزم أثارة ، مضيت تبدأ من جديد السير فى الطريق الضالة المباركة التى ستعثر فى منتهاها على عمارة شاهقة وثروة باذخة . . !!

نعم — لا شئ فى موضعه الطبيعى . . . ! هذا هو شعار مجتمع المباراة غير المتكافئة ، فكيف يرجى إذن من مضطر به وفوضاه وشذوذه سلوكا منتظماً وفاضلا ووطيدا . . ؟

إن الرذيلة فى مجتمع يقوم على التفاوت والتمايز هى كما أسلفنا قوة اجتماعية تزكيها وتدعمها المؤسسات التى يصطنعها هذا المجتمع لنفسه، كالصحافة والإذاعة ودور السينما . ولهذا يكون من العسير إن لم يكن من المستحيل أن ينجو الفرد من الخصال الدنيئة التى ملأ نظام المجتمع بها حياته ، والتى جعلها سبيلا إلى غايات منتفخة كالشهرة والمجد والثروة إلى آخر هذه الأحابيل . .

وهذا المجتمع أيضاً - أعنى مجتمع المباراة غير المتكافئة - ينفث فى حياته الأخلاقية تناقضاً مريرا ؛ فهو إذ يدعو مكرها وبصورة شكلية إلى الفضيلة ، يعمل بطبيعته الغلابة على ترويج الرذيلة . .

إنه حين يملأ أسماع الناس بتمجيد القناعة نظريا . يملأ حياتهم الواقعة بكافة الظروف التى تسوقهم فى غير رفق إلى الجشع . . وفى الوقت الذى يوقر آذانهم بالحديث عن الأمانة يملأ طريقهم بالاحتياجات التى تدفع الناس فى سباق لا هث نحو الخيانة وفساد الذمة . .

وهذا المجتمع مجدب من الصداقة . وإذا كانت الصداقة والأخاء والحب . هذه المعانى الوضيئة التى تعبر عن تماسك السلوك من أجدى الوسائل المفضية لخلق رائع . فإن الخسارة تبدو واضحة حين نجد مجتمع المباراة أعجز من أن يكون مجالا للصداقة ووعاءا للأخاء . . إن أخلاق « البورصة التجارية » و « الشركات المساهمة » هى التى تربط أعضاءه بعضهم ببعض ثم هو لا يكترث - على حد تعبير سقراط بالحديقة التى تؤتى أكلها شهيا فى كل حين - ألا وهى الصداقة . .

وأخطر الأثافى التى يرتكبها - مجتمع المباراة - تزييفه معايير الفضيلة ؛ فهو بطبيعة تكوينه يجعل من الخيانة والرشوة والجاسوسية والاحتكار وغيرها فضائل تظفر بتمجيده وهو لا يكون من السذاجة بحيث يتركها هكذا بملامحها الدميمة الشائهة . فيصطنع لها أسماء تبعث على الثقة والاطمئنان ؛ فالجشع - مثلا - يسميه اقتصادا . . ويسمى النفاق أدباً . . والرشوة تبرعا . . والجاسوسية وطنية . . والاحتكار امتيازا . . والهوان تواضعاً . . والميسر مسابقة . . !

إنه يذكرنا بمجتمع المباراة الكبير الدولى . . حيث يسمى الاحتلال تعميراً . . ويسمى احتلاله للشعوب تعاوناً دولياً . . ويسمى الأحرار الذين يكافحونه إرهابيين وهدامين . . !!

أليس مجلس الأمن ذاك ـ هو الذى ترك عرش فلسطين يساقط كسفاً على رءوس أهلها . . ؟

أليس هو الذى ترك مراكش وتونس تفنيان تحت بأس الأسلحة الفتاكة التى تخرجها مصانع المباراة وفائض القيمة . . ؟؟!

أليس هو الذى خذل مصر وعبس فى وجه قضيتها وحقها . . ؟

أليس هو الذى يبارك الاستعمار فى كل مكان . . ؟

أليس هو الذى أشعل حرب كوريا . . ، وهو الذى سيشعل الحرب العالمية المقبلة . . ؟

ومع هذا كله ؛ فانظروا . . إن اسمه ـ مجلس الأمن . (!!)

أى أن جرائم الأرهاب ، والتستر، والنهب، قد تحولت إلى فضيلة اسمها الأمن ـ ألا دعونا نضحك ، إن كان للضحك فى هذا المقام العبوس مكان . .

لقد آن لنا أن ندرك أن الأخلاق ليست كلمات تلاك ابتغاء العزة وابتغاء تأمين المصالح . ولقد ظلّ المسلمون يلوكون القرآن بألسنة منافقة حتى أزهقوا بهاء آياته الوضاء أو كادوا . . فأذا كان المنادون بالفضيلة ، والبكاءون محنة الأخلاق جادين فى دعواتهم وصلواتهم ؛ فليتعقبوا جذور المأساة وليتقدموا نحو طريق الخلاص فى شجاعة . وإلا فأنهم بثرثرتهم حول الأخلاق الفاضلة ، إنما يعبرون عن حنينهم إلى شئ يفقدونه . . .

إن فى بلادنا وزارات للشئون الاجتماعية . ، وللأرشاد القومى ،

وللمعارف ، وللمساجد ، وفى كل وزارة من هذه قسم أو أقسام وثيقة الاتصال بالمسلك الخلقى للفرد وللمجتمع . ونسينا أيضاً وزارة الداخلية؛ فهل نستطيع أن نتصوّر إمكان العثور فى أى من هذه الوزارات على إحصاء واحد يكشف مثلا عن أثر حياتنا الاقتصادية فى أخلاقنا ، أو أثر حياتنا الصحية ، أو أثر حياتنا التربوية ...؟!

لا ـ وإن مجرد تصور هذا ، لأغراق فى التفاؤل غير حكيم . ! إننا نستطيع فقط أن نجد فى سجلات وزارة الداخلية إحصاء عن عدد حوادث السرقة أو القتل ، أو هتك العرض ، أو تهريب المخدرات وتعاطيها .

أما لماذا تحدث هذه الخطايا .. وفى أى الأوساط تكثر، وفى أيها تقل . ولماذا .. فشيء لا يدخل دائرة اهتمامنا وحسابنا .!!

ولقد تهتز أسلاك المسرة فى وزارة التربية والتعليم يوما ـ حاملة فى خجل محموم ، نبأ كارثة خلقية . كتلك التى كشفت من سنوات ثلاث عن عصابة فى بعض مدارسنا الراقية تقوم بتوريد بعض التلاميذ لبعض الناس .. (؟) وإذا عزّ على القارىء أن نسميهم « ناسا » ؛ فليختر لهم اسمًا مناسبا يلائمهم ويرضيه .. فماذا يحدث بعد اهتزاز الأسلاك بالنبأ الفاجع .. ؟!

لا شيء أبدا. فقد تصدر أوامر بالفصل أو الوقف أو إحالة الأمر للنيابة والقضاء . ثم ماذا ..؟ ثم تستعد الأسلاك لتلقى فواجع جديدة ، وتنام عن فواجع أكثر وأكثر. ثم أكثر وأكثر ..

هل فكرت وزارة المعارف يوما أو بعض يوم على أثر هذه الحادثة فى أن تتعقب بعين الأحصاء والبحث بواعث الخير والشر فى أبنائها . . ؟

إن أجل وأخطر فترات حياتنا لهى تلك التى نقضيها فى ضيافة وزارة المعارف وتحت هيمنتها ـ فهناك المدارس الداخلية للبنين وللبنات ... وهناك المدارس الخارجية التى تجمع فى صعيدها المتراحب خليطاً هائلا متنافراً من الميول والخصال والاستعدادات. وفى دور المراهقة يلتحم الشباب فى المدرسة التحاما حاراً مثيراً . . . فهل وضعت وزارة المعارف شيئا من ذلك موضع الاعتبار . وهل تعلم شيئاً عما يدور هناك وراء ظهرها . . ؟

وهل علم ذلك فرد أو هيئة أو وزارة من أولئك الذين وكل إليهم أمر حماية الأخلاق أو اختاروا لأنفسهم هذه الرسالة . . ؟

كلا — وما كان من اللائق بهم أن يعلموا . فهذا اللون من الاهتمام الذى يعتمد على الأحصاء واستكناه البواعث والأسباب إنما يليق بالدول المتخلفة وحدها كبريطانيا وأمريكا وروسيا . (!!)

أما مجتمعاتنا غير المتخلفة كمصر ، والعراق ، وسوريا ، والحجاز ، واليمن . . (!) فليست بحاجة إلى مثل هذا الترف العلمى ، والبحث الملحد الذى لاينسجم مع ما يجب الايمان به من أن الله قد قسم بين الناس أخلاقهم ، كما قسم بينهم أرزاقهم . . !

لشدّ ما نظلم أنفسنا ونسومها الشقوة والبوار إذا نحن أغمضنا عيوننا عن الحقائق وحرمنا منها عقول الناس .. لقد كان أئمة الدين وكبار رجاله المسئولين يذودون الناس عن التطلع إلى العدل والمساواة بقولهم : إن الله قسم أرزاقه بين العباد فمنهم غنى وفقير . . .

وكانوا يصرفونهم عن التطلع إلى حكم أنفسهم بأنفسهم بقولهم : إن الملك ظلّ الله فى الأرض وكل محاولة لخلعه أو عزله تحدٍّ لمشيئة الله الذى وضعه هناك..

أفنتركهم اليوم يقولون : إن الله قسم الهدى والضلال ؛ وإذن فلا قيمة لمحاولات العلم فى تعلية غرائز الناس وتجويد سلوكهم ..؟ أم نأخذ بعصم الحقائق، ونزرع المعرفة لكي نحصد الفضيلة ..؟؟ وبذلك نحسن أرضاء ربنا.

إن الفلسفة الجبرية الغيبية لسان حال المجتمع الاستغلالى حيث يكون ، فى الشرق والغرب .. ومنطقه هذا سلسلة من الأغاليط يأخذ بعضها برقاب بعض وتمضى نحو غاية واحدة هى الانفصال عن المستقبل .. المستقبل الذى يخافه ويرهبه لما يدخره له من قوى ستدهده وتفنيه .. وما دمنا سنربأ بأنفسنا عن أن يظل مجتمعنا كما ورثناه ، قائما على الاستغلال والتفاوت .؛ فلنطلق النفاثات المطهرة فى كل أركان المجتمع لنضع المعرفة مكان الخرافة ، والواجب مكان المنفعة ، والمساواة مكان المباراة .. وإذ كان المال هو المارد الذى يطلق شياطين الرذيلة ويغرى بها ؛ فلنضعه فى مكانه الحق ، ولنساعد أنفسنا على تقبل الجديد الصالح حتى يساعدنا الله ..

إن البشرية تسير دائما إلى الأمام فى رعاية التطور وزمالته وفى كل نقلة من نقلها تستشرف قيما ملائمة وأهدافا مناسبة .. فذات يوم من أيامها البعيدة ــ مثلا ــ كان أسمى أهدافها أن تحصل على أمير إقطاعى تلقى إليه زمامها ، وتريق فى خدمته وبين يديه جهدها وجهادها نظير حمايتها من الأغارات البربرية التى تهددها بالانقراض .. أما اليوم ؛ فالأمير الأقطاعى والأقطاع كله حيوان منقرض خلفته الأنسانية وراء ظهرها ، وانتبذت منه مكانا قصيا ..

وهى فى أخلاقها وسلوكها كذلك ، فلقد أتى عليها حين كان جمع المال من أى طريق أنبل أهدافها ، حتى لقد كانت القرصنة والقتل

والعدوان بطولة ووطنية وفضيلة.. ولكنها اليوم وقد هيأ لها التطور الصاعد منسوبا عاليا من الوعى والتجربة . قررت أن تجعل المال وسيلة لا غاية.. وسيلة للتفوق على النفس ، لا للتفوق على الغير.. وهى بهذا تشارف المستقبل وتصافحه . لكن نظام المباراة غير المتكافئة وغير العادلة يجذبها إلى وراء ويخلد بها إلى حالة آسنة من فهم عتيق..

لقد أدركت الأنسانية اليوم حقيقة المال.. وهى أنه خادم مطيع. ولكن نظام المباراة يشككها فى هذه المعرفة. ويأبى إلا أن يظل المال سيدا مستبدا وبين النظريتين المتنافرتين.. بين المستقبل الذى يؤكد أن المال خادم مطيع. والماضى الذى يخافت فى حشرجة عنيدة بأن المال سيد مستبد ، تجتاز الأخلاق الأنسانية امتحانا رهيبا وقاسيا وإذا كان هناك ما يساعدها على النجاة والفوز ؛ فهو أن يحاول كل مجتمع مهما قل شأنه وخبت إمكانياته ، أن يتصل بالمستقبل ويفتح على إشاراته الضوئية عينه وعقله وفؤاده .

إن مجتمع المباراة إذن مجتمع انفصالى. ولقد يلتحم بالمستقبل من عدة جوانب. ولكنه بأصراره على وضع المباراة مكان المشاركة يظل منفصلا عن المستقبل بالقدر الذى يربطه بذلك الماضى.. والطامة الكبرى حين تشيع روح الانفصال فى كيان المجتمع كله ، وتنحل جميع العرى والروابط التى تصله بمستقبله وتدمجه فى الموكب الأنسانى الهادر نحو الأمام . كما هو حادث فى مجتمعاتنا العربية كلها.. وإلى هنا يبلغ الحديث نقطة تصوّر حظنا الوخيم العارم من روح الانفصال عن الحياة ، وعن الأحياء.. !

مشكلة الجنس :

لم تعد العلاقات الجنسية مشكلة تشغل الألباب وتستعصى على الحلول إلا فى المجتمعات التى يقوم نظامها الاقتصادى على المباراة والاستغلال . .

وبين مجتمع المباراة ومشكلة الجنس ترابط وثيق ، وإخاء أبدى . . ذلك أن هذا المجتمع لكى يتستر على جرائمه العديدة التى يفرزها تكوينه يفتعل مظاهرات كاذبة مضللة حول شىء ما يشغل به الأذهان عن خطاياه ولما كنا نحمل استعداداً موروثاً للاحساس الحاد بالخطايا الجنسية ؛ فقد اختارها لتكون «البهلوان» الذى يشغل به حواسنا ، أو «البرفان» الذى يأتى وراءه كل موبقة وإثم . . والعجيب أن بلاد الشرق العربى قضت قرونا طويلة ولا تزال مضللة الفهم فى المسئلة الجنسية بسبب خطة ماكرة خبيثة نفذها من قديم الزمان أحد مستعمريها وجلاديها . . !

ففى القرن السادس عشر أصدر الفاتح التركى السلطان سليمان ابن السلطان سليم فرمانا أعلن فيه دستوره الأخلاقى العظيم ، وكان يتلخص فى أن كل امرأة تكشف وجهها فى الطريق العام تعاقب بأن يقص شعر رأسها ، وتمتطى حماراً « بالمقلوب » ويطاف بها فى شوارع المدينة بين تصفيق الصبية وصياح المتفرجين . . !

ولا بد أن آباءنا الطيبين قد ألهجوا ألسنتهم بالشكر والدعاء للسلطان الورع . . ومع ذلك فانظروا . إنه بنفس القلم الذى مهر به السلطان مرسوم الفضيلة هذا ، أو بنفس الإصبع الذى بصم به المرسوم .

وفى ذات اليوم ، بصم فرمانا آخر تقول مادته الأولى :

— « السلطان هو المالك الحر لجميع أرض مصر . والفلاحون جميعاً أجراء عنده وملتزمون » . . ! !

ألم أقل لكم إن ثمت ارتباطاً خالداً بين مجتمع الاستغلال وقضية الجنس . . ؟ فها هو ذا فى الشاهد الذى سقناه يبدو واضحا مبينا ـ وهو ارتباط عكسى فى سيره واتجاهه . أى أنه كلما أمعن المجتمع فى السير الظافر إلى أمام ـ أمعنت المرأة فى التقهقر الوبيل إلى خلف . . ففى مجتمع المباراة الرجعي يأخذ تقهقر الجنس صفة الانطواء والانفصال . . وفى مجتمع المباراة المتحضر يأخذ التقهقر صفة الأباحية والعربدة . .

وهكذا ، فأن عدوى الاستغلال فى مجتمع المباراة تنال كل شيء ، والمرأة أول هذه الأشياء . وهذا أثر طبيعى ؛ فمنذ أيامنا الأولى على هذه الأرض شرع آباؤنا الأقدمون جداً يستغلون الأرض ، ويستغلون المرأة . . ولذا ؛ فحيث يوجد استغلال ، يوجد إهدار أكيد للمرأة ، ويوجد بالتالى اضطراب واسع فى فهم المسألة الجنسية وفى تدبير حلولها

لقد قضى الإنسان الأول دهراً طويلا لا يعرف عن العفة ما نعرفه اليوم ولم يكن يرى بأساً فى أن تضاجع زوجته ضيفه أو جاره أو صديقه . . وإنما البأس بل الموت لها . إن فعلت ذلك بغير إذنه . . إن المشكلة تنحصر فى الإذن وعدمه . أى فى حق الرجل فى السيطرة على المرأة واستغلال هذا الحق على النحو الذى يضمن له السيادة والتفوق . .

إذا إذن الرجل لزوجه أن تضاجع ـ عمروا ـ فهذه عفة . .

أما إذا ضاجعت ـ هذا العمرو ـ من غير إذن زوجها ؛ فهذا هو الزنا . . !

ومن هنا نلمح حقيقة المؤثرات البعيدة التى لا تزال تسوق تفكيرنا نحو موقف معين من المرأة والجنس .

إنه النزوع التقليدى للاستغلال والسيطرة فالمرأة فى بلادنا الشرقية لا تزال سلعة تشترى بالمال فى صورة نكاح شرعى ، أو فى صورة سفاح محظور .

وعلى الرغم من أن الدين وضع عنها كثيراً من الآصار ، فإن المتدينين أنقضوا بالأغلال الثقال ظهرها ، وكبلوا بالقيود الشداد حياتها . . إنهم — مثلا — ليروون عن عمر أمير المؤمنين أنه قال لامرأته حين حاولت إبداء رأيها فى بعض الشئون العامة : — « ما لك ولهذا . ؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين » . . ؟!!

ونحن لا نستطيع أن نتصور رجلا فى مثل ذكاء عمر وانطلاق روحه يرسل ذلك القول . وحتى لو صح صدور هذه العبارة عنه فإنه بلا ريب لا يعنى مفهومها المتبادر ، فالمرأة فى عين الله ، وفى عين العقل لا يمكن أن تكون مجرد دمية نعبث بها ثم نلقيها فى غير اكتراث وغير مبالاة . . إنه بمثل هذه التعاليم المكذوبة المفتراة حطم المستعمرون والمتغلون روح التقدم فى الشرق ولا يزالون يفعلون . ولكننا وقد آمنا بأن المجتمع الذى يقوم على الانفصال ويفصل بين رجاله ونسائه خط من نار ومن عار ، مجتمع محكوم عليه بالانقراض ؛ فقد صار لزاما علينا أن نقترب من هذه القضية ، قضية الجنس فى بلادنا ، لنقول فيها قولا مبينا

ونحن نعلم كم هى حساسة هذه المشكلة ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فلنتقدم فى شجاعة وأمانة وتجريد ، وعلينا أن نذكر أن الأنسانية من آلاف

السنين وهى تكافح الخطيئة الجنسية بالمواعظ والزواجر ، فما يزيدها ذلك إلا ضراما .. ولطالما أذيع الخوف الدينى فى وجدانات الناس لينصرفوا عن الرذائل . ولئن كان هذا الخوف قد حقق بعض الانتصارات إلا أنه فى معظم حالاته كان يفضى إلى إحدى السوءتين

ا ــ تحدى الدين وخلع طاعته

ب ــ تحرج دينى يسوق صاحبه إلى كبت صاعق .. حتى اكتشف العلم أخيرا الوسيلة التى تبقى على الولاءين ــ الولاء للدين ، والولاء للفضيلة .. ذلك أنه رأى للأمراض الخلقية صفة جبرية . لا يفيد الوعظ فى علاجها . بل هى غالبا ما تكون ثمرة جهوده الموفقة .. (!) وازداد العلم ارتيابا فى العلاج الوعظى حين اكتشف أن أبطاله أنفسهم إنما ينهون عن الخطايا التى يكنون لها ميلا لاشعوريا . ، وأحسنهم طريقة ذلك الذى يدعو الشباب لنبذ الاهتمام بأشياء كان هو فى شبابه يحبها ويأتيها ، ويجتر ذكرياتها مع امرىء القيس حين يقول :

ألا رب يوم صالح لك منهما ــ ولا سيما يوم بدارة جلجل

ثم إن العلم لايطوف بنا حول المشكلة بل يواجهها ، فإذا كنا مصممين على المضى معه ــ وهذا ماسيكون ولو بالنسبة للمؤلف على الأقل ــ فلنحذف من قاموسنا كلمة « عيب » إن الرأى العام فى بلادنا لا يزال يشمئز من كل مصارحة تريد لتفض مغاليق المسئلة الجنسية وتحل عقدها . ويرى فى هذا ، أعنى فى تستره وفراره من المشكلة درءا لما قد تفضى إليه إثارتها من بعث للشوق الجامح والرغبات العاصية . ولكن آن لذوى هذا الرأى وما أكثرهم ، أن يتأكدا من أنهم مخطئون . فأعراضنا عن مناقشة المسئلة

الجنسية مناقشة فاهمة هادفة لن يحول بين الشباب وبين مناقشتها بوسائله الخاصة ... وإذا كان للصمت الذى يلتزمه البيت ، والمعهد ، والمجتمع إزاء الحياة الجنسية التى يتزايد إحساس الشباب بها على الأيام ، وتسبب لهم قلقا وعصابا وإدمانا.. نقول : إذا كان لهذا الصمت من عاقبة ، فهى أنه يزيد الهوة بيننا وبين الفضيلة اتساعا ، ويحرم الشباب من الفهم الذى يمكن أن يجنبه المزالق والمهاوى ولقد أدرك ذلك كثير من الأمم الناهضة ، فشرعت تلقن أبناءها الصغار والكبار ما لا بد أن يعرفوه عن الحياة كلها

وإنه لشئ يستحق الدهشة والرثاء معاً ، أن نستحي من القول ، ولا نستحي من الفعل . . !!

ولنبدأ بأن نعلم أن الفاصل بين العفة والخطيئة رقيق ودقيق حتى لنستطيع أن نحصر الفارق بين الرجل الفاضل وغير الفاضل فى أن أولهما هو الذى أتى من خطايا الجنس فى سنّ مبكرة ، ما يأتيه الثانى منها فى سن متأخرة . . أى أن الرجل غير الفاضل والمرأة غير الفاضلة ، هما اللذان وقف نموها النفسى عند مرحلة متقدمة من مراحل النمو نتيجة خطأ اقترفاه واقترفه المجتمع معهما. وعندما كان إدراك هذا الواقع إدراكا تجريبيا غير داخل فى نطاق المعرفة الانسانية رأينا معظم المحاولات المبذولة لرفع لواء العفة تذهب مع الريح . .

ماذا كانت عاقبة المواعظ التى أطلقتها المسيحية كهدير البحر محذرة الرجل من المرأة ، والمرأة من الرجل . . ؟

كانت العاقبة أن تحول النساء بادى الأمر إلى عاشقات ، أو ساحرات ، أو عذارى فررن إلى الدير . ولم تكد ساعة الزمن تدق معلنة قدوم عصر

النهضة حتى كانت الأباحية الجنسية إعصارا يهب على كل مكان . وصار البابوات والقسيسون على رأس أئمة العربدة وأقطابهـا ، وكما يقول « روفائيل سبتيني » . .

— «أضحى ذلك العصر عاجزاً عن التمييز بين القديسين فى الكنيسة ، والعاهرات فى المدينة ، فسوى بينهما فى التبجيل والتعظيم » . . ! — بل لقد بلغ من افتتان الناس بالفوضى الجنسية أن احتفلت روما المسيحية عام — ١٥١١ — احتفالا مهيبا حفظه التاريخ وتحدث عنه بجنازة إحدى العاهرات . وصمم شعب روما على أن يدفن فقيدته العزيز فى كنيسة القديسة « جرجويا » ونقش على قبرها :

— « هنا جثة العاهرة الرومانية العظيمة التى نالت ما تستحقه من الشهرة الواسعة لأنها كانت مثالا للجمال قلّ أن يوجد له نظير » . . !!!

ثم ماذا حدث عندما ظهر — سافونارولا — فى فلورنسة و — كلفن — فى جنيف ، و — المطهرون — فى انجلترا ، واتفقت دعواتهم على أن الطريق إلى الفضيلة والعفة هو أن تعزل المرأة عن المجتمع وتقبع فى زاوية مظلمة من زوايا بيتها . . ؟

حدث تخدير وقتى ، عادت الأباحية بعده إلى الظهور وانقضت الجماهير على نبى العفة والفضيلة — سافونارولا — واضرمت النار فى جثته الطاهرة . . وسقطت حكومة المطهرين فى بريطانيا . . ولم تستطع تعاليم أىّ من هؤلاء سافونارولا ، وكلفن ، ولوثر ، وسواهم أن تهتدى إلى حل موفق سعيد للمشكلة الجنسية العتيدة .

ولقد حدث فى الإسلام رد فعل مشابه لهذا الذى حدث فى المسيحية . .

فمن منتصف القرن الثانى الهجرى إلى منتصف القرن الخامس جاوزت الأباحية نطاق الرشد وراجت عادات الشذوذ رواجا وبيلا ، وشربت الخمر بديل الماء ، وكان بعض خلفاء العباسيين هم الرواد فى هذا الطريق . حتى لقد أباح أحدهم وهو الهادى شرب الخمر . ورنا الأدب الجنسى ببصره المتطلع نحو خصور المردان وخدودهم وقدودهم يتغزّل بها، ويدندن حولها..! ومن الطرائف التى لا أكاد أنساها . « لامية ابن الوردى » . . وابن الوردى هذا رجل فاضل نظم قصيدة شعرية طويلة ينهى بها عن الاثم ويدعو إلى الصلاح . وفيها يقول :

واترك الخمرة إن كنت فتى — كيف يسعي فى جنون من عقل

واله عن آلهة لهو أطربت — وعن الأمرد مرتج الكفل

إن تبدى أشرقت شمس الضحى — وإذا ما اهتز يزرى بالأسل

أية علاقة بين النهى عن الشغف بالفتى الأمرد ، وبين التغـــزل فيه والتلمظ بمحاسنه كما فعل ابن الوردى الذى نسى أنه يعظ واسترسل فى وصف يكاد ينطوى على فتنة وتحريض . . !!

وإلى أى مدى كان الحديث سينتهى لو أن صاحبه رجل آخر ، ليس له فضل ابن الوردى وورعه وعزوفه . . ؟ !

إن المجتمع الانفصالى الذى يضرب بين الجنسين بسور غير ذى باب ، لم يكن قط ، ولن يكون أبداً الطريق الصحيح لعفة باقية الدوام . وإذا هو أفلح فى صرف أفراده عن التطلع إلى الجنس ؛ فانه فى ذات الوقت يدفعهم بكلتا يديه إلى التطلع للمثل . . إلى الانحرافات المدمرة العاصفة . هكذا

يحدثنا التاريخ منذ بدأ يرصد ظواهر تطور البشرية الاجتماعى . وإذا لم نثق بالتاريخ ؛ فلنلق نظرة على ما حولنا . .

سنجد بعض البلاد التى بالغت فى الأخذ بالعفة حتى ضربت حجابا كاملا على المرأة ولم تجعل لها نافذة تصلها بالحياة سوى ثقب صغير فى نقابها مواز لعينها تبصر به الطريق . . ! !

سنجد الشذوذ الجنسى فى هذا المجتمع العريق فى الانفصالية تبلغ نسبته ٨٥ ٪ بين الرجال ، و ٦٥ ٪ بين النساء . . !

وسنسمع الأنباء المتواترة عن بعض الشخصيات الكبيرة التى تقضى سهراتها الضالة مع الغلمان المخطوفين . . ! !

وسنسمع قصة كبير من العلماء وقد جاءه الشرطة بولده وابن أخيه مضبوطين فى حالة انحرافية شاذة . فما إن علم ذلك حتى إنتفض انتفاضة الشاكرين وقال :

— « ابردى . . حسبتهم طابمين بالتتن » . ومعنى هذه العبارة هو — « الحمد لله . حسبتهما ضبطا يشربان الدخان . . ؟ ! !

أى أن تدخين التبغ فى هذا المجتمع الانفصالى أبهظ وزرا من الشذوذ الجنسى . !

وسنسمع أيضا من أنباء المجتمع المذكور — ودعونا نسمه مجتمعا من باب التسلية — سنسمع عن فتية أطهار كونوا جماعة لحماية الأخلاق غرضها الأساسى مكافحة الشذوذ ، واتخذ أعضاؤها ناديا عام — ١٩٥٠ — الميلاد

ولكن كبار رجال الدين هناك حاربوا الجماعـــة واستصدروا من الحكومة أمراً بأغلاق النادى . . ؟ !

وسنسمع فى الجانب المقابل ، عن ذلك الأمير الفاضل المستقيم الذى طالب بتعليم الفتاة فى بلاده ، وتغيير الأوضاع وطبع رسائل تنتظم دعوته وحجته فصودرت.. والعجيب أن هذا الرجل الذى يكاد يكون وسط بيئته الكبيرة ، الشاذة كصالح فى ثمود . . أو كالمسيح بين اليهود يطلق عليه لقب « الأمير الموسوس » . . ! !

وسنظل نسمع ، ثم نسمع حتى نقتنع إن كنا من بنى آدم بفساد المجتمع الانفصالى حيث يكون ، ونقتنع بعجزه المطلق عن حفظ الفضيلة ، وصيانة العفة ، وتهذيب السلوك .

الكبت حرب أهلية . .

والمجتمع الانفصالى يعيش فى ذعر دائم موصول من الخطيئة الجنسية . ولكن ذعره هـــذا لا يحول بينه وبين شر ألوان هذه الخطيئة وأعتى موبقاتها ـ ألا وهو الكبت .

أجل ، فمحاربة الرذيلة الجنسية بالكبت تساوى تماما ـ إطفاء النار بقاذفات اللهب . .

والكبت كما نعنيه وكما يعنيه العلم هو إغلاق باب النمو الخلقى أمام المراحل الوافدة من حياتنا وتطورنا ـ ذلك أن للانسان منا فى كل مرحلة من مراحل عمره ميولا خاصة وأخلاقا خاصة فاذا وفق لأشباع كل طور من هذ الأطوار اشباعاً لائقاً متوافقاً فان حياته تظل بمنأى عن العواصف

والانحرافات . وأما إذا خضع لمؤثرات ما دينية ، أم بيئية ، وحرم نفسه من أن تنال حظها من التعبير السديد ، والتوافق الرشيد ، فأن حياته تتعقد ، ويظل هناك طائف ملحّ ينادى بالثأر للمرحلة التى ضاع حقها والطبيعة التى عطلت مشيئتها .

ولقد سأل سائل العلامة « هادفيلد » أو بتعبير أصح . افترض « هادفيلد » وجود سائل يسأله :

— « هل إذا بدت لعقلى رغبات شريرة يجب على أن أتقبلها ولا أوصد الباب دونها » . . ؟ ؟

وأجاب « هادفيلد » إجابة تفيدنا فى هذا المقام فلنقرأها معه :

— « إن حياة الإنسان تتألف من عدة أطوار . كل منها يبلغ تمام النموّ ثم يموت مخليا مكانه للطور التالى . ؛ فالرضاعة والطفولة والمراهقة ، والبلوغ ، والرجولة ، والكهولة ، والشيخوخة — كل من هذه لها سيكولوجيتها المميزة التى تعلو كالموجة إلى قمتها ثم تهبط إلى قاعها مضحية بنفسها للموجة التالية . .

«وفى تطوّر الجنس ظهرت الغرائز واحدة بعد واحدة لتواجه المطالب الخاصة الجديدة للحياة . وكل غريزة توجد فى كل فرد عند الولادة . ولكنها تظلّ كامنة حتى تدعى إلى القيام بدورها على مسرح الحياة . وتتميز كل فترة من الحياة فى طور سيطرتها بظهور نزعة غريزية تسود حياة الفرد . وعند انتهاء فترتها سواء أ كانت قد تطورت تطوراً ناجحاً أم ظفرت بشىء من التعبير الجزئى فحسب ، يكون عليها أن تترك مكانها للغريزة التالية لها فى الظهور ، والتى تلحّ فى الأفصاح عن نفسها . وبين كلا الطورين من

الحياة ولادة جديدة يموت فيها القديم وينبعث الجديد إلى الحياة . وفى كل بعث يتجدد شباب النفس كالزهرة الذابلة التى تستحيل ثمرة غضة . ولكن العبور من الطور القديم إلى الطور الجديد لا يكون بطريق الكبت . إذ أن كل غريزة فى دورها إذا عبر عنها تعبيرا سويا فأنها تندمج فى الذات مساعدة على بنائها وتنظيمها تنظيما صحيحاً . وبهذه الطريقة تصبح كل غريزة محولة نحو موضوع أخلاق بالذات المتطورة . وقد يوجد فى كل دور انتقال عندما يمرّ طور ويأتى الطور التالى اضطراب فى السيكولوجية إن لم يختم بنجاح ؛ فقد يؤدى فى السنوات التالية إلى انهيار أو عصاب يحتاج إلى علاج خاص بالتحليل وإعادة الوصل والأعلاء » . .

* * *

إن هذا العرض الوثيق يدعونا لأن نستهجن كل المخاوف الباطلة التى تحملنا على إساءة الظن بطبيعتنا . فهذه غرائزنا تظهر ظهورا متساوقا . وها نحن أولاء نبعث أكثر من مرة خلال رحلة النماء التى نجتازها . وكل بعث يحمل لنا تجديدا أكيدا . وإذن فالتعبير السوىّ عن الغريزة التى تؤدى دوها لن يحول بين النفس وفضائلها . بل هو على العكس يمكنها من هذه الفضائل . لأن هناك غريزة أخرى سيأتى دورها الذى هو فى حقيقته تتمة لعمل سابقتها .. فغريزة الجنس ـ مثلا ـ تظهر فى سنّ معينة . والتعبير السديد عنها يقتضينا أن نتجاوب تجاوباً طاهراً نظيفا مع الفتاة التى نحبها . وستزورنا بعد ذلك فى سنّ تالية غريزة أخرى . كغريزة الأمومة بالنسبة للفتاة . فإذا جاءت بعد وقد استوفت الغريزة السابقة حظها من التعبير والتحقيق فإن عواطفها ستتحول تلقائيا نحو الغريزة الجديدة

وتضع نفسها فى خدمتها . بل وتندمج فيها وتتحلق عواطف الحب جميعا حول الحياة الزوجية وتضىء كالمصابيح حياة الأسرة بما فيها من أبوة وأمومة ـ والويل لنا حين تجىء غريزة ؛ فتجد سابقتها فى قتال دام حول حقوقها . أو تجدها وقد أعياها الصراع ولوى زمامها الكبت قد تركت نفعالها الخاص بها يتربص بنا الدوائر ، ويقطع الطريق على الغريزة لوافدة . وبهذا نقف عند هذه المرحلة من حياتنا . ولقد يبلغ أحدنا سن الثمانين ، ومع هذا يظل مراهق التفكير . مراهق الشعور . .

ولقائل أن يقول . هناك كثيرون ممن سمحوا لغرائزهم الجنسية فى شبابهم بما تشاء وأكثر . . ثم تزوجوا فما عرفوا للزوجية حرمة ، ولا وجدوا للعفة سبيلا . . ؟

ونرد على هذا القول . بأن هؤلاء هم أيضاً ضحايا الكبت . .

ذلك أن التعبير عن الغريزة الجنسية لا يكون بالعربدة ، والمروق من الاحساس الخلقى . وإلا فر فاعل هذا من كبت إلى كبت . . فالغريزة الجنسية جزء من طبيعتنا ، والأحساس الخلقى كذلك جزء من طبيعتنا . . أجل ، إنه كالجنس ، وكالمقاتلة ، وكالخوف . وكما أن إسرافنا فى الاستجابة للاحساس الخلقى يفضى إلى كبت انفعالاتنا الجنسية ، كذلك إسرافنا فى الاستجابة لغريزة الجنس يفضى إلى كبت إحساسنا الخلقى . . وكلاهما تعطيل للحياة ودمار

وإذن فالسبيل الحق هو ـ تحقيق الذات ، أى التعبير الفاضل المتناعم عن كافة ميولها الأساسية . وسنتحدث عن طريقة هذا التعبير فى الفصل القادم إن شاء الله . ولكن دعونا الآن نرسم صورة كالحة بيد أنها صادقة

لآثار الكبت فى أخلاقنا وفى سلوك مجتمعنا .

وقد يسأل سائل : ـ هل فى المجتمع المصرى كبت . . ؟ ونجيب على هذا السؤال بسؤال آخر هو : ـ مانوع المجتمع المصرى .. هل هو مجتمع انفصالى . . أم مجتمع اختلاطى . . ؟ ؟

وبمثل هذا يسأل عن كل المجتمعات التى تجاورنا كالعراق والحجاز واليمن وسوريا . . ولا أحسبنى بحاجة إلى التدليل على أن هذه المجتمعات كلها مجتمعات انفصالية ـ وهذه النثارات التى نراها فى المدن لا يمكن أن تخدعنا عن الحقيقة الماثلة فى صعيد مصر وريفها . . إن الاختلاط فى القرية المصرية من حظ فقرائها ودهمائها ورعاعها .. أما الأسر الكريمة الكبيرة كما تنعت نفسها، وكذلك الأسر الوسطى التى تحاول التشبه بها . فالاختلاط عندها عمل مسقط للمروءة .. !!! فإذا ولينا وجوهنا شطر الوجه القبلى وجدنا حجاباً أصدق ما يوصف به أنه حجاب الأساطير . . وفى المدن انفلتت من القيود الظالمة أقلية ضئيلة لا تستطيع أن تنفى عن مجتمعنا صفة الانفصالية وسمتها . كما أن كثرة من هذه الأقليه أساءت إلى الاختلاط بما سلكته من إباحية ، وما اقترفته من تهتك . .

فمجتمعنا إذن مجتمع انفصالى ، وبالتالى فهو مجتمع يشيع فيه الكبت ، وما يستتبع الكبت من آثار .

والآن ؛ ما الآثار التى يخلقها الكبت ويفضى إليها . . ؟

إنها كثيرة وخطيرة نبصر منها دائماً

ا ـــ عشق الذات أو العادة السرية

ب ـــ عشق المثل ، أو الشذوذ الجنسى

ج — أمراض النفس ، كالقلق ، والعصاب،والانحصار ، والجنون ..

إن عشق الذات يروج بين شبابنا رواجا وبيلا وقبل المضي فى هذا الحديث أعود فأؤكد للمحافظين الخجولين أن ليس فى حديثنا الصريح هذا ما يجرح حياءهم ، وإن كان هذا النوع من الحياء لا يستحق مبالاة ولا يستأهل اهتماماً — إنه من ذلك الحيـاء الذى عبر عنه مؤلف « رواية بلا بطل » إذ يقول على لسان أحد أشخاص روايته :

— « إن سيدتى المركيزة تستحى أن تلفظ كلمة سراويل مع أنها تراها كل ليلة على أجسام الرجال من الجيران الذين يهبون من نومهم مذعورين ويأتون ليفضوا عراكها مع سيدى المركيز » . . ؟ !

أجل ، وما أكثر الذين يشمئزون من الصراحة التى يتناول بها العلم وقائع الجنس ، مع أنهم غارقون فى مشكلاتها إلى الأذقان . .

قلنا إن عشق الذات ، أو العادة السرية فى رواج عظيم بين الشـباب من مختلف الأوساط والطوائف .

ومن بين — ٢٠٠ — طالب،وجدنا—١٧٥—طالباً يمارسونها بانتظام ..

ومن الـ — ١٧٥ — وجدنا ، — ٨٥ — يأتونها كل يوم مرة ، أو مرتين ، وأحياناً فى الفصل أثناء تلقى الدروس . .

ومن هؤلاء الـ — ٨٥ — الذين يبعثرون قواهم ، ويهرقون على الأرض ماء الحياة ، وجدنا — ٤٥ — من متوسطى الحال ذوى التغذية العادية . ، أى أنهم لا يستطيعون تعويض ما يفقدونه كل يوم من دمائهم وأعمارهم ..

ولقد أجرينا نفس الاختبار فى أوساط العمال؛ فاستخلصنا الأرقام التالية:

من بين — ١٥٠ — عاملا ، وجدنا — ٥٥ — يمارسونها بانتظام وكلهم أصحاب مستوى غذائى ردئ

وقد لاحظنا أن ممارسة هذه العادة بين العمال أضعف منها بين الطلاب . . ولما تعقبنا أسباب ذلك وجدناها متمثلة في المخدرات . . إنها أقرب منالا للعامل منها إلى الطالب . وفي غيبوبتها اللذيذة والمسمومة يسري أكثر العمال الذين لم يتزوجوا عن أنفسهم ، ويفصحون عن كبتهم.. وسبب آخر هام ، هو سهولة الاتصال الجنسي المحظور في الأحياء الشعبية التي يسكنها العمال ، وجرأتهم أكثر من الطلاب على ارتياد بيوت البغاء السري التي يجيدون معرفتها ، بل ويشترك بعضهم أحياناً في إدارتها . .

فمثلا من هؤلاء الـ -١٥٠- عاملا الذين وضعناهم تحت عين الأحصاء ، ويلاحظ أنهم جميعاً من غير المتزوجين وجدنا - ٨٥ - عاملا لهم نشاط جنسي محظور . مع نساء متزوجات ، وفتيات أبكار . منهم - ١٥ - يتركون هذا الأمر للصدفة . . وبقيتهم وهم - ٧٠ - يرسمون له الخطط ، ويجعلون من هذا النشاط عادة ثابتة وسلوكا دائما . . ولقد تعقبنا عشق الذات هذا ، أو العادة السرية كما يسميها الناس بين المتزوجين - ولم يكن بوسعنا أن نقص أثرها في أكثر من - ٢٠ - زوجاً ؛ فوجدنا ما يأتي :

- ٣ - يمارسونها في الحالات التي لا تسمح بمضاجعة الزوجة ، كأن تكون في مرض طال أمره ، أو يكون أحد الزوجين على سفر بعيد . .

- ٥ - يمارسونها باستمرار معتذرين عنها بأنها عادة تشبثت بهم من سني المراهقة والبلوغ . ولم يعد في وسعهم نسيانها . .

ولقد يضحك من هذا الإحصاء المتواضع أولئك الذين تعودوا أن يطالعوا الإحصاءات ذوات الأرقام الطويلة التي تنتظم الآلاف والملايين . . ولكن عذرنا ، أنه مجهود فردي . . ومجال الإحصاء والبحث كما

رون شائك ودقيق . ثم إننا لم نهتم أثناء بحثنا هذا الموضوع إلا بالوصول إلى إحصاء رمزي يشير إلى الحالة دون أن يستوعبها . وحسبنا أننا حرصنا أبلغ الحرص على التأكد من صدق النتيجة فى جميع النماذج التى كانت موضوع البحث والإحصاء . .

والآن ، ننتقل إلى مرض آخر وبيل يثمره الكبت وينشر سوآته ـ ذلكم هو الانحراف

ولكن قبل هذا نريد أن ندعم فى وعى القارىء قضيتين هامتين :

ـ أولاها ـ أن الكبت موجود فعلا فى مجتمعنا رغم المظاهر الخادعة التى نجدها وراها . إنه موجود فى دمائنا وأعصابنا . وهو تركة القرون الغابرة لنا جميعاً . والكبت الجنسى بصفة خاصة لا يزال يملأ وعينا ، ومشاعر الحجاب ونظام الحريم لا تزال ترهق وجداناتنا ـ ولا يزال كثيرون من المتحررين يجدون حرجا وحياء إذا هم زاملوا فى الطريق العام زوجاتهم أو أخواتهم ، أو حتى أمهاتهم . .

وهناك حجاب نفسى متسدل على عواطف شبابنا . حتى أولئك الذين ينشئون فى أسر متحررة . . ولا تزال هذه الكلمات ـ « العيب . . التقاليد . . الحرام » وحوشاً تفترس حرياتنا وسكينة نفوسنا

القضية الثانية ـ هى أن الانحراف لا يكمن خطره فى تدمير أخلاق ضحيته وحسب ، بل ويهدد سلامة الأمة كلها . . أجل يهدد سلامة الأمة من وجوه كثيرة منها أمنها الدولى ، ومصالحها السياسية .

ولقد اكتشفت أمريكا بعد الحرب أن جميع الأمريكان الذين عملوا لحساب الجاسوسية الألمانية ـ إلا قليلا منهم ـ كانوا من المرضى بالانحراف

الجنسى مماجعلها تعنى بتطهير وظائفها الهامة من هؤلاء الصابين..،وقد تثير هذه النقطة سؤالا هو :

— من أين لبلاد كالولايات المتحدة مثل هذا السوء وليس بها كبت ولا حجاب . . ؟

والجواب : بل هنالك كبت محقق . ، ذلك أن الكبت كما ذكرنا من قبل لا يكون بقهر الغريزة الجنسية فحسب . ، بل ويكون بقهر الحاسة الخلقية أيضا . . ولقد كبت المجتمع الأمريكى الحاسة الخلقية حين ترك غرائزه الجنسية تقطع طريق الشهوات عدواً ووثبا . ويصوّر هذا الانطلاق المسعور «شاهد من أهلها » — تلك هى الكاتبة اللبقة ، والسيدة الأمريكية الفاضلة — مرجريت بانتج — *التى كتبت فى مقال واسع نشرته لها مجلة المختار عام — ١٩٤٧ — فقالت :

— « .. نحن نعلم أيضا أنه تسجل فى الولايات المتحدة أسماء ٥٠٠٠٠ أم لا زوج لها فى كل سنة . ، وأن كثيراً من أمثالهن لا تسجل أسماؤهن لأنهن يجدن من المال أو الجاه ما يعينهن على التخلص من تسجيل أسمائهن ، وأن كثيراً من عقود الزواج قد تبين فيما بعد أنها تمت بعد الحمل (من سفاح) وأن أساليب ضبط النسل والأجهاض تمنع ظهور الأمومة فى كثير من العلاقات غير المشروعة . . .

ثم قالت :

— « . . وتدل الأرقام دلالة لايتطرق إليها الشك على أن هناك عددا هائلا من النساء يلجأ إلى من يزاولون الأجهاض . . ومن هؤلاء تفيض أرواح عشرة آلاف فتاة وسيدة فى كل عام على يد الذين يزاولون الأجهاض » . .

إذن فهناك حرية تشبه الفوضى للعلاقات الجنسية ، ومن الضرورى أن يقابل هذا كبت للحاسة الخلقية ، وهذا الكبت بدوره يتحول إلى طاقة عمياء توجه الشخصية الإنسانية وجهات ضارة كثيرة ومنها ذلك الانحراف . على أن الإصابات بهذا المرض الخلقى فى بلد كالولايات المتحدة على كثرة سكانه ، لن تبلغ معشار الإصابات فى بلد كالبين على قلة أهله وساكنيه . كما أنها بقايا محتومة للمجتمع الانفصالى القديم فى أمريكا . ، ومن هنا ندرك أن أكثر المنابع تدفقا بهذا المرض هوالمجتمع الانفصالى الذى يسدل الحجاب ، ويكبت الغريزة ، ويفرّ من اختلاط كريم فى الضوء . . إلى سفاح ذميم فى الظلام . . . ! !

والآن ، وبعد أن وضعنا القضيتين السالفتين أمام الأنظار والبصائر نعود إلى عرض الخطر الثانى الذي يضرب به الكبت مجتمعنا فى صميمه . ونبدأ هذا بسؤال نطرحه :

— ماذا يفعل فتى أو فتاة انبثقت فيهما غريزة الجنس ، ودقت الأجراس معلنة عن قدومها ، ومطالبة بحق الضيف من زاد ومأوى ..؟؟ أندعو الفتى للزواج . . ؟ إن هذا غير ممكن . ؟ فغريزة الجنس تظهر فى الخامسة عشرة تقريبا . والفتى فى هذه السن لا يستطيع أن يعول نفسه ، فضلا عن أن يعول زوجة وولدا . . ثم إن هذه السن المبكرة لا تمكنه من الاختيار الصالح للزوجة المناسبة . والفتاة أيضا ليس من الخير أن تتزوج فى سن مبكرة كالخامسة عشرة . وإن فعلنا وقعنا فى الويلات الكثيرة التى يقع فيها المجتمع الهندى بسبب أخذه بهذه العادة مما جعل « نهرو » يعبىء كل قواه لمكافحة الزواج المبكر الذى يفضى بمعظم الفتيات إلى الموت ، أو الجنون ، أو الانتحار غرقا فى المياه المقدسة . . ! !

أم هل نشغل وعى الفتى والفتاة بالأحاديث الساحرة الخلابة عن نابليون ، وجنكيزخان ، وجان دارك ..؟ لكن ذلك أيضا عديم الجدوى فالغريزة لا تخدع . . وتعليتها يجب أن تتم داخل نطاقها هى ، وتشبع احتياجاتها هى . . وبطولة نابليون ، وجنكيزخان ، وجان دارك ـ قد تصلح وجبة شهية وطعاما دسما لغريزة المقاتلة ، وليس لغريزة الجنس . .

هل ندعوهما إلى الجوع والصوم . . ؟ إن ذلك هو الكبت بعينه . ولعل الرسول عليه السلام كان يعبر عن نصح غير ملزم حين قال :ـ « . . من لم يستطع الباءة ؛ فعليه بالصوم فأنه له وجاء » مثل نصحه الذى أبداه لأصحاب النخيل حين مرّ بهم وهم يؤبّرونه ؛ فقال :ـ « لو تركتموه بغير تأبير لصار أكثر وأوفر » فلما تركوه كما أشار الرسول لم يحمل ولم يثمر ؛ فقال عليه السلام حين أخبروه بهذا ـ « أنتم أعلم بشئون دنياكم » . . .

بقى أن يدخل الفتى والفتاة ديرا يترهبان تحت سقفه حيث تغمرها عدوى الزهد والورع من الأتقياء والناسكين . . ! ـ لكن ذلك أيضا لن يغنى شيئا ، ولو كان الفرار إلى الناسكين نافعا ، لكان أولى بهذا الانتفاع امرأة نوح وامرأة لوط . .

لقد كانتا تحت سقف واحد مع نبيين صالحين ، ورسولين كريمين ، تتلى عليهما آيات الله ، وتسمعان حفيف أجنحة الملئكة ومع هذا ؛ فقد ضربهما الله مثلا ذميما وقال فى قرآنه الحكيم :

ـ « . . كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما . . فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

ولعل قائلا يقول : ـ إذن فأنت تريد لهما الفسوق والانحلال . .

وأجيب فى طمأنينة وثقة : كلا . ، ولن أدعو إلى الفسوق أبدا ولن أراه إلا دمارا ووبالا .. وعند ما أعرض مقترحاتى فى الفصل الأخير - كما وعدتكم فى مقدمة الكتاب ـ سترون أننا لا نريد سوى الفضيلة المتألقة الواعية الباقية . ولكن دعونا أولا نبصر العلاقة القائمة بين الكبت وما يقع بين شبابنا وكهولنا من انحراف .

لقد وضعنا تحت عين الإحصاء الفاحص خمسة وسبعين ومائة من الذكور . منهم الطالب ، والعامل ، والموظف ، والشاب ، والكهل .

ثم فحصنا إحصاء آخر قوامه ثلاثون سيدة وفتاة . وسأعفى القراء من ذكر النتيجة العددية للحالات المريضة فى هذا العدد الذى تضمنه الإحصاءان . مكتفيا بالكشف عن السبب الحقيقى الذى وجدناه كامنا ورابضا وراء هذه الحالات ـ وإنه ليتلخص فى هذه العبارة «ازدراء الصيحة الأولى» .

ونعنى بهذا ، إهمالنا غريزة الجنس عند قدومها . وعدم تهيئة الجو المناسب لاستقبالها . وذلك باتخاذ موقف سلبي يتمثل فى إهمالها ، أو موقف إيجابى يتمثل فى محاذتها وكبتها .

من كان يظن أن تقوم « جارسونيرات » خاصة للمنحرفين . . ؟ !

ومن كان يظن ..، ولكن لا ؛ فليس الكتاب سجلا لهذه المثلات وحسبنا أن نقرر فى مثل يقين المرسلين أن الكبت ، هذا الابن الشرعى لكل مجتمع انفصالى ، هو المسئول الأول عن كل ضلال جنسى

إن الصحف تنشر كل يوم فنونا وألوانا من الفضائح الجنسية ونحن

عر بها دون أن نقف أمام بواعثها وعوامل التحريض عليها ، ونكتفى بأن نعزو ذلك كله فى سذاجة مريحة إلى الاختلاط . .

أصحيح هذا . . ؟ — لقد فحصنا فى دقة وطول أناة أسباب السلوك الضال" لخمس عشرة امرأة من اللائى يمارسن البغاء السرى . . بعضهن يمارسنه بموافقة المسئولين من العشيرة والأهل . . وبعضهن يمارسنه خفية ، والأزواج لا يعلمون . . وقد وجدنا من بينهن تسع نسوة نشأن نشأة محافظة ، ولم نجد منهن واحدة كان الاختلاط سبباً فى انحرافها . . ليس معنى هذا أننا ننكر أن الاختلاط غير المهذب ، وغير الهادف يثمر بعض الموبقات . ولكننا ننكر ، وننكر بقوة أن يكون المجتمع الانفصالى هو الوعاء الحق للعفة وللفضيلة .

ذات مساء ، وفى فضاء واسع يقع فى مكان ما بالعباسية علمت أنه مرتع لطلاب اللذة الرخيصة ، رأيت منظراً تناهى فى البشاعة والسوء . . وإنى لأعلم سلفا ، أن القراء لن يستطيعوا تصديقه ، وأعذرهم فى هذا . . . رأيت امرأة أسندت ظهرها إلى جدار يسور هذا الفضاء ، وقد تحلق حولها ثلاثة وعشرون رجلا ، زادوا فى خمس دقائق إلى ثلاثين . وقفوا جميعاً يتناوبون الخطيئة الجنسية مع تلك المرأة الواحدة لقاء قرشين اثنين.. ولقد اخترت أحد هؤلاء بعد أن قضى وطره وهم" ليغادر المكان. وأنشأت معه محادثة قصيرة أنقلها الآن بالنص الذى سجلنها به ليلتئذ . وكل التعبير الذى سيطرأ عليها هو نقلها من لغة عامية إلى عبارة فصحى .

— أنا — كيف تحتمل المرأة كل هذا العذاب . . . ؟

— هو — لو كان عذابا ما احتملته .

— أنا — ألا يخاف هؤلاء الناس الأمراض السرية . ؟

— هو — هذا شيء يذهل فيه الإنسان عن كل العواقب . .

— أنا — . . أنت مثلا لا تخاف على صحتك وشبابك . . ؟

— هو — كن مع الله . . . !!

— أنا — لكن الله فى هذه المسائل لا يكون مع أحد . .

— هو — وماذا نصنع .

— أنا — تزوج . .

— هو — بعد أن أطلق قهقهة عالية ، أنا متزوج . .

— أنا — منذ كم . . ؟

— هو — منذ خمسة أعوام . .

— أنا — وماذا - إذن - يلجئك لهذا الطعام الحامض . . ؟

— هو — مزاج . . مزاج . .

وانهيت المحادثة بعد أن وجدت الكلمة التى أبحث عنها

- مزاج ، مزاج . . (!!)

هذا رجل متزوج ، وحتى لو كانت زوجته مستوردة من حديقة الحيوان ؛ فأنها ستكون أوضأ وأنظف من هذه التى رأيتها ، والتى ولغ فيها من الوالغين . ومع هذا فأن فى داخله طاقة خبيثة شريرة رعناء لا يطيب لها الانطلاق إلا فى الظلام . . إنها انفعالات كبت كامن فى أعماقه ، جاثم على عزمه ، ذلك الذى يسميه - المزاج . .

وإنها لحشود هائلة . . هائلة جدا ، تنتظم من الناس من يحملون هذا المزاج . . هذه الطاقة الثعبانية المظلمة التى سببها لهم كبت قديم أو حديث ،

ولكننا لا نعرفهم لأنهم يتوارون عن الأنظار . وكأىّ من رجل معروف بين قومه بالتقوى والورع ، وكأىّ من امرأة كذلك ، لم ينكشف «مزاجهما» المخبوء إلا بعدأن أزاح سوءحظهما عنهما الستار . ونحن نشير بهذه الكلمات لحوادث وقعت فعلا ، وملأت الصحف بها أنهاراً وصفحات . . .

* * *

وحين نجاوز هذه الآفة التي يثمرها الكبت إلى آفة ثالثة أنجبها نجد نفس الطامة الكبرى التي وجدناها فيما سلف . ونعنى بهذه الآفة أمراض النفس . .

لقد انفقت ثلاثة أشهر محاولا العثور على إحصاء رسمى واحد يكشف عن صلة الأمراض العقلية بالكبت الجنسى ؛ فلم أجد سوى بعض الضحكات الهازئة ، واللفتات الساخرة من الذين كنت أتوجه إليهم برغبتى وطلبى .

وأخيراً لجأت إلى طبيب فاضل يستقبل فى عيادته ضحايا الأمراض النفسية والعصبية ، فأكد لى أن ــ ٥٠٪ ــ من الشباب المتردد على عيادته ترجع أمراضهم إلى عقد جنسية . . وأن ٦٥٪ ــ من الشيوخ الذين جاوزوا سن الأربعين ، ضحايا كبت جنسى قديم . .

ثم قال لى : هناك ظاهرة أوخم من هذا . وهى أن قرابة ــ ٩٠٪ ــ من سكان القاهرة مجانين . . وربما نستطيع أن نقيس على القاهرة كافة مدننا وعواصم مديرياتنا . ، وقبل أن أتلهف على مزيد من الإيضاح استطرد يقول : ذلك أننا نظن أن المجانين هم أولئك الذين استضافهم مستشفى الأمراض العقلية ــ ولكن لا ؛فالجنون فنون . والقلق العصبى،

والانحصار النفسى، وكل اضطراب فى الحياة الانفعالية ، بداية تعسة لجنون أكيد . . وقال : إننى فى تقديرى الخاص مطمئن إلى أن أسباب ما أسميه « المغص الانفعالى » وأيضاً أسباب « الانحراف السلوكى » ترجع فى مجتمعنا بالذات إلى سببين

(١) — الكبت الجنسى . .

(٢) — الفراغ النفسى . .

ثم قال : إن الكبت ، وهو طاقة متمردة ضلت طريقها الصحيح يجعل من الانفعالات الرديئة لضحاياه عصابات خارجة على القانون ، وعلى العرف ، وعلى كل شئ له قداسة واحترام . .

الحق أن إغلاق الأبواب على طبيعتنا وسجنها داخل أسوار الحرمان والكبت ليس عملا ضاراً فحسب . بل ومفلس أيضاً . . . واقتلاع غرائزنا الراسخة محاولة ساذجة وخاسرة معاً .وها هى ذى شهقات باكية ، وصرخات واشية . تنبعث من أرض المعركة التى أفنى المتصوفون عليها حياتهم ، يوم أعلنوا على غرائزهم حرباً مبيدة ، ومع ذلك بقيت الطبيعة الإنسانية ملء نفوسهم تبدى عن نفسها ، وتعبر عن سلطانها فيما يناجون به ربهم من ابتهالات وضراعات

فهذا إمام من أئمة التصوف الأجلاء تدركه منيته ، ويريد استخلاف أحد أبنائه ليقود التلاميذ إلى الله . وليجلس على عرش الحب الإلهى مكان الشيخ الذاهب مع الموت فيقول فى هذا المقام : —

أهيم بليلى ما حييت فإن أمت

أوكل بليلى من يهيم بها بعدى

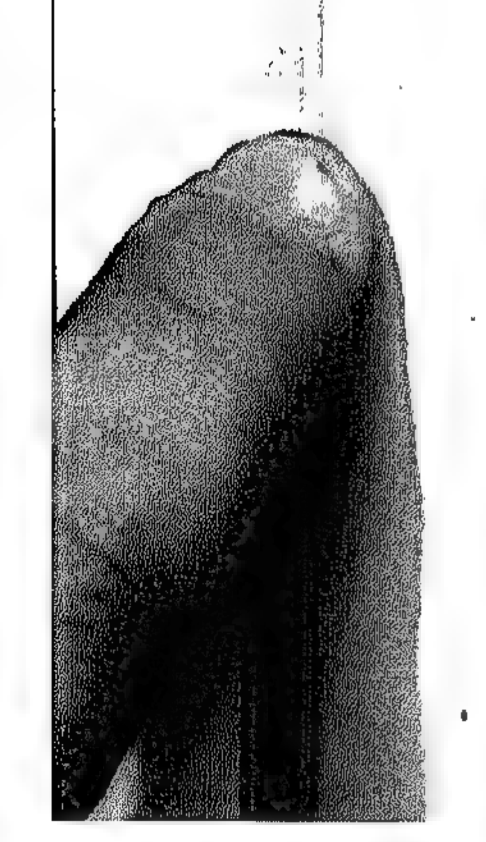
ويحدثنا « ابن عجيبة » فى كتابه « شرح الحكم » فيقول :

— « كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه ممن يشهد لهم الشيخ أبو الحسن بالولاية الكبرى والمكاشفة العظمى . .

« وذات يوم وقف رجل فى مجلسه وأنشد

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى — لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شئ شريف أنت شاربه — فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صـــافية — خذ الجنان ، ودعنى أسكن النارا

فقال بعض الحاضرين ، وكان من الفقهاء : هذا شعر لا يجوز إنشاده . . ؟ فقال الشيخ مكين الدين للمنشـــد : لا تعبأ به فإنه رجل محجوب . . ! !



أنظروا . . هذا رجل يتغنى بالكأس ، وبالخمر .

ويقول لعاذله ولائمه : خذ الجنان ودعنى أسكن النارا . ويصغى إليه الشيخ مكين الدين وهو الولى الورع الطاهر . . ! — صحيح أنهم يعبرون عن هيام سماوى وشعائر روحية سامية . ولكن لماذا لم يجدوا سوى هذه الكلمات — ليـــلى ، والكأس ، والصهباء ، ليلبسـوها أشواقهم الدينية الحارة . . ؟

إنها الطبيعة التى كبتوها تتسرب ، لا ، بل تخرج فى جهرة وإعلان . . ومن عجب أن هذه الأبيات التى تلوناها ، والتى يتقرب بها الصالحون إلى الله . . نظمها رجل يحكم عليه الصالحون بالزندقة والفجور . ذلكم هو أبو نواس . وهكذا تلتقى طبيعة الزاهد التقى بطبيعة الفاجر العتى

فتختار الطبيعتان كلاما واحداً تضمنه أشواقها ، وتعبر به عن عشقها المضطرم المشبوب . ! !

والآن لنقف لحظات سعيدة مع سيد العارفين وسلطان العاشقين ـ ابن الفارض ـ الصوفى الفذّ العظيم . إنه يتحدث عن الله فيقول : ـ

أبرق بدا من جانب الغور لامع — أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
لطلعتها تعنو البدور ووجهها — له تسجد الأقمار وهى طوالع
سكرت بخمر الحب فى حان حبها — وفى خمرة للعاشقين منافع
إذا ما بدت ليلى فكلى أعين — وإن هى ناجتنى ؛ فكل مسامع
تجافت جنوبى فى الهوى عن مضاجعي — ولما جفتنى فى هواها المضاجع
مضيت بركب الحسن بين محامل — وهو دج ليلى نورها منه ساطع
وناديت لما أن تبدى جمالها — لعمرك يا جمال ، قلبى قاطع
فمل بى إليها يا دليل فأننى — ذليل لها فى تيه عشقى واقع
لعلى من ليلى أفوز بنظرة — لها فى فؤاد المستهام مواقع
وألتذّ فيها بالحديث ويشتفى — غليل غليل فى هواها ينازع

ولعلّ الأفصاح عن الطبيعة الإنسانية المكظومة فى ابن الفارض يبدو أكثر تألقاً وإسفارا فى قصيدته التالية :

أدر ذكر من أهوى ولو بملام — فأن أحاديث الحبيب مدامى
بروحىَ من أتلفت روحى بحبها — فحان حمامى قبل يوم حمامى
ومن أجلها طاب افتضاحى ولذّ لى أطراحى وذلى بعد عزّ مقامى
وفيها حلاَ لى بعد نسكى تهتكى — وخلع عذارى وارتكاب أثامى
أصلى فأشدو حين أتلو بذكرها — وأطرب فى المحراب وهى أمامى

وبالحج إن أحرمت لبيت باسمها — وعنها أرى الأمساك فطر صيامى
ثنت خلفنا كل عطف تهزه — كثيبة مسك تحت بدر تمام
ولما تلاقينا عشاء وضمنا — سواء سبيلى دارها وخيامى
وملنا كذا شيئاً عن الحىّ حيث لا — رقيب ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدى وطاء على الثرى — فقالت لك البشرى بلثم لثامى
وبتنا كما شاء اقتراحى على المنى — أرى الملك ملكى والزمان غلامى

ما هذا الحشد الهائل من التعبيرات الجنسية التى تملأت شعر رجل عزّ نظيره فى الطاهرين الأتقياء . . ؟ ؟

إنه صلصلة الكبت ، وزمجرة الطبيعة الجنسية الثائرة . . ولقد كان ابن الفارض من القوة الخارقة بحيث جرد حياته كلها من مطالب الجنس.
ولكن هل استطاع أن يجرّدها من مشاعر الجنس واعتمالاته . . ؟

إن شعره المعذب المتيم يقول ؛ لا . .

وإن طبيعته التى عجزت عن أن تحقق ذاتها فى مجال العمل ، لم تعجز عن أن تحققها فى مجال القول . ولما كانت حياة ابن الفارض كلها مناجاة لا تنقطع مع الله ؛ فقد تفلتت طبيعته المصفدة خلال صلاته ونجواه على النحو الذى رأينا ، والذى انتظم هذه الكلمات المتوهجة

— الخمر ، والحان ، والبراقع ، والعشق ، وهو دج ليلى ، واللذة ، والافتضاح ، والتهتك ، واهتزاز الخصور . ، والتلاقى عشية وراء الخيام ، والنجاة من العوادل والرقباء . . . !!

إن مقدرة الطبيعة الإنسانية على الأفصاح عن نفسها رغم الأسوار الشاهقة التى أقامها فى وجهها عمالقة فولاذيون من أمثال ابن الفارض ،

لدرس مفيد للذين يحسبون أنهم قادرون عليها ، والذين يتوسلون بالكبت لخنق صوتها وإهدار حقها . .

وبعد أن عرضنا فى إيجاز مشكلتى العيش والجنس ، ورأينا أثرهما فى تكوين الأخلاق وتجويد السلوك ـ ننتقل إلى مشكلة ثالثة متصلة بهما ، وناجمة عنهما ، تلك هى :

مشكلة الفراغ ..

قلنا فيما سبق إننا نرث اليوم مجتمعاً عاطلا . وهذه حقيقة ليس من صالحنا ، وأيضاً ليس من حقنا أن نمارى فيها ونجادل عنها .

ونحن لا نعنى بكون المجتمع عاطلا ـ أنه لا يعمل ليأكل . . بل نعنى أنه لا يعمل ليحيا . . وكلتا البطالتين جاثمة علينا ـ البطالة المادية ، والبطالة الأدبية .

فالقرون الغابرة التى عشنا خلالها من زمان سحيق حرمتنا من الفرص التى تتيح لأيدينا أن تعمل ، ولعقولنا أن تفكر ، ولأنسانيتنا أن تزدهر وتترعرع . ، ومن ثمّ تركت لنا فراغاً فى نفوسنا ، وفراغاً فى عقولنا ، وفراغاً فى أوقاتنا ـ ومجموع هذه الألوان من الفراغ يشبه هاوية نقف جميعاً على حافتها

والفراغ النفسى كالفراغ العقلى ، كالفراغ الزمنى ـ كلها شفرات حادة تحلق الأخلاق كما تحلق الشفرة الشعر ـ ولكننا نظن ، ونتوسم فى ظننا الصدق ، أن الفراغ النفسى هو المنبع الذى يصب فى الرافدين الآخرين ، فراغ العقل وفراغ الوقت .

والفراغ النفسى ثمرة محتومة لمشكلتى العيش والجنس فإذا اضطرب توزيع الثروة فى مجتمع ما اضطراباً يحرمه من العدل . ، أو نضبت الثروة نضوباً يحرمه من الكفاية حدث فى نفوس الأفراد تصدع وفراغ . .

ونحن اليوم نرث مجتمعاً كان فيه قوم يأكلون الجوع ، وآخرون يجترّون التخمة . وطبيعى أن يسقط كلا الفريقين فى هاوية الفراغ أما الأولون فلما يجرّه الترف عادة من سفه ومجون . والأخرون لما يخلقه الحرمان من تعاسة وقلق وتحفز للعدوان

إن للروح غذاء تموت جوعا إذا لم تدركه فى وجبات منتظمة ومطردة فقراءة كتاب ممتع ، والاشتراك فى ناد احتماعى ، وشهود مسرحية جيدة والأصغاء إلى موسيقى باعثة ، وتناول العشاء فى مطعم أنيق مع الأصدقاء ، وقضاء عطلة الأسبوع فى نزهة سارّة — كل هذه الضرورات التى لا نزال نراها لهواً وعبثاً ، هى ومثيلاتها ، الغذاء الشهىّ الغنىّ للروح الأنسانية كى تزدهر وتبقى . ، وما لم تحلّ مشكلة العيش بالنسبة للناس ؛ فأنهم لن يستطيعوا أن يقدموا لأرواحهم غذاءها . وعندئذ تتحوّل تلك الأرواح المشرقة إلى خرائب تزأر فى فضائها المظلم ريح القلق ، وتعوى فى خوائها الموحش نزوات العربدة والفجور ، أو تترنح على أرضها اليابسة همسات التواكل والعجز والضمور . . .

أرأيتم هؤلاء الذين تعجّ بهم المقاهى ، والشوارع ، والحانات — لا يعرفون ماذا يريدون . . ؟ — إنهم ضحايا الفراغ النفسى

أرأيتم أولئك الذين تزخر بهم موائد القمار فى الأندية الكبيرة ،

وفى المقاهى البلدية حيث يزدحم حولها العمال ازدحاماً رهيبا . . ؟ —
إنهم ضحايا الفراغ النفسى

أتعرفون لماذا لا يبرز فينا كثير من الشعراء ، ومن العلماء ، ومن الأدباء ، ومن الفنانين ، مع أننا أول أمة أخرجت للناس فى جميع الأرض شعراً ، وأدباً ، وعلماً ، وفناً . . ؟ — سلوا عن هذا الفراغ النفسى . . !

إننا شعب ، أكثر كلماته هى « أف » وهذه الأف تعبر عن قلقه وضيق نفسه ودوخان أعصابه — وإن كثيرا جدا من الموبقات التى يرتكبها الناس لتنبع من هذا الفراغ النفسى الوخيم ، ومع هذا فكم من وعاظنا ، والمهتمين بشئون الدين والأخلاق حدثونا عنه أو تلمسوا له العلاج . . ؟ ؟

لقد تحادثنا مع — ٣٠ — شخصا يدمنون القمار . ، و — ٤٥ — يتعاطون المخدرات :

فمن الثلاثين مقامرا — وجدنا واحدا وعشرين نعتقد حسب تحليلنا لأحاديثهم معنا — أن زلتهم الأولى التى استمرأو بعدها لعب الميسر نجمت عن شعور جاثم بالضيق ، و « القرف » على حد تعبيرهم — وهذا هو الفراغ النفسى . . .

ومن الخمسة والأربعين الذين يتعاطون المخدرات ، وجدنا اثنين وثلاثين استنتجنا من الحديث معهم أن الفراغ النفسى هو المسئول الأول عن مضيهم فى الطريق المظلم .. هذه أنفس بريئة فيها جميعا ومض من روح الله ونوره بين أنها لم تجد فرصة العمل الشريف والفراغ النبيل ؛ فانطلقت كحاطب ليل لا تلوى على شىء وأسلمت مستقبلها للدمار ومصيرها للبوار .

ونحن شعب علم البشرية كيف تحرك شفاهها وتنطق .. ومع هذا فأن

لفراغ العقلى يوشك أن يقتلنا جوعا . !! ــ وقبل أن نتحدث عن صلة الثقافة بالأخلاق ، دعونا نؤكد لكم أن حرمان هذه الأمة من حياة فكرية نامية طليقة ، كان سياسة مرسومة لجميع الفاتحين الذين وطئوا أرضها من الأثيوبيين إلى أسرة محمد على . .

ذلك أن آباءنا البواسل كانوا أول من عرف قيمة الكلمة الملفوظة ، والكلمة المسطورة . . وكان الطفل لايكاد يبين حتى يلقى عليه أبوه وصية الملك « خيتى » :ــ

« كن بارعا فى قولك ، تكن قويا . .

« إن اللسان سيف بتار . .

« والكلمة الرشيدة الجريئة تساوى جيشا كاملا » . .

وجاء الغزاة قافلة وراء قافلة ؛ فوجدوا شعبا يقدس الكلمة الرشيدة الجريئة ؛ فكان طبيعيا أن يحرموه منها ويحولوا بينه وبينها . . وهكذا نرث اليوم مجتمعا أضناه فراغ عقلى طال أمده ، واستطال ليله ، فأثر ذلك فى سلوكه تأثيرا بعيدا . .

إنها لحكمة صادقة تلك التى تقول : « قل لى ماذا تقرأ ، أقل لك من أنت » . . ولقد جعل الأنجيل من قرائه مسيحيين . ، وجعل القرآن من قرائه مسلمين . ، وأحال كتاب « كماحى » ، قراءه إلى سفاكين وقرأ « إبراهام لنكولن » الصبي التعس الأجير سطورا من كتاب وقع فى يده صدفة ؛ فخلقت منه « إبراهام لنكولن » محرر العبيد . والإنسان الكامل ، أو الذى وقف على عتبة الكمال . .

والآن ؛ فاسألوا أنفسكم : ماذا تقرأون . وماذا يقرأ شبابنا . . ؟

وأحسبكم لا تعرفون . .

لقد ألقينا هذا السؤال على - ١٩٠ - مواطنا منهم عشرون عاملا وثلاثون موظفا - أما الآخرون وعددهم - ١٤٠ - فقد اخترناهم من طلاب المدارس الثانوية والجامعات ؛ وهذه هي النتيجة :

(١) - الموظفون الثلاثون . .

- ٣ - لا يقرأون شيئا قط . ، - ٢٣ - يقرأون الصحف . ، -٣- يقرأون كتبا دينية . ، - ١ - يقرأ ثقافة عامة .

(٢) - العمال العشرون -

- ١ - يقرأ كتب الأدب والقصص ويريدأن يكون كاتبا شهيرا . .

- ٦ - يقرأون الروايات البوليسية والغرامية . ،- ٩ - أميون . ، -٤- لا يقرأون شيئاً

(٣) - الـ ١٤٠ طالبا -

-٥٤- يقرأون الروايات البوليسية ، والغرامية التافهة وقد تردد اسم «ارسين لوبين» على شفاه خمسة وأربعين من هؤلاء . ، -٢٦- يكتفون بمطالعة بعض المجلات والصحف . ، - ٣٠ - يقرأون الكتب الدينية وحدها . - ٢٠ - لا يقرأون سوى الكتب المدرسية . ، - ٣ - يقرءون كتب الأدب . ، - ٧ - يطالعون متنوعات رفيعة فى الثقافة العامة .

لو اطردت هذه النسبة فى صفوف شبابنا جميعا لكانت كارثة . . كارثة خلقية قبل أن تكون كارثة اجتماعية ؛ فالإنسان المثقف بأفضل معانى هذه الكلمة هو اليوم أقرب الناس إلى العصمة والكمال . . ولقد حدثنى صديق زار « سويسرا » وأثناء مقامه بها قرأ فى إحدى مجلاتها العلمية

إحصاء أجرته مدرسة أطفال حول مطالعات تلاميذها خارج المدرسة . ، فوجدت من بين هؤلاء الذين لا تزيد أعمارهم عن السابعة ـ خمسة ، يعرفون إينشتاين ، ويقرأون لشكسبير ، وبرنارد شو . . !

إنى أظن ، ولا أحسب ظنى إلا صادقا ـ أن من بين بعض المتعلمين عندنا من ليس متأكدا مما إذا كان « انشتاين » هذا شىء يباع عند العطار ، أم عند القصاب . .

ومع هذا ؛ فأن حوافز الرجاء أوفر من دواعى اليأس ما دام فينا من يبحثون عن الحقيقة وينشرون أريجها .

إن النفس الممتلئة بالآمال الجريئة والأفكار المضيئة هى خير حقل تترعرع فيه فضائل السلوك ومكارم الأخلاق . وكما قلت لكم من قبل ، إنه لا يكفى أن نعمل لنأكل . بل يجب أن نعمل لنحيا .. أى أن البطالة الضارة ليست هى بطالة اليد من حرفة وعمل ؛ فحسب. بل هى مع هذا ، وربما قبل هذا ـ بطالة النفس ، وبطالة العقل

إن الأمر يكاد يكون كما قال « ديوجينس » ـ الخير الوحيد هو المعرفة . والشر الوحيد هو الجهل ـ والمعرفة الصافية السديدة قلما تتأتى لنفس منقسمة على ذاتها بسبب الكبت الذى يجعل من صاحبه كما قلنا حرباً أهلية

هذه رحلة عابرة وسريعة حول المباءات الخلقية التى تنجم عن انفصالية المجتمع . . وخلال هذه الرحلة ندرك لأول مرة المعنى الحق لقول رسول الله عليه السلام : ـ « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » ذلك أن سوء تقديرنا لمنزلة المرأة ، وعدم قيام العلاقة بين الجنسين

على أساس من المشاركة والصداقة خليقان بأن يدمرا المجتمع ، ويجعلا بعضه لبعض فتنة . .

أجل ، ليس هناك ما يمزق المجتمع مثل هذا الحاجز الغليظ الذى يفصل بين ذكوره وأناثه ، ويملأ نفوس كل من الجنسين بمشاعر التطلع والتربص ، ويقود السلوك إلى منحنيات جانبية مظلمة على النحو الذى سردناه فى إيجاز شديد

والآن نستطيع أن نمضى شطر الفصل الأخير من الكتاب لنلاقى وجهة نظر فى الأصلاح الخلقى . وإنها لنتيجة لتلك المقدمات التى انتظمها العرض الذى سبق . ، والذى نرجو أن يكون قد كشف عن جوانب العلة ، وأحسن تشخيصها

أُقدّم لكم الفضيلة ..

« لكى يصل الإنسان إلى مطالع الضوء ، لابد له من اجتياز السحاب »

— جوبير —

في هذا الفصل

الدين . بلا أكاذيب . .

الصحة ، والحرية ، والعلم

المعرفة الجنسية

الاختلاط ، فلسفة ومنهاج

المساواة ، أو المباراة المتكافئة

احترام الحياة

وأخيرا . . من يحكمكم يا غلام . !

يحتاج الطبيب إلى وقت فسيح لكى يشخص المرض ، ويضع أنامله البصيرة البارّة على موطن الداء . ولـكنه حين يهم بكتابة بطاقة العلاج لا يستغرق ذلك منه سوى لحظات معدودات . .

وصاحبكم لا يزعم لنفسه أنه طبيب . ولـكن التأليف ، سيما منه ذلك الذى ينتظم نقداً موضوعياً للمساوئ ، ومحاولات إنشائية للبناء ـ يجعل موقف المؤلف كثير الشبه بموقف الطبيب . . فإذا كنا قد بذلنا أكثر الوقت فى تشخيص العلة ؛ فنرجو أن ننفق أقله فى تحرير بطاقة الدواء

وينبغى أن يكون مفهوماً أننا لا نقدم عقائد تطالب القراء بالأذعان لها . وإنما نقدم مقترحات نرجو أن نصيب بها شاكلة الحق . ولمن شاء من القراء أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها . بيد أننا نودّ للمقبلين أن يقبلوا عن بينة ، وللمعرضين أن يعرضوا عن بينة . أما الأقبال عن محاكاة والأعراض عن هوى ؛ فذلك ما لا ينشرح له قلب الله . .

وهذه الآراء التى نزجيها ثمرة رحلتنا عبر الفصول الثلاثة السابقة . ونحن لا نزعم أن آراءنا هذه ستحمل الناس على أجنحتها وتنقلهم إلى حياة أفضل . ذلك أن شيئاً واحداً وواحداً فقط ، هو القادر على نقل الناس إلى الأرض الموعودة والحيـــاة الجيدة ، ألا وإنه ـ العزم . . . والناس فى بلادنا إذا لم يجتازوا الطريق إلى الفضيلة سيراً على أقدامهم ؛ فلن يجدوا لهذه الأقدام بديلا . ومن الضرورى أن نؤمن بأن لدى جميع الناس قدرة على حيازة الفضيلة ، ولـكن هذه القدرة وحدها غير كافية حتى يتعاون معها عاملان هامان . أحدهما فردى ، والآخر جماعى .

أما الأول ، ويقع على كاهل الفرد ؛ فهو تدريب هذه القدرة تدريبا

موصولا بحيث تظل عاملة أو على أهبة الاستعداد للعمل . .

وأما الثانى ، ويقع على عاتق المجتمع ؛ فهو أن يتيح لهذه القدرة ظروف العمل المثمر . ويزيح من طريقها كل المخاوف والأساطير والعقبات . .

ولست أزكى هذا الكتاب حين أقول إنه أدّي عن المجتمع كثيراً من واجبه حيال مشكلة الأخلاق بما قدم من فصول . . وهو الآن ، وعلى هذه الصفحات يريد أن يتم الأمر الذى بدأ ، ويرسم للفرد وللجماعة أسلوباً للسلوك يحسبه فاضلا وسديدا

ومرة أخرى . لن يكون هذا الجزء من الكتاب سجلا حافلا بالمسائل والتفصيلات . بل بطاقة مركزة نشير فيها إلى الخطوات الأساسية . والقواعد الكلية التى نتصور فى الأخذ بها خلاصنا وسعادتنا ــ تاركين الأفاضة فى بحثها ؛ والاتساع فى تطبيقها إلى الذين يعنيهم الأمر من الأفراد ، والمجتمع . والدولة :

وهناك أربعة أزياء للتربية لا بد لمجتمعنا من التدثر بها جميعا لكى يصير على خلق عظيم

(ا) التربية الدينية . .

(ب) التربية الجنسية . .

(ح) التربية السياسية . .

(ى) التربية الثقافية . .

وتحت كل من هذه الأنواع الأربعة مضامين وفروع . ولست أدرى إن كان الأفضل لطريقة البحث أن يكون حديثنا مباشرا عن هذه الأصول أم عن مضامينها وأجزائها ؟

على أية حال ؛ فإن ظروفا ما، تحيط بى الآن وأنا أكتب هذه الصفحات لأدفع بها إلى المطبعة ـ تدعونى لاختيار الطريقة الثانية بعد أن تبدت بالنسبة للظروف التى أومأت إليها أكثر سهولة ويسرا . . وإذن : فلتأخذ هذه الفروع مكان أصولها ، وليكن حديثنا عنها مباشرا . إنها ـ كما نراها ـ الأسباب التى تستطيع أن تساعدنا على النهوض الخلقى والصعود إلى حياة حافلة بالمعرفة والفضيلة والبهجة .

١ ــ الدين ، بلا أكاذيب . .

ما رأيت كالدين وسيلة إذا أسيء استعمالها ، دمرت حياة الناس تدميرا . ولقد رأينا عبر التاريخ جماعات بشرية جعل الدين من حياتها فردوسا يتلألأ ، وجماعات أخرى جعل الدين نفسه من حياتها جحيما وأطلالا . فلماذا ، وكيف حدث ذلك . . ؟؟

أحسب الأمر لا يحتاج إلى تفسير ؛ فالدين . هذه القوة المقدسة التى لم تذعن البشرية طول حياتها لسلطان كما أذعنت لسلطانه ـ هذا الدين كالماء يتلون بلون إنائه . .

فحين يكون وعاؤه بشرية فاهمة متقدمة متطورة ، تنحاز قوة الدين لجانبها ، ويصير الدين أداتها لتوكيد وعيها ، وتزكية تقدمها ، ودعم خطوات تطورها . .

أما إذا كان الوعاء تافها ، ومملوءا بالأدران والصدأ ؛ فأن هذا السائل الجميل النضر الذى يحتويه يتحول إلى ماء آسن ، وسائل عفن عكر لا يرد ظمأ ، ولا يرعرع حياة . .

ونحن اليوم نرث مجتمعا اختلط صدأه بالدين فعكر بهاءه ، وأمسى الدين فينـا بضاعة مزجاة . نصفه حق ، ونصفه باطل وأكاذيب . فماذا نفعل . . ؟ ؟ أنعزل الدين عنا ونلقى به خارج الأسوار . . ؟ إن مجرد التفكير فى هذا لحماقة جليلة . .

وإن خيرا من الثرثرة الفارغة حول هذه المحاولة البائسة ، أن نهاجم بكل قوانا الاضافات الكاذبة والتفسيرات الضالة التى فرضت نفسها على الدين وعلى الناس . وهذا موضوع متراحب ثم إنه ليس موضوع كتابنا ؛ فلنلق عليه نظرة من الزاوية التى تصله بموضوع البحث الذى هو ـ أخلاقنا . .

لقد رأينا فى الصفحات السالفة كيف يمكن أن يعوق الدين ـ إذا حرف عن حقيقته ـ تقدمنا وسعينا نحو الاكتمال الخلق . وقلنا الآن أن عزل الدين عن مجتمعنا عمل فاشل بقدر ما هو أحمق . وليس فى حياة الناس كلها ما هو أكثر اتصالا بالدين وتأثرا به من السلوك . . فكيف نتيح لسلوكنا أن ينتفع بهذه الصلة الوثقى . ؟ ـ أجل كيف نجعل الدين ـ كما أراد له ربه أن يكون ـ عوناً للناس على تعلية سلوكهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وازدهار شخصياتهم . . ؟

السبيل لهذا هو : الدين بلا أكاذيب . .

لن تظفر هذه الأمة بأخلاق الأقوياء الشرفاء حتى تعود فتتلقى دينها من وحى الله . لا من أفواه الشياطين. وحتى تفسر الدين بالعلم ، بدلا من تفسير العلم بالدين . . لقد جاء الدين ليسـعد الناس لا ليشقيهم ، فكل ما يكتشفه العـلم من أسباب سعادتهم ، وعوامل ترقيهم يتقبله الدين بقبول حسن . .

وكذلك جاء الدين ليخاطب بشرا ، لا آلهة ؛ فكل دعوة من العلم للاعتراف بواقعية هذه البشرية بما تحمله من طبائع ورغبات ـ يضعها الدين موضع التقدير والاحترام . فتآخى العلم والدين إذن ضرورى لأنشاء سلوك فاضل وخلق سوىّ يسير على نهج من الاستقامة والخير . وليس لهذا التآخى من سبيل سوي أن نعيد النظر فى طريقة فهمنا للدين . ونكتفى الآن بعرض أمر له أهميته الأكيدة فى تجديد فهمنا للدين ، وبالتالى فى دعم الأخوة القائمة بين الدين والعلم . ذلك هو أن نفرق فى الدين بين ما هو قاعدة ، وما هو شعار .

إن فى النصوص الدينية شعارات ، وفيها قواعد . أما القاعدة فيتساوى فيها منطوق النصّ ومفهومه ـ بيد أن الشعار كثيراً ما يكون بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد جد بعيد . . والشعار يعتمد على المبالغة . أما القاعدة ؛ فلا .

فإذا قال القرآن مثلا ـ « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » فهذه قاعدة يتعاون فيها المنطوق والمفهوم على تشريع حكم سيظل خالدا على الأيام

وإذا قال ـ « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فهذا شعار . والقــرآن قطعاً لا يعنى المعنى الحرفى لمنطوق الآية الكريمة . وإلا عجزنا عن التوفيق بين هذا المعنى الحرفى ، وبين مئات الملايين من البشر ماتت جوعا أثناء المرحلة الطويلة لتاريخ الإنسان .

إنها ومثلها من النصوص المتشابهة شعارات . الغرض منها صيانة قاعدة أخرى هى فى هذه المناسبة ـ الأيمان المطلق بالله . .

إن الشعار دائماً يهدف إلى تجديد شباب الأيمان بالفكرة التى يراد

من الناس أن يؤمنوا بها ، ويريد أن يحتفظ بدرجة الحماس والحرارة فى المنسوب الملائم المطلوب . وليس من وظائفه قط التقنين والتشريع .

فالرسول عليه السلام حين يقول : ـ « من حلف بغير الله ؟ فقد أشرك » .. لايريد مفهوم هذه الكلمات . بدليل أنه هو نفسه قد حلف بغير الله حين قال عن الرجل الذى جاء يسأله عن الجنة ويعده بأن يؤدى فرائض الدين وحدها دون أن يزيد ـ « أفلح وأبيه إن صدق » ..

لقد أراد الرسول بالحديث الأول ـ من حلف بغير الله فقد أشرك ـ أن يكون شعاراً يذكى نار العداوة بين الأيمان والشرك . حتى ولو كان مظهر هذا الشرك ممثلا فى الحلف بغير الله . ولم يرد أبداً أن يكون هذا الحديث قاعدة باقية . وتشريعا يؤاخذ الناس به ويحاسبون على مخالفته . ولذلك رأيناه يحلف بغير الله حين علم من نفسه أن هذا العمل لن يكون له أدنى تأثير على إيمانه ويقينه ...

وما من نبي إلا وكان له شعارات . فقول المسيح مثلا : ـ

« باركوا لاعنيكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم . .

« من لطمك على خدك الأيمن ؟ فأدر له خدك الأيسر ..

« سعداءهم السذج لأن مملكة السماء لهم ..

« سعداءهم المرضى لأنهم سيواسون ..

« سعداءهم من جاعوا وظمئوا إلى العدل لأنهم سيشبعون . .

كل هذه شعارات تتوهج فيها أضواء الزينة لتسلى المعذبين عن عذابهم ، والمستضعفين عن عجزهم .. وليس الغرض منها قطعاً أن تكون شرعة ومنهاجا فيصير حتما عليك أن تتبرع بخدك الأيسر لمن قضم خدك

الأيمن . أو أن تكافىء بالرداء من سلبك الأزار .. !!

ومن الشعارات أيضاً قول التوراة :

– «خاطب الرب موسى قائلا – قل لبنى إسرائيل : كونوا قديسين» .

وقول القرآن للناس – « كونوا ربانيين » . .

إن التوراة والقرآن يعلمان أنه ليس في مقدورنا أن نكون قديسين ولا ربانيين . ولكن ذلك لا يمنع من حفز الهمة وشد زناد الإرادة الإنسانية إلى أقصاه . فكان هذا الشعار المتلألىء حافزاً لقاعدة أخرى هى فضيلة النفس واستقامة السلوك .

ومن الشعارات كذلك قول الرسول عليه السلام :

– «الدنياملعونة ، ملعون مافيها .. ، حب الدنيا رأس كل خطيئة ... لا تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة .. » .

إن هذه النصوص ليست قواعد ولا تشريعاً يدعوان الناس إلى مقاطعة الدنيا ومقتها . وإنما هى مجرد شعارات تريد لتشحذ فى الناس نزعة التسامى عن دنايا الحياة وصغارها ، ولما كانت فطرة البشر متشبثة بالحياة متعلقة بدنياها ، فأن الشعار ، والمبالغة أهم عناصره ، يستطيع أن يلعب فى سبيل ذلك دوراً ناجحا .

ولو أن الأحاديث المذكورة كانت قواعد ، لاشعارات ، لما وصف الرسول الدنيا فى حديث آخر بأنها خضرة حلوة .

والآن نسأل سؤالا :

ما صلة هذا البحث بموضوع الأخلاق . . ؟

ونجيب بأن التفريق بين الشعار والقاعدة فى نصوص الدين يخفف

عن النفس الأنسانية كثيراً جداً من الآصار التى ترهقها ، والأثقال التى تجعلها إلى اليأس من بلوغ اكتمالها أقرب منها إلى الرجاء ، فضلا عن أنه يحصر المسئولية الأخلاقية ، والعمل من أجل الفضيله فى نطاقها الصحيح ـ ألا وهو : الأنسان . والأنسان وحده . .

ونضرب لهذا مثلا ، حديثين لرسول الله .

أما أولهما ؛ فيقول : من نظر إلى محاسن امرأة صب فى عينيه الرصاص المذاب يوم القيامه .

وأما ثانيهما ؛ فقوله ـ « كتب على ابن آدم حظه من الزنا . مدرك ذلك لا محالة ؛ فالعينان تزنيان وزناهما النظر . . إلى آخر الحديث » أو قوله عليه السلام ـ لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » . .

إن الناس لابد ناظرون إلى محاسن الجنس الآخر . . لأن ذلك فى طبائعهم ودمائهم . .ومجرد استجلاء تلك المحاسن لايضر مكارم الأخلاق شيئا . . وكم من أناس ينظرون دون أن تصاب عفة أنفسهم بتشويه أو أذى . وكأيّ من آخرين إذا بصروا بامرأة أغمضوا ، وحوقلوا ، وانتابتهم رعشة الورع الكاذب . ووراء هذه المظاهر كلها شهوات مكظومة ، ورغبات نابحة مكتومة . تود لو أخلى السبيل بينها وبين نساء الكرة الأرضية جميعاً لتصفى معها حسابا طويلا . . .

إن النظر إلى محاسن الجنس إذن تعبير محتوم عن طبيعتنا كما شهد الرسول نفسه بذلك فى حديثه الثانى الذى قال فيه «مدرك ذلك لا محالة » فكيف نوفق بين الحديثين وكيف نرحم النفس البشرية من وطأة الحدث

الأول الذى يتوعد الناظر بأراقة الرصاص المذاب فى عينيه . . ؟ ؟

الطريق لهذا هو ما ذهبنا اليه من التفريق بين القاعدة والشعار . .

إن الحديث الأول شعار يعتمد على المبالغة حتى لا ينطلق الناس وراء طبائعهم انطلاقا يجاوزون به الحدود ، وينسون فى غمرته مسئوليتهم الأخلاقية .

ولعلّ من المعروف بداهة أن الحديثين الآخرين لا يعنيان التحريض على مقارفة الخطيئة ؛ فليس رسول الله من يفعل هذا . . ولكنهما يقرران حقيقة واقعة ، ويضعان الطبيعة الانسانية داخل إطارها الصحيح دون أن يخدعاها عن ذاتها ، أو يكلفاها بما لا تطيق . .

ومثل هذا قول الرسول : « تخلقوا بأخلاق الله » . .

وقوله : « كل بنى آدم خطاء » . .

فالحديث الأول شعار ، والثانى هو القاعدة . لأن الأول بعيد من طبيعة الإنسان ، والثاني قريب منها ومعبر عنها . . إن الشعار هنا ـ أي الحديث الأول ـ يجعل من العصمة عن الخطأ ـ أملا إنسانيا.. والقاعدة ـ أى الحديث الثانى ، يجعل من الخطأ طبيعة انسانية . . وهكذا يتعاون الشعار والقاعدة فى النصوص الدينية من أجل الأنسان تعاوناً وثيقاً يبدأ من الاعتراف بواقعه الأدنى . ويريد أن ينتهى عند مثله الأعلى . . الإنسان الكامل ، أوالإنسان السوبرمان..

إن إدراك هذه المسألة ضرورى لكى يصير الدين عوناً لنا فى سعينا للاكتمال . ولكن كيف يدرك الناس هذا على الصورة الشاملة المرجوة وليس معهم الاستعداد الكافى لذلك .. ؟

هنا نعود إلى كتابنا الأول ـ من هنا . . نبدأ ـ فلقد طالبنا فيه ونعود فنطالب اليوم أيضاً ـ أن يؤلف مجمع علمى جديد يضم بعض رجال الدين المستنيرين . وبعض رجال العلم والأدب . وتبدأ مهمة هذا المجمع بالإجابة عن هذا السؤال : كيف ننتفع بالدين فى بناء المستقبل . . ؟ ـ

ولن أقول بم تنتهى هذه المهمة لأن المجمع إذا وفق للجواب الصحيح ؛ فلن تنتهى مهمته ، وستظل رسالته قائمة ما دام هناك دين ، وما دام هناك مستقبل .

ويعنى هذا المجمع بتقديم الدين للناس من جديد كحافز لا كزاجر وينفى عنه تلك الزيادات المخوفة الراعبة . لقد ارتبط الانسان بالله خلال تطوره بواسطة عرى ثلاث . الخوف والحاجة والحب . ونرى أن دواعى الخوف وعبادة الحاجة قد ولت وأهل عصر جديد يرتبط فيه الانسان بمنشئه بعروة الحب والتوقير .

يجب أن يوضع فوراً كل نشاط دينى يعتمد على الدعوة والتوجيه تحت رعاية واعية حازمة . ولا بد من توحيد القيادة فى هذا المجال . أما كيف يتم هذا ؛ فسيكون موضوع حديثنا فى نهاية هذا الفصل

إننا بتطهير الدين من الأكاذيب المفتراة عليه أولا . . ثم بأعطاء توجيهاته مفاهيم جديدة وصحيحة ثانياً ـ لا نخدم أنفسنا ومستقبلنا فحسب بل ونخدم الدين ذاته . ونحن نعرف الذين يصفون كل محاولة من هذا النوع بالمروق والضلال . ولكننا على يقين من أن قوة الحقيقة ستزيح هؤلاء من طريق الوعى . إما بردهم إلى الصواب ، وإما بكنسهم من الطريق .

والآن ننتقل إلى الخطوه الثانية فى طريق اكتمالنا

(٢) الصحة ، والحرية ، والعلم ..

عرفنا فى الفصول السالفة العروة الوثقى التى تربط الأخلاق بالصحة . وكثيراً ما يتساوى حظ الأمة من الفضيلة وحظها من الصحة . واهتمامنا بالصحة يتضمن طبعاً اهتمامنا بالغذاء ، فالصحة الجيدة ثمرة الغذاء الجيد . والصحة والغذاء معاً يساهمان أكثر من أى شىء آخــــر فى تكوين الشخصية الإنسانية ، وتحديد المسلك الخلقى . ولعل أصدق تصوير لهذه الحقيقة فى الحكمة التى تقول : ــ « إن ما تأكله الآنسة ــ ر ــ يتحول ويصير الآنسة ــ ر ــ » . . والعجيب أن الدين أيضاً يهتم بنوع الغذاء ويوكد فاعليته وتأثيره فى الأخلاق وإن كان ينظر إليه من زاوية أخرى غير التى ينظر منها العلم . فالدين ينهى عن أكل الحرام ، كالمسروق والمنهوب ومال اليتامى الذى يؤخذ خلسة وظلما ، ويخبر فى كثير من نصوصه أن اللقمة الحرام تلوث النفس وتفسد الضمير :

ـ الصحة إذن ضرورية لخلق مجتمع يتحلى بمكارم الأخلاق .

فإذا علمنا أن ٧٠ ٪ من أمتنا وشعبنا يحمل كل واحد منهم ثلاثة أمراض فى إهابه أدركنا استحالة تهذيب السلوك بالوسائل النظرية التى لم تزد الرذيلة إلا ديوعا .

ولــكن على كاهل من تقع مسئولية الصحة المضيعة المفدوحة. أهو الفرد أم الدولة . . ؟

. لاريب أن الدولة تحمل تسعة أعشار الوزر الناجم عن سوء الصحة وتضوب العافية . . وإنه لصحيح ما قيل : ليس المشكل النصيحة ،

وإنما المشكل قبولها . من أجل هذا ؛ فأن الدمار الذى لحق صحتنا ، وبالتالى أخلاقنا ـ فيا سلف من الزمان ، يفقد قيمته ، ويتلاشى خطره إذا نحن عزمنا أمرنا من جديد ووضعنا العبرة المتخلفة عنه موضع الاعتبار ، ولم نفعل كما فعل الذين بادوا . ؛ فنعرض عن العلم ونفرّ من الحقائق ونلجأ إلى التمائم والتعاويذ .. ! !

ونحن نعلم كم هو غريب ونشاز أن يدعو داع لمكافحة الرذيلة بتحسين الصحة فى بلاد ألفت أن تكافح الرذيلة بالكلام . . ولكن ما حيلتنا ، إذا كان ذلك عين الحق وعين اليقين . . ؟

إن كل سرير يضم إلى مستشفى . ، وكل طبيب ماهر مخلص يضاف إلى أسرة الأطباء ، وكل قرش ينفق على صحة هذه الأمة المتداعية . . إن شيئاً من ذلك ومثله ليساوى ملىء الأرض كلاما منمقاً وإرشاداً مزخرفا . ويفعل فى تعلية السلوك ما لا يفعله القديسون .

والصحة النفسية تكاد تكون معدومة فى بلادنا . لهذا يجب أن يكون لها من اليوم نصيب وافر فى سياستنا الصحية ، وفى ميزانيتنا الصحية أيضا.

لقد أنشأت بعض الشركات الصناعية الكبيرة بأمريكا لعمالها وموظفيها عيادات خاصة بالصحة النفسية لقاء اشتراك زهيد . وبعد عامين اثنين من بدء العمل قامت بعمل إحصاء بين عمالها فوجدت أن جميع المترددين على هذه العيادات قد ازداد حظهم من الأخلاق العالية بالنسب الآتية :

النشاط	— ٤٥ ٪	مما كانوا عليه قبل التطبيب النفسى
الأمانة	— ٣٦ ٪	» » » »
المهارة	— ٤٣ ٪	» » » »

التركيز	— ٤٣ ٪	مما كانوا عليه قبل التطبيب النفسى
العفة الجنسية	— ١٥ ٪	» » » »
التصميم	— ٤٣ ٪	» » » »

فيا ليت قومنا يعلمون ، وياليتهم حين يعلمون يعملون . . إن الصحة هى خلق الحاضر والمستقبل . . ولن يمضى وقت طويل حتى يتركز ثناء الناس على مكارم الأخلاق فى ثنائهم على الصحة . .

أجل لن يقول الناس فى الغد القريب ـ فلان صادق ، أو أمين . أو مستقيم . ولكنهم سيقولون : إنه قوى . . إنه حر . . إنه مثقف . فالصحة والحرية والثقافة هى اليوم وقبل اليوم وبعده منابع الفضيلة ومناهلها ؛ فلنخصص أقل قدر من المال للكلام الذى تكافح به الرذيلة ؛ ولنفتح الاعتمادات الواسعة السخية لتتدفق إلى جثمان هذا الشعب المسجى تحت لفائف رقيقة من وجود باهت سقيم حاملة إليه الدم ، والعافية والفضيلة

والحرية ضرورية لتكوين الأخلاق ـ الحرية فى أزيائها جميعاً ـ السياسية والفكرية والشخصية . ولقد تحدثت عن الحرية السياسية ، والفكرية حديثاً طويلا فى الكتابين السابقين ـ مواطنون لا رعايا ، والديمقراطية أبداً —

وليس فى نيتى أن أعود إلى هذا الحديث . بيد أني أؤكد ملء معرفتى وخبرتى ويقينى أن الحريات السياسية والفكرية لازمة للأخلاق الكريمة لزوم الأنبياء والمرسلين . وكل إهدار لحق الجماعة فى هذه الحريات يعقبه فوراً انهيار متتابع فى أخلاقها وسلوكها

إن النفاق ، والجبن ، والخيانة ، والغدر ، والجاسوسية ، والكذب ،

والعار ـ كل هذه تتحول إلى مقدسات وفضائل فى كل مجتمع يفقد حريته السياسية وحريته الفكرية . . ولو شئت أن أملأ كتاباً كاملا بالشواهد التاريخية التى تزكى رأينا هذا لفعلت . ولكن الحديث يتعجلنا ، ووقتنا المرصود لهذا الكتاب ملك للفكرة التى يعالجها ؛ فتعالوا نتحدث عن حرية تهم موضوع الكتاب أكثر من سواها . . تلك هى : الحرية الشخصية.

ماذا نعنى بالحرية الشخصية . . ؟ سيسارع الملتمسون للابرياء العيب ويقولون : تعنى ـ طبعاً ـ العربدة والفسوق والعصيان .. !!

ونجيب فى هدوء وصدق : كلا . وإنما نعنى الفضيلة الانبعاثية التى تنبعث من اختيارنا وإرادتنا ..

لا تلك التى تجىء ثمرة الاكراه أو الخوف من فضيحة وعقاب .

إن كل أمة لا تبنى فضائلها على أساس من شعور كامل بالحرية وشعور كامل بالمسئولية ، فأن بناءها هذا يقوم على شفا جرف هار .. والفضيلة الدائمة الباقية هى المتحررة من الخوف . هى التى جاءت بمشيئتها ، وستبقى بمشيئتها كذلك . ، وما أبدع قول الله العظيم : لا إكراه فى الدين . . وأيضاً ما أصدق الذى قاله فيلسوف حكيم : لا فضيلة بلا حرية . .

إن الحرية الشخصية هى « صندوق التأمين » على حياة الفضيلة وبقائها . وفى بلادنا ظاهرة تستحق المثول أمامها طويلا ، هى أن مكارم الأخلاق عندنا نزوات عارضة ، وليست سلوكا وطيدا . ؛ فؤلاء الذين لهم ظاهر من الصدق ، ومن العفة ، ومن الأمانة ، ومن الشجاعة ، سرعان مايخورون كالثيران الذبيحة أمام فرصة مغرية ، أو ظروف قاسية .

وإذا ذهبنا نتعقب أسباب هذا وجدناها ماثلة فى فقدان العناصر التى

تخلق الفضيلة ، أو على الأقل تخلق إرادة الفضيلة . وعلى رأس تلك العناصر إن لم يكن جماعها ـ الحرية الشخصية التى تتيح للانسان أن يختار فضائل نفسه ، ويريدها . والتى تكون بدورها ثمرة تجربه واختيار ومعاناة ..

أما الفضيلة التى يأتيها أصحابها مكرهين . فكثيراً ماتكون سحابة صيف لا رسوخ لها ولا بقاء .

وما أكثر ضحايا الخوف من التقاليد ، والخجل من الناس .

ما أكثر هؤلاء الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . إنما نحن مستهزئون ..

إن فقدان الحرية الشخصية يعنى شيوع النفاق ونشر ألويته جميعاً . وأنى لأملى وجوه الجالسين على الطريق ، والسائرين فى الشوارع ، والراكبين فى العربات . وأرقب العيون المسعورة التى تلعق بنظراتها المتواثبة وأهدابها المنتفضة أجساد النساء والفتيات . ؟ فأسأل نفسى :

ـ أيمكن أن نحكم على هؤلاء الناس بأنهم فضلاء .. ؟ إنهم لايرتكبون بنظراتهم فاحشة . ومع ذلك فالفاحشة ملء نفوسهم وإن لم يفعلوها . وإن نكوص الواحد منهم عن الخطيئة ليس عفة . بل عجزا . والسلوك المستقيم تحت ضغط العجز لا يخلق إنساناً فاضلا ، ولا مجتمعاً سويا . وإنما الاستقامة الباقية هي تلك التى أختارها وأريدها وأهواها .

ودعونى أسألكم أيها الآباء من القراء :

ـ إذا كان لأحدكم بنتاً متعلمة فى سن السابعة عشر أو حولها ؛ فهل يحترم حريتها الشخصية فى ـ القراءة ـ والتنقل ـ واختيار الأصدقاء .. ؟

إننى فى غضون ثلاثة أعوام استطعت أن أجمع وأدرس إجابات

خمسة وأربعين والدا . تحادثت معهم واحداً واحدا ، واستشرفت كثيراً من الأحاسيس والأفكار التى تصنع آراءهم . وكانت النتيجة كالآتى :

ـ٤٥ـ أباً ..	حرية القراءة	حرية التنقل	حرية اختيار الاصدقاء	حرية اختيار الصديقات
الذين يوافقون	١٥	١٢	واحد فقط..	١٢
الذين يرفضون	٣٠	٣٣	٤٤	٣٣

وقد ألقيت على كل من هؤلاء الآباء الخمسة والأربعين سؤالا آخر ، هو :

ـ هل تعتقد أن فتاتك تؤثر رغباتك على رغباتها فى ممارسة هذه الحقوق . وتسير وفق مشيئتك . أم أنها لا تفعل . أم تتظاهر فقط بأنها تفعل . . ؟ ؟

واعترض « سبعة » منهم فى عنف صوفى على تسمية هذه « الفوضى » بالحقوق . .

وأجاب « عشرون » بأنهم يعتقدون أن البنت قادرة على بلوغ أغراضها بوسائل غير منظورة للرقباء . .

وأكد السبعة الذين أشرت إلى اعتراضهم السالف ـ أن بناتهم يسرن على الصراط المستقيم ، وينفذن رغبات الآباء فى ذمة وغبطة ..(!!)

وأجاب « ثمانية » بأنهم على يقين من أن أسراف الوالدين فى استعمال كلمة « لا تفعلى » يفضى إلى النقيض مع الفتى والفتاة على حد سواء . .

وأجاب « عشرة » بأن تنفيذ رغبات الوالد راجع إلى يقظة الأم وحسن توجيهها للبنت . .

والحق أننى لم أتفاءل ، وأيضا لم أتشاءم بهذه النتيجة . ـ ذلك أن الفحوص التى قمت بها لم أرد منها كما ذكرت قبلا إلا أن تكون إشارات ضوئية تومئ إلى الحقيقة وإن لم تستوعبها . ، بيد أنى وجدت الحرية الشخصية تجتاز فى بلادنا محنة تتجلى فى ظواهر كثيرة منها هذه التى رأيناها فى الأحصاء السابق . .

وتحليل المشكلة بالنسبة للمجتمع يرجع إلى اعتبارات شتى . فهناك الريب والشكوك وسوء الظن ، وكلها ظلت قروناً عديدة تربط الشعب بحكامه الغزاة ثم انتقلت إلى صفوف الشعب نفسه فصار يتعامل بعضه مع بعض بالشكوك والارتياب . . وهناك الرعونات والأساطير والتقاليد التى تدحرجت الينا مع الاستعمار التركى الذى فصل بين الجنسين بحائط فولاذى ولعلكم لم تنسوا بعد « فرمان » السلطان سليمان القائل ـ « كل امرأة تكشف وجهها فى الطريق يقص شعر رأسها ، وتزف فى الشوارع ممتطية حمارا بالمقلوب » . . ! ! ـ وهناك الرهبة من كل جديد . وذلك لأن الأفكار الجديدة تحتاج دائماً إلى تنسيق أو تغيير فى عالمنا العقلى . ولقد ران على عقولنا ، وعلى عزمنا كسل طويل يجعلنا نهرب من الجديد لننجو من التبعات التى يتطلبها . . .

ثم هناك هذا السيل الذى لا يزال دافقاً من المواعظ والخطب والتوجيهات التى تقال للشعب فى كل مكان . فى المسجد ، وفى الكنيسة ، وفى الإذاعة ، وفى المدرسة ، وفى دور الجمعيات الدينية التى تختلف فيما بينها على كل شىء ويكفر بعضها بعضاً . ولكنها تتفق على شىء واحد . هو أنه لا مكان للمرأة ولا مكان للبنت سوى أظلم بقعة فى بيتها . . ؟ ؟

فلنمكن أعضاء المجتمع جميعهم من حريتهم الشخصية . ذاك أهدى السبل إلى فضائل راسخة نامية باقية .

واهتمامنا بالعلم كوسيلة فعالة فى تنمية الأخلاق لا يقل عن اهتمامنا بالصحة وبالحرية . وإذا لم يكن هناك فضيلة بغير حرية فليس ثمت فضيلة بغير معرفة — وها هو ذا الاسلام وقد اعتبر الأيمان بالله على رأس الفضائل دعا الناس إلى أن يؤمنوا عن معرفة لاعن تقليد . وصب سيلا من السخرية على الذين يقولون " إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . . ولقد بلغ من تقدير الرسول عليه السلام للمعرفة كوسيلة لفضيلة الأيمان أن جعل الشك فى الله من صميم الأيمان . وهذا نبأ رويته فى كتب لى من قبل ، وسأظل أرويه ما جاءت مناسبته . .

فذات يوم ذهب للرسول قوم من أصحابه تفيض أعينهم من الدمع حزنا وقلقا . وقالوا : يا رسول الله . إنا لنجد فى أنفسنا ما نؤثر على التلفظ به أن نحترق حتى نصير حمما . وأشاروا من طرف خفى لى أنه الشك فى الله . .

ولقد يتوقع المتدينون فى بلادنا اليوم أن يكون جواب الرسول لهؤلاء زجرا وتوبيخاً وقسوة . . فلينظروا ماذا كان جوابه . .

لقد ربت محمد العظيم على أكتافهم فى حنان رطيب . ، وتهلل وجهه بابتسامة كضوء الفجر . ، وانثال الحديث من بين شفتيه عذباً شهياً كأنه بشرى . ، وفى مثل هدوء المحيط وقوته قال ابن عبد الله :

— « هل أتاكم هذا الشك . . ؟

« الحمد لله . . إنه صريح الأيمان . » !!!

وهكذا يصلصل الأسلام بما انتهى إليه العلم من أنه لافضيلة بلامعرفة فباسم من نحرم عقولنا من أن نعرف كل شيء عن كل شيء . . ؟؟

أباسم الله . . ؟ ـ هذا رسول الله يكذبنا .

أم باسم العلم ـ ؟ ـ ألا وإن العلم لأشد تكذيبا لنا وتقريعا .

إنه باسم التقاليد التركية القديمة ، وباسم الخرافة التي تمثل أوسع مساحة في تفكيرنا إن كان لنا تفكير . وباسم المصالح والمنافع التي ارتبطت بهذه التقاليد والخرافات . وجعلت بيننا وبينها نسبا وصهرا .

افتحوا لعقول الناس جميع النوافذ لكي يبصروا الفضيلة في ضوء الثقافة الحرة والعلم المبين .

ذلك أن الثقافة هي الضوء الذي ينير طريق السلوك . وإذا صار الضوء الذي بيننا ظلاما ؛ فكم سيكون هذا الظلام وبيلا . . ؟ ؟ حين نلقي نظرة فاحصة على سلوك المجتمع نجد فضائله ظلالا عارضة . أو على أحسن الفروض عادات قائمة . والعادة لا تهب فضيلة راسخة . لأن العادة نفسها قد تزول وتدع مكانها لعادة أخرى . إن الشيء العظيم الذي يمنح أخلاقنا الرسوخ والثبات هو قوة اليقين العقلي . واليقين العقلي هذا لا يكون إلا حيث تكون الثقافة حرة ، والمعرفة شاملة ـ فلنغمر مدارسنا وجامعاتنا المجدبة من مناهج التربية الشخصية والتثقيف الخلقي بهذين النوعين ، ولنقدم لأرواح الطلاب وعقولهم كل ما هو رفيع من الأدب والفن والتاريخ .. والمقياس الصحيح لكل ما هو رفيع يتمثل فيما يعطي طبيعتهم الأنسانية حظها من معرفة الخير والشر . وسيزداد غرضنا وضوحا إذا

نحن تلونا سطورا للكاردينال «نيومن» فى بحثه « نطاق التربيه الجامعية وطبيعتها » ـ يقول فيها.

ـ « إننا لن نستطيع أن نحول بين الطلاب وبين أن يقذفوا أنفسهم فى معمعة الحياة بجميع طرقها وحكمتها ومبادئها حين يحين الأوان . ولكننا نستطيع أن نعدهم لما لا مفر منه . ؛ فليس الطريق لتعلم السباحة فى المياه المضطربة أن نمتنع عن خوض عبابها فأنت إذا حرمت الأدب الدينوى كله ، وحذفت من كتبك المدرسية جميع المظاهر المكشوفة للأنسان الطبيعى فأن هذا التحريم لن يغنى عنك شيئاً . لأن هذه المظاهر ذاتها تسعى إلى طلابك وتستقبلهم فى هيئة حية تسعى إلى عتبة قاعة المحاضرات . وستلقاهم هناك فى مظاهر سحر الجديد ، وروعة المجهول ، وفتنة العبقرية أو الظرف . إنهم اليوم طلاب ولكنهم غداً سوف يصبحون أعضاء فى العالم الفسيح الأطراف . فإذا حصروا اليوم قراءتهم وثقافتهم فى مناسك القديسين . فغداً سوف يقذف بهم فى أحضان بابل العظيمة . وسوف يرمى بهم فى أحضانها دون أن يتدرعوا بأمانة الفكر المتسامح وروح المرح والدعابة ، وابتكار الخيال . ودن أن يدربوا على التأنق فى الذوق ، ودن أن توضع أمامهم قاعدة لتميز الثمين من الغث ، والطهارة من الخطيئة ، والحق الصراح من السفسطة » . . .

إن هذه الكلمات الجليلة تكشف عن حتمية الثقافة الحرة لتجويد الأخلاق الكريمة . وهى تنقل حديثنا إلى لون هام من ألوان المعرفة . ذلكم هو :

هنا سؤال توجهنا به إلى تسعين من طلاب المدارس والجامعات تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة ، والثالثة والعشرين .

وتوجهت به زميلة فاضلة إلى أربعين من الطالبات . .

والسؤال هو :

— كيف عرفت إهلال الغريزه الجنسية ، وماذا كان موقفك الأول حيالها . . ؟

وكانت النتيجة بالنسبة للجميع طلبة وطالبات كالآتى .

خمسة عشر — ارتبكوا وألقى الخجل على ألسنتهم إجابات مضطربة . .

خمسة عشر — عرفوا ذلك عن طريق الاحتلام . .

ستة وثلاثون — عرفوا عن طريق «الخادم» . . أو «الخادمة» . .!

خمسون — عرفوا عن طريق قرنائهم بالمدرسة . .

ستة — عرفوا من الشارع . .

ثمانيـة — عرفوا من الأسرة أو المجلات . .

هذا عن الشق الأول من السؤال . أما الشق الثانى فقد كانت نتيجة الأجابات أن « ٨٠٪ » من المجموع - استجابوا للغريزة استجابة غير طبيعية على نحو مشابه لما ذكرناه فى الفصل السابق . .

ومن الإحصاء المذكور لا نجد لثقافتنا المدرسية ولا لثقافتنا الاجتماعية أثراً - أى أثر . .

وتسأل : أين وزارة المعارف . . ؟ أين وزارة الشئون الاجتماعية . . ؟ أين وزارة الارشاد ، ومحطة الأذاعة . . ؟

أليس من واجب هذه المؤسسات جميعاً أن تبين للناس كيف تنضج شخصياتهم ، ويتفوقون على أنفسهم ، ويحيون حيـــاة لا تعقيد فيها ولا انحراف ولا اضطراب . . ؟

إذن ؛ فما الذى يمسك بها أن تفعل.. ؟ إنها صاحبة الجلالة التقاليد . . ورعاية التقاليد والاستمساك بها واجبان إذا كانت تستحق الرعاية والاحترام . وإذا كانت تمثل العناصر الأصيلة لنشوء المجتمع وتساير تطوره . أما حين تكون دخيلة وغبية وتافهة ؛ فمن الضلال الأكيد الاستسلام لها والالتفاف حولها . .

والآن . احذفوا من قاموس الثقافة كلمة « عيب » إذا كنتم تريدون مجتمعاً مترفعاً عن العيب . .

ويجب أن يكون للمعرفة الجنسية فى مناهج التعليم المدرسى والتوجيه الاجتماعى نصيب كبير . إن جميع العالم المتحضر قد أدرك ما للتربية الجنسية من أثر بعيد فى رقى الأمة وتعلية أخلاقها .وذهب يستعين بالأرقام على اكتشاف الحياة الجنسية لمجتمعاته ، وشعوبه . وها كم شواهد تصور ذلك الاهتمام .

ففى عام — ١٩٢٤ — أجرت جامعة موسكو بحثاً هاماً لمعرفة نسبة البرود الجنسى وأسبابه بين الفتيات اللاتى سيصرن زوجات ، وتبين أن « ٤٣ ٪ » من اللاتى انتظمهن الأحصاء من ذوات البرود الجنسى . ومعنى ذلك أن الـ ٤٣ ٪ - هؤلاء لا يعتمد عليهن فى بناء حياة أسرية

فاضلة ، وزوجية خصيبة منتجة ، وفى الحال والتوّ بدأ العلاج . .

وفى عامى — ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ — قامت جامعة برلين بعمل إحصاء مماثل لنفس الموضوع فوجدت بين من شملهن الأحصاء :

٣٤٪ لا يكترثن بالاتصال الجنسى

٢٢٪ ينفرن نفورا شديدا من هذا الاتصال

أى أن — ٥٦٪ — منهن مصابات ببرود جنسى . . وأيضاً بدأ العلاج . .

وفى سويسرا ، اكتشف المسئولون أن النسوة فى المقاطعات الشرقية يعانين بروداً جنسيا ؛ فجندوا علماء الأحصاء والتربية والطب . وحين وجدوا أن — ٥٠٪ — من هؤلاء النسوة يجهلن الشبق جهلا تاما سارعوا بالعلاج . .

أجل ، ولقد أصبحت الأمم الراقية فى عقلها وخلقها تهتم برصيدها من الخبراء فى الحيـــاة الجنســـية ، مثل اهتمامها بخبراء السياسة والاقتصاد والمناجم . .

فماذا ننتظر نحن . . ولماذا نصر على تقليد اليمن والبلاد الواقعه وراء جبل قاف . . ؟!!

إن كل ما تقدمه المدرسة عندنا من المعارف الجنسية إلمامة خاطفة تختلسها اختلاسا عند حديثها عن علم الأحياء . ولـكن الموضوع أجل من هذا ، وأخطر . ولابد من أن نحدث شبابنا من الجنسين عن كل شئ . . وأولى الأمكنة بأن يدور فيها الحديث هى المدرسة ، والمعهد ، والجامعة . إذ يتوفر لها الوقار والأمانة

ولقد سئل عالم ألمانى كبير هو الدكتور « لودفيج ليفى لينز » :

ـ متى يجب أن نبدأ بالتربية الجنسية لأبنائنا . . ؟

فأجاب قائلا : ـ عندما يبدأ الطفل بالسؤال .

ولكن يبدو أن هذه الإجابة لا تتفق وأوضاعنا . ، فالأطفال عندما لن يبدأوا بالسؤال عن هذه الأشياء أبد . لأن جواً غامضاً رهيبا يجعلهم يدركون بالبديهة أن هذه منطقة حرام ..! فلتبدأ المدرسة بأداء واجبها ، وعليها أن تحدد متى تبدأ .

إن العلم التجريبي يخبرنا على لسان أحد ثقاته الأخصائيين « سيرل بيبي »[1] أن الاهتمامات الجنسية تتطور مع مراحل النمو للفرد .

فبين السنتين الخامسة والتاسعة ـ يكون الاهتمام الجنسى كامناً ويتجه إلى نفس الجنس

وبين العاشرة والثانية عشرة ـ تستيقظ المشاعر الجنسية . وتكون فى البداية مختصة بذات الجنس ثم تتجه بعد هذا شطر الجنس الآخر .

وبين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ـ تزداد الانفعالات الجنسية وتتجه عادة نحو الجنس الآخر .

وبين الثامنة عشرة والعشرين ـ تزداد المشاعر الجنسية خصوبة وعمقا ، ويبحث الأنسان فى الجنس الآخر عمن تكمل شخصيته وتشبع حاجاته العاطفية .

فعن طريق هذه المعلومات نستطيع أن نعرف متى نبدأ تلقين المعارف

(١) مؤلف كتاب ـ التربية الجنسية ـ ترجمه الأستاذان محمد رفعت رمضان ، ونجيب اسكندر أبراهيم وراجعه الدكتور اسحق رمزى ـ وننصح بقراءته

الجنسية لأبنائنا ، ونعرف أيضاً الغذاء الملائم لكل فترة من فترات النمو المطرد .

ونحن نقترح أن يبدأ من العاشرة . وإذا علمنا أن العاشرة تعادل فى سنواتنا الدراسية الآن ـ الثانية الإعدادية تقريباً ـ أى أن معظم تلاميذ هذه الفرقة فى سن العاشرة أو حولها ، أمكن إدراك أهمية هذه السن كنقطة نبدأ منها . خاصة وقد علمنا من قبل أن هذه السن بداية ليقظة المشاعر الجنسية كما أنها حتى الثانية عشرة نقطة الانتقال من الاهتمام بالمثل إلى الاهتمام بالجنس الآخر .

وعلى أى حال فهذه التفصيلات لا تعنينا . ونحن نؤثر تركها المختصين .. وإنما يعنينا إلى أبعد مدى أن نقتنع بالقضية . ونؤمن بضرورة جعل التربية الجنسية مادة أساسية فى ثقافتنا الدرسية والاجتماعية ـ ولنكن على يقين من أن الله ورسوله يباركان هذا العمل ويثيبان عليه . وأن رسول الله نفسه كان يثير فى المسجد موضوعات جنسية يتحدث عنها ويفتى فيها . والرجال والنساء معاً يستمعون ويصغون . ؛ فإذا تطور هذا الوضع بعد ألف وأربعمائة عام من حديث عابر فى المسجد ، إلى منهج وطيد فى المدرسة فلن نكون قد اقترفنا منكراً وزوراً . .

إننا إذا لم نحدث شبابنا عن هذا ، فسيذهبون يحدثون أنفسهم . . . والويل يومئذ للفضيلة . .

إن الصور العارية التى يجرم القانون بيعها ـ تملأ مدارسنا الثانوية . حيث يتبادلها الطلاب ويتخاطفونها . . .

وإن الجدران الداخلية لدورات المياه فى هذه المدارس لتزدحم بمهرجان

حافل من العبارات الرديئة ، والرسوم التى يعبر بها الطلاب المساكين عن معلوماتهم الجنسية (! !)

فأى المكانين أسمى وأفضل لكى يتعرف الشبان إلى غرائزهم . . . ؟ حجرة الدراسة . ، أم مراحيض المدرسة . . ؟ ؟

ألا إن لعنة الله لتنزل على كل ورع يؤثر الثانية على الأولى . ، ألا وإن مجتمعنا الصالح العابد ليفعل هذا . . ! !

إن الأشباع الوجدانى أكبر حائل ضد الفاحشة . وبث المعارف الجنسية لأبنائنا يمكنهم من هذا الأشباع ، فضلا عما يسديه إليهم من خدمة ونفع حين يضع أعينهم على حقائق الحيـــاة الجنسية التى يواجهونها بالرهبة والاضطراب . والذين يعلمون أن الشباب هو المرحلة التى يتشكل فيها مستقبل الفرد وعظمة الأمة يكاد الأسف يخنقهم وهم يبصرون شبابنا وكنوز مستقبلنا فى هذا الضياع الوبيل وتلك الحيرة المدمرة .

ولقد شرع التعليم فى الخارج يعنى كما ذكرنا بتأهيل الطلاب لهذه الحياة ، بل وتطالب المدرسة المنزل بأن يشاركها فى هذا المجهود النبيل . وهاكم نشرة عامة أرسلها ناظر إحدى المدارس الثانوية للبنين فى لندن لى آباء التلاميذ جاء فيها :

— « فى أثناء العام الدراسى الحالى كان تلاميذ الفرق (كذا ـ وكذا) يدرسون علم الأحياء مع (الأستاذ . . والأستاذ . .) وقد قضوا فترة من الوقت فى دراسة جسم الإنسان ، وأعضائه ووظائفها . والدروس الأخيرة تختص بالتناسل فى الزهور والحيوانات والجنس البشرى . .

« فعند سن الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة تقريباً ـ يظهر عند

الأولاد اهتمام طبيعى بأجسامهم وبعنشهم . وإنه لمن الأهميـة بمكان ألا يستحيل هذا إلى أمر سرى سقيم . . كما ينبغي ألا يناله التحريف أو يتعرض لسوء التوجيه عن طريق المعلومات الفاسدة التى تنتقل من صبية صغار فى نفس السن يجهلون الحقائق على صحتها ، أو على أحسن الفروض ، يعرفونها معرفة ناقصة . .

« إن التناسل فى الإنسان هو الخاتمة الطبيعية لمنهج علم الأحياء . فيمكن أن تعرض على التلاميذ الحقائق واضحة بغير تشويش أو حيرة ، لأن الموضوع كله إنما هو امتداد طبيعى لما سبق أن درسوه . .

« وإنى أبعث طيّ هذا بملخص للدرس الذى أعطى للفصل الذى ينتمى إليه نجلكم منـذ بضعة أيام ، فقد ترغب فى انتهاز هذه الفرصة لمناقشة الموضوع مع نجلـكم . » . .

نحن نعلم أن بعض القراء قد يأخذون علينا أننا فى هذه القضية بالذات نستشهد بدول غير عربية مثل روسيا ، وانجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا .. ولـكن هل هذا ذنبنا . ؟

لقد كنا نود أن نضرب الأمثال باليمن والعراق وشرق الأردن ، ومحميات الخليج الفارسى كلها . (!) ولـكن هذه البلاد وبلادنا معها — ترفض فى عزة وشمم أن تعطينـا فرصة الاستشهاد بفطنتها وحسن تقديرها . .

إن نشر المعرفة الجنسية بين الطلاب والطالبات يقض مضجع الرذيلة بيقين . ويرد سكينة النفس وسكينة العقل إلى هؤلاء الذين يهربون بحيرتهم وقلقهم إلى جدران دورات المياه ، وإلى الصور العارية ، وإلى العادات

الضارّة . ونحن نعلم أن كثيراً من الناس عندنا لا يستريحون لهذا .كما أن كثيراً من الناس بلقاء ربهم كافرون . . فكونهم من الناس ، وكونهم كثرة لا يمنع أن تكون الحقيقة فيما يفضون . وإنا لنلتمس لهؤلاء العذر ريثما يتبين لهم الأمر ؛ فنى لندن نفسها قامت ضجة منذ عامين أو ثلاثة من الآباء الذين احتجوا على تعليم صغارهم المعلومات الجنسية . والغريب أنه تبين فيما بعد أن هؤلاء الثائرين جميعاً من المنتمين لجمعيات دينية . . . وإن كان بعضهم قد عاد إلى صوابه ، ورجع عن تذمره حين دعته المدرسة لسماع بعض الدروس التى تلقى على الأبناء فى مسئلة الجنس ؛ فاستراح لها وآمن بجدواها .

منذ سبعة أعوام كنت ألقى محاضرة دينية على مجموعة من السيدات والفتيات . فى تفسير قول الله تعالى : ــ « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسوّاك فعدلك . فى أىّ صورة ما شاء ركبك » . وأذكر أننى استرسلت شيئاً ما فى تبيان « خلقك ؛ فسوّاك ، فعدلك » . وقلت لهن مبينا عظمة الخالق سبحانه ، إنه فى أثناء الاتصال الجنسى يدخل فى المهبل ما يقرب من مائتي مليون حيوان منوى . تشق طريقها إلى عنق الرحم لكى تلتقى بالبويضة ، وتتم عملية الأخصاب . .

ويبدو أن هذه الكلمات ــ الاتصال الجنسى ، وحيوان منوى ، وعنق الرحم ، والبويضة ، والأخصاب ــ قد أنست المستمعات أنهن فى موعظة دينية (ا) فقد ساد هرج ملحوظ ، وضحكات مكتومة ، ونظرات متسائلة . وألقى الخجل حمرته الوهنانة على وجوه كثيرة . وأردت أن أزيح عنهن هذه الغشاوة ؛ فقلت لهن : ليس فيما ذكرت الآن ما يخجل .

ولقد كان رسول الله يقول فى دروسه مثل هذا للرجال وللنساء . وقصصت عليهن نبأ التى ذهبت تسأله ـ عليه السلام ـ كيف تغتسل من المحيض . . ؟
فأجابها الرسول قائلا :

ـ « خذى ماءك ، وسدرك ، وصبي على رأسك ، ودلكيه حتى تبلغي منابته . ثم صبي عليه الماء . ثم خذي فرصة ممسكة ـ أي ممخضة بالمسك ـ فتطهرى بها . . »

وتعود المرأة فتسأل الرسول : وكيف أتطهر بها . ؟ !

فيجيب الرسول وهو يضحك : سبحان الله . ! ، تطهرى بها . .

وتتدخل عائشة فى النقاش فتقول للمرأة : تتبعى بهذا أثر الدم فى الرحم . . وما إن انتهيت من سرد هذه الواقعة حتى كان الهرج قد انتهى ، والحياء المخدوع قد رحل . . وأدركت ساعتئذ حكمة بليغة . هى أن هذا الحيـاء الكاذب الذى يغشانا قد انتحل لنفسه فى غفلة من الحقيقة صفة دينية ، وصرنا نوقره كما لو كان شعيرة أو فضيلة من فضائل الدين وشعائره فإذا ما تبين للناس كذب هذا الزعم نبذوه عن أنفسهم وفتحوا نوافذ عقولهم للمعرفة الطليقة الحرّة

ولذلك يكون من الخير أن نضع بين يدى مناهج التربية الجنسية بعض الشواهد الدينية التى يمكن اعتبارها من غير تكلف أو اعتساف ذوات دلالات ومفاهيم خاصة بالمسئلة الجنسية وتربيتها .

. . فهل للمدرسة أن تبدأ دراستها . . . ؟

إنه لأمر مضحك ومزعج معاً أن ندرس لطلابنا فى التوجيهية مثلا الجهاز التناسلى عند الأرنب . . (؟) ونخجل أن ندرس لهم الجهاز التناسلى للانسان . . ! !

مرة أخرى ، واجهوا الشباب ، بحقائق العلم فى النور ، فذلك خير من أن يلتمسها الشباب مشوهة محرفة فى الغياهب والظلمات والآن ننتقل إلى الخطوة الثالثة فى الطريق .

(٣) الاختلاط : فلسفة ، ومنهاج ..

ودعونا نبدأ حديثنا عن الاختلاط بقضيتين هما فى حسابنا مفروغ من أمر صدقهما .

القضية الأولى .. هى أننا لا ننكر نشوء علاقات عاطفية ، وقيام علاقات جنسية من جراء الاختلاط — ولكن يقابل هذا أن الخطيئة الجنسية تقترف كذلك فى المجتمع الانفصالى البعيد عن الاختلاط .

أما القضية الثانية وهى مترتبة على الأولى ؛ — فهى احتمال أن تكون الخطايا الجنسية للمجتمع الانفصالى أقل عدداً منها فى المجتمع الاختلاطى — ولكن يقابل هذا أيضاً أن خطايا الجنسية المثلية ، أى الشذوذ والانحراف تسجل فى المجتمع الانفصالى أرقاماً قياسية عالية بحيث يحرز فى سباق الجريمة تفوقا لا يطمع المجتمع الاختلاطى فى مثله أبداً ..

وحسبنا أن نوازن بين المستوى الخلقى فى بلد كمصر ، ومثله فى أى مجتمع انفصالى من جيراننا الأقربين .... !!

أو دعونا من هذه الموازنة ، ولنجعلها بين الريف المصرى فى الوجه البحرى وبين المدن المصرية .. إن القرى التى ينشأ ناشئوها على الاختلاط الطبيعى بين الجنسين فى الطفولة والمراهقة والشباب والشيخوخة .. ، فى الحقل ، وفى البيت ، وفى السوق ، تكاد تتنزه عن الانحرافات الجنسية .

بل والنقائص الجنسية تنزها مطلقاً . وحتى حوادث الزنا إن وقعت ؛ فهى من الندرة والتكتم بحيث لا تسبب لمجتمعها الخاص قلقلة ولا ذعراً . . أما المدن ، فهى لضآلة حظها من الاختلاط ، وللتردد الذى ينتابها إذ تقدم عليه بقدم ، وتدبر عنه بأخرى ؛ يعيش أهلها فى بلبلة جنسية . لا ، بل فى فوضى جنسية بأحسن معانى هذا التعبير . !

وإنه لسواء علينا أن تصح نظرية « فرويد » بالنسبة للغرب الآن ، أو لا تصح ، بيد أننا على يقين من صحتها بالنسبة لبلادنا . وما حولها من بلاد الشرق العربى كله ـ أعنى أن المشكلة الجنسية هى المنبع الذى يطفح بكافة مشاكلنا النفسية ، ونقائضنا الخلقية . ذلك أن التقاليد التى استضافت نفسها وفرضت ذاتها علينا ، تلك التى وفدت مع الغـزاة والفاتحين دقت طبول القطيعة بين الجنسين بعد إذ كانا شيئاً واحداً . وأذعن المجتمع لأمر التقاليد التى قسمته على نفسه وطال به الأمد على هذه الحال حتى تحول عقله الباطن إلى مخزن مشحون بالعقد المتربصة . ولا تظنوا أن الانحراف هو وحده الثمرة العفنة للمجتمع الانفصالى . بل إن كافة النقائص ، وانهيار الأعصاب ، وتوقف الشخصية عن النمو ، والعجز عن التبريز فى الحياة ، والفأفأة الوجدانية التي تجعل حياتنا العاطفية مأساة مضحكة .. ! ! ـ كل هذه الآفات هدايا متواضعة يقدمها المجتمع الانفصالى عن طريق الكبت إلى أهله وذويه ..

فبملء ضميرنا الحى نطلق صيحة الأنقاذ منادية بحق الفضيلة فى أن تتحول إلى مجتمع اختلاطى وطيد .

والدعوة إلى مجرد الاختلاط ليست شيئاً جديداً بالنسبة لمجتمعنا الذى

يبدأ سيره نحو الاختلاط فعلا ـ ولكن الجديد الذى ندعو إليه هو أن نجعل من الاختلاط شريعة مقررة ومنهجا مرسوما ـ وليس مجرد نزوة عارضة ، أو انسياق لا هدف له ولا موضوع .

فالاختلاط الانسياقى كثيرا ماتغلبه الفوضى على أمره ، وتعوق نضجه وارتقاءه . . أما الاختلاط الوطيد الذى رسمت له وسائله ، وعرفت غاياته ؛ فذلك هو المجال الحيوى لكل فضائل الأنسان .

فلنؤلف من الاخصائيين شعبة ، أو شعبا . مهمتها دراسة « فن الاختلاط» ورسم الوسائل التى يتحول بها مجتمعنا إلى الاختلاط المهذب ـ ونحن مطمئنون إلى أن الاختلاط قادر على تنظيم نفسه . ولكنه يتطلب بيئة مستعدة لمعاونته . ولن يتيسر ذلك إلا إذا جعلنا منه فلسفة ونظاما .

أجل ، فلسفة تحدث الشعب عن غاياته النبيلة ، ومزاياه الجليلة ليثق به ويضع يده فى يده . . ثم نظاما يحدد أنجع الوسائل لبلوغه . وأهداها سبيلا .

ونحن نرى أن يبدأ الاختلاط المدرسى فى المدرسة لا فى الجامعة فبين الرابعة عشر والسابعة عشرة تقريبا ، وهى على وجه التقريب كذلك السن التى ينتظمها التعليم الثانوى ـ تزداد الانفعالات الجنسية للفتى وللفتاة ، وتشتد . ولذلك نرى أصحاب هذه السن . لا سيما الذين تكبت انفعالاتهم ، يميلون إلى انتقاد الوالدين ، وانتقاد المجتمع ، ويأخذهم شغف بالعداون وبالتطرف فى مناقشة المسائل الفكرية والاتجاهات المذهبية . وفى هذه السن أيضا يضيقون بالمنازل ويحاولون نسيانها والهرب منها إلى الطريق . كما تضيق أنفسهم بالجماعات الوحيدة الجنس ويتمنون العيش

فى جماعات مختلطة ــ وأنسب المواقيت لتحويل المشاعر الجنسية إلى مودة وصداقة هى هذه السن . . فليختلطا فى إبانها ، فتقود المدرسة عواطفهما فى تمعن وروية ، وتنصرف عنهما الرؤى الشريرة التى يولدها الانفصال .

إننا إذا فعلنا هذا ؛ فستتحول الرغبات الجنسية إلى زمالة فكرية ، وصداقة إنسانية فواحة بعبير حلو طهور . وإذا لم نفعل فسنقع فى المحظور الذى نتوهمه ونخشاه .

وسلوا بوليس الآداب عن أعداد الطلاب الذين يضبطهم ، وقد هربوا من مدارسهم ، وذهبوا يتربصون بأبواب مدارس البنات منتظرين خروجهن ليتعقبوهن ، ويظفروا منهن ولو بنظرات عطاش . . وقد يسأل سائل : إذن فأنت تريد من أجل هؤلاء الضالين أن تجعل الفتيات على قرب منهم كى لا يتجشموا مشقة المطاردة . . ؟

وأجيب : لا . وإنما نريد أن نجعل الفضيلة على قرب من المجتمع حتى لايتجشم مشقة البحث عنها ويدفع ثمن تفريطه فيها . . والفضيلة الجنسية هنا . فى الاختلاط الهادف الأمين .

وإنى أسأل : لماذا يعتقد المعارضون للاختلاط ، أنه طريق إلى الخطيئة والفاحشة . . .

ولماذا لا يكون طريقا إلى صداقة نافعة ، ومودة يانعة ، وائتلاف لا غل فيه ولا تأثيم . . ؟

انظروا . . إن الاجابة عن هذا السؤال تكشفهم ، وتسقط معارضتهم وتجعل السير وراءهم جريمة لا يتحمل مسئوليتها ضمير شجاع . .

والسبب فى معتقدهم ذاك ، هو أنهم بدائيون فى تفكيرهم ومشاعرهم ،

فالمجتمع البدائى للانسان القديم . كان يرى أن المرأة للفراش . وللفراش فحسب . . وكانت حياته الجنسية لهذا مجدبة من العاطفة وروح الصداقة والائتلاف . ولقد رسمت « مرجريت ميد » صورة لمشاهدتها فى بعض القبائل التى لا تزال تحمل طبائع آبائنا الغابرين . وأودعتها كتابها — « تنشئة الأطفال فى غانه الجديدة » ؛ فقالت :

— « . . . من تقاليد قبيلة مانوس أن يتوجه الرجل بمشاعر الاحترام لأخته ، وبصداقته إلى ابن عمه فيلاعبه ويضاحكه ، أما ولاؤه فلأبيه . وأما اهتمامه ورعايته فيوجهها إلى أطفاله . ولا يبقى لزوجته بعد ذلك سوى عملية الجماع وحدها » . . .

إذن ؛ فهذا هو الأنسان البدائى القديم — يهب صداقته ، وملاطفته ، وولاءه ، واحترامه للآخرين . ، أما زوجته فعلاقته بها جافة يابسة . لأنها للفراش فقط . . وليست أهلا لثقته ، ولا لصداقته ، ولا لولائه .

إن الذين يعيشون بيننا ، ويعارضون الاختلاط بقية من أولئك الذين ذهبوا . . إنهم يستبعدون أن يفضى الاختلاط إلى صداقة ، وثقة ، واحترام متبادل بين الجنسين . لأن المرأة فى نظرهم ليست أهلا لشىء من هذا . إنها للفراش مجردا من عواطف الإخوة والتقدير . . أليس المكان المناسب لإيواء هؤلاء السادة ، هو حيث تعيش قبيلة « مانوس » التى سمعنا شيئا من نبأها . . ؟

أجل . إن مكانهم هناك شاغر يناديهم ، وينادى كل مجتمع يسلم لهم زمامه ومصيره .

ودعونا نسأل سؤالا آخر :

— لقد كان الانسان البدائى حين يجوع . ينقض على فريسته فيأكلها بجلدها وعظامها وقرنها أو يتسلق شجرة ويلتهم من أعشابها . . أما اليوم فأبناء آكلى العشب والعظام ، يزخرفون موائدهم بالمباهج والزهور ، ويستعملون الشوكة والملعقة والسكين . . أفئن دعانا داع إلى العودة للطريقة الأولى ، نطيعه أم نعصيه . . ؟ ؟

إن الأمر لكذلك بالنسبة للعلاقات الانسانية بين الجنسين . فما كانت تعرف سوى اللقاء الجاف على فراش الشهوة .

أما اليوم فقد اتسع نطاقها ، وتسامت غاياتها ، وأضحت زمالة وصداقة ومشاركة ورحما وائتناسا . وكل محاولة لسلخها من هذا التعاطف يساوى تماما العودة إلى مضغ الأعشاب ، والتهـــام الفريسة بلحمها النىء ، تفتها الردىء . .

إن المرأة ليست للفراش وحده . ولكنها للحياة جميعها تأخذ وتعطى ، وتضرب بعزمها النضر فى كل أعماقها ، وكل آفاقها . والمجتمع الذى يعجز عن إدراك هذا — يدفع الثمن من شرفه ومن إنسانيته . .

لقد ساء تقدير اليونان والرومان للمرأة ، ونأت العلاقة بين الجنسين عن طريق العاطفة الحية ، والزمالة الوثقى . وذلك بسبب اعتقادهم المغلوط أن المرأة ليست شريكة حياة . بل مستولدة للزوج ، ومربية للأطفال . وبسبب تقديس الأثينيين للزمالة الفكرية بين الرجال دون النساء اللائى لم يكنّ فى نظرهم كفؤا لها ، ولا قادرات عليها ؛ فماذا نجم عن هذا فى أمة بلغت شأو المعرفة والفضيلة . . ؟

شاع الانحراف فى أثينا حتى لم يعد رذيلة يحاول الناس الخلاص منها .

ولقد منحته اليونان القديمة حظا جزيلا من الأجلال .. وأرهق أفلاطون قلمه فى الدفاع عنه ؛ وانظروا ماذا قال :

— « .. إن وصف المولعين بالجنسية المثلية بعدم الحشمة ، ليس من العدالة فى شىء ؛ فهم لم ينتهجوا هذ النهج لأنهم يفتقدون الحشمة ، وإنما هم يعشقون جنسهم بالذات لأنك تلمس فى نفوسهم علو الهمة ، وفى قلوبهم شجاعة الرجال » .. !!

ترى ؛ لولم تورط أثينا نفسها فى سوء تقديرها للمرأة . أكان حكيمها العظيم — أفلاطون — سيورط مجده الأدبى فى هـذا الدفاع الحار الذى قرأناه ..؟!

فلنأخذ العبرة إذن ، ولنسارع قبل فوات الأوان . إن الاختلاط الجامعى أخفق غير قليل . ولا ريب أن من أسباب إخفاقه ، الموقف العام الذى يتخذه المجتمع من الاختلاط — بيد أن هناك سببا آخر ذا بال . هو أنه يجىء متأخراً عن أوانه . يجىء بعد أن تكون الانفعالات الجنسية قد كلّ متنها من كثرة قرعها الأبواب . وتحولت إلى كبت وعقد . وهذا ما يجعلنا نؤثر التبكير . والبدء به فى مرحلة التعليم الثانوى . . وأيضا نحن هنا لا نتشبث بالتفاصيل . ونترك أمرها للأخصائيين . ولكننا على يقين من ضرورة دعم الاختلاط المدرسى والتوسع فيه .

فإذا غادرنا المدرسة إلى المجتمع — أشرنا بالتوسع فى إنشاء الأندية الاجتماعية التى تضم الجنسين وتكون تحت إشراف توجيهى دقيق . ونحن مسلمون بأن هناك أخطاء ستقع ، ولكننا نعلم أن هذه الأخطاء تقع ، وربما بصورة أبهظ ، فى الشوارع والبيوت . والفارق بين الحالتين أن

الخطأ فى الأولى . أى الذى يجىء ثمرة الاختلاط فى النادى مثلا ـ ستخف حدته ، ويتلاشى يوما ما ، بما سنقدمه للناس من توجيه ، وإشراف ، أما الخطأ فى الحالة الثانية ، فانه ينمو فى الظلام ، ويزداد مع الليالى تفاقما واضطرابا . .

ولابد للاذاعة من أن تؤدى واجبها كاملا حيال هذا الأمر الجليل . وتجعل فى أحاديثها وتمثيلياتها نصيباً مفروضاً بحيث تساعد الناس على انتزاع أقدامهم الغارقة فى أوحال الحياء الجنسى والانحصار النفسى — وتعرض على أسماعهم مناقشات حرة ومهذبة للحياة الجنسية التى هى بالنسبة لنا جميعا طلسم ولغز ومنطقة حرام .

إن سلامة النمو الانفعالى لشبابنا ، وإعادة العافية إلى الوجدانات المريضة فى مجتمعنا ـ ليستحقان منا أن نضحى بتلك المخاوف التى تسىء ظننا بالاختلاط وتحرمنا من مغانمه المحققة . والآن . إلى الخطوة الرابعة :

(٤) العمل الشريف ، والفراغ المرتلى ..

ذات يوم وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه يودع أحد ولاته قبيل سفره إلى إقليمه الذى سيحكمه . وألقى عليه هذا السؤال :

.. ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق ، أو ناهب . . ؟

فأجابه الوالى : أقطع يده . . وعقب عمر على جوابه قائلا :

ـ وإذن ؟ فإن جاءنى منهم جائع أو عاطل ؟ فسوف يقطع عمر يدك . (١) وتابع حديثه المضىء قائلا :

ـ « إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ،

ونوفر لهم حرفتهم . فإذا أعطيناهم هذه النعمة . تقاضيناهم شكرها . .

« يا هذا . إن الله قد خلق الأيدى لتعمل ؛ فإذا لم تجد فى الطاعة عملا . التمست فى المعصية أعمالا . . ؛ فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية . » . . ! !

بالله ما أروعه . . هذا الانسان المعجز عمر . . !

إن هذه الأيدى خلقت لتعمل . فإذا لم تجد فى الطاعة عملا ، التمست فى المعصية أعمالا ـ أى أن العمل وقاية ضد الرذائل والزلل . وإذا ذهبت البطالة إلى بلد . قالت لها الرذيلة خذينى معك . ! ! ومن هنا يبرز واجب المجتمع الحريص على نقاوة سلوك أفراده فى توفير العمل لهؤلاء الأفراد . ولكن ، هل كل عمل يشحذ عظمة النفس وينفى عنها تفثها وغبارها . ؟ أبداً ، ولهذا قلنا فى عنوان هذا الحديث : العمل الشريف . فالمهنة التى نتولاها ، والحرفة التى نمارسها تنعكس خصائصها وملابساتها على سلوكنا وأخلاقنا ! فالهوان مثلا رذيلة . وهذه الرذيلة كثيراً ما تجىء ثمرة وضعنا فى غير المكان اللائق ، وتقبلنا هذا الوضع تقبلا تستمرئه النفس رويداً رويداً على الرغم من اشمئزازها منه بادىء الأمر . حتى تتسلل العدوى إلى سلوكنا كله فنستمرىء الصمت أمام كل إهمال لحقوقنا . ثم يتحول الصمت إلى رضا وإذعان . وهـذا هو الهوان الذى يصير فيما بعد سلوكا وطيداً لنـا . . ولقد تعودنا أن ننظر إلى حقوق العمل كشىء يساعد تحقيقه على بث السكينة الاجتماعية فى العلاقة بين العامل وصاحب العمل . ولكن الأمر أجل من هذا ، وبين تزكية حقوق العمل والأخلاق علاقة وثقى . ليس ذلك لأنها تطارد رذائل الحقد ، والتربص ، والخيانة فحسب

بل لأن الارتفاع بالحرفة ، ارتفاع بالبشرية التى تحترفها وتمارسها . ولو أننا وضعنا فى موازنة عادلة اسكافيان ، أحدهما مصرى والآخر ـ مثلا ـ بريطاني . لوجدنا نصيب الثانى من الشعور بالذات ، وبالعظمة ، وبالتفوق أكثر من نصيب الأول . . ذلك لأن المجتمع هناك رفع منزلة الحرفة التى يحترفها ذلك الأسكاف الانجليزى . حتى لقد بلغ من احترام المجتمع لها ـ أعنى لحرفة الأسكاف ـ أنه لا يجيز لأحد ممارستها إلا إذا حصل على مؤهل يبيح له احترافها . ومن هنا يشعر الاسكاف الانجليزى أنه يؤدى فى حرفته وظيفة اجتماعية لا تقل شأنا عن الوظيفة الاجتماعية لرئيس الوزراء . فشرف العمل سبيل عظيم لشرف النفس . وهو يقتضينا أن نرتفع بمستوى المهنة والحرفة فى المجتمع عن طريق ترشيدها ، ودعم مكانتها وحقوقها . ولا ينبغى أن ننسى أننا أو الكثيرين منا يؤثرون الأعمال التى لا مشقة فيها . فهذا الجيش الذى يملأ القاهرة مثلا من الرجال الأشداء الذين يحمل أحدهم « علب دبابيس » ليتجر فيها . . أو انظر وأنت تركب عربات الترام ـ الآن ـ فسوف يتقدم إليك « هرقل عظيم » يعرض عليك أن يبدلك بالأيصال الذى تعطيه شركة الترام لك بديل المليمين ـ علبة ثقاب . وهذه كل حرفته وكل دنياه . . ! قد يكون سبب هذا الخمول السائد بيننا ـ هذه القناعة الأسطورية التى لفتنا فى ضبابها دهرا طويلا . . على أية حال ؛ فأن خطرها على النفس ، وبالتالى على فضائل النفس عظيم ووبيل .

ولا بد أن الرسول عليه السلام كان يحذر هذه العاقبة حين دعا الناس إلى التوجه صوب الأعمال العظيمة الرفيعة والبعد عن التوافه ؛ فقال : « إن الله يحب معالى الأمور ، ويكره سفاسفها . »

نعم ، وإن لأفلاطون حديثا مشابها – « إن الحياة الخلقية مستحيلة ، مالم يتعود المرء أن يبصر رؤى العظمة والرفعة »

وكيف يبصر هذه الرؤى أناس يدأب المجتمع ليقنعهم بأنهم تافهون وضعاء ؟ ! !

وإذا كان العمل غير الشريف خطرا يهدد الأخلاق ؛ فالفراغ غير الهادف كارثة محققة . ومن خصائص مجتمعنا التى ذكرناها فى الفصل الثالث أنه مجتمع عاطل . ولقد قلنا هناك : إننا لا نعنى بكونه عاطلا – أنه لا يعمل ليأكل . . بل لا يعمل ليحيا . . والأنسان الذي لا يعرف كيف يعمل ليحيا يعيش سقيم الوجدان غائم النفس . أما الذى لا يجد عملا ليأكل ، فليرحمه الله . ! ! فلنملأ فراغ اليد بالعمل . ولنملأ فراغ النفس بما تتطلبه من زاد روحى جليل . إننا بحاجة إلى ساعات وأحيانا إلى أيام نقضيها فى فراغ . ولكن الطبيعة تأبى على فراغنا هذا أن يكون خواء إلا حين ننام . وحتى فى النوم تداعبنا الطبيعة عن طريق عقلنا الباطن بالرؤى والأحلام . فالفراغ عمل نسبى . أى بالنسبة لتخلصنا – مؤقتا – من العمل الدورى الذى يرهقنا . وإذن فلا بد له من منهاج يملأه . وإلا سارعت إليه الهواجس السود ، وسعت إليه العادات الضارة التى تتمثل أيسر ما تتمثل فى لعب الميسر ، أو عشق الذات . . ولقد كان صادقا ذلك الحكيم الذى قال : إنى لأعرف عظمة الرجل أو انحطاطه من طريقة استثماره لوقت الفراغ . ! ، ففى هذا الوقت تنطلق رغائبنا التى كانت ضوضاء العمل وإلحاحه يذودانها عن الظهور . وهى فى مثل مجتمعاتنا كثيرا ما تكون رغبات غير مهذبة . فإذا ما تكررت بعدد فرص الفراغ تحولت بعد قليل

إلى عادة مستحكمة ، وهواية جائحة . وهكذا تصاب الأخلاق بشر مايمزقها حين لا يكون لفراغنا هدف كريم . فلنملأ فراغنا إذن . ولكن كيف السبيل . ؟

إن الوسائل كثيرة وميسورة . إذا كنا نريد . فتيسير فرص الانتساب للمعاهد وللجامعات وسيلة . ، ونشر الأندية الرياضية والاجتماعية في المدن حتى تبلغ الحارات والأزقة وسيلة . ؛ وتيسير ارتياد المسارح ودور السينما وسيلة . ، والمواظبة على عزف الموسيقى المنعشة في جميع الحدائق وفي الميادين الرئيسية طيلة أيام العطلات الأسبوعية والموسمية وسيلة . وتيسير نشر الثقافة الشعبية الخلاقة ، وتيسير قراءتها وسيلة . . وكل الطرق توصل إلى روما إذا كنتم تريدون .

(٥) المداورة ، أو المباراة المتكافئة :

من الخصائص الذى تميز المجتمع الأنساني اليوم ، أن كسب الرزق وتنمية الأخلاق فيه عملان متناقضان . ! ، وعلى طريقة تصرف البشر إزاء هذه الحقيقة سيتحدد مصير المعركة الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة . ولنترك المجتمع الأنساني الآن جانبا ، لنتحدث عن جزء منه هو مجتمعنا . . لقد قلنا من قبل: إننا ورثناه مجتمعا استغلاليا كأشنع ما يكون الاستغلال. وقلنا : إن ظروفا عديدة تتطلب منا الأناة والحكمة فى تطوير هذا المجتمع والسير به إلى أمام . ونريد الآن أن نعرف كيف يمكن رغم القيود التى تحدد سرعة انطلاقنا أن نتحامى التناقض القائم بين كسب الرزق وتنمية الأخلاق . إن هذه المهمة لأكبر من أن يقوم بها فرد ، أو يفى بحقها

كتاب . وكل ما نحاوله الآن تجاهها لن يكون أكثر من إشارة ضوئية نرجو أن تهدى إلى الطريق — ولكن دعونا نؤكد مرة ، ومرتين ، وثلاثا أن لباب مشكلتنا الخلقية متمثل إلى حد كبير فى التناقض الذى ذكرناه ، وكل جهد يغفل هذا اللباب ـ عناء ضائع ، وهباء منثور .

— أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجارة .؟ وإن سأله سمكة يعطيه أفعى . ؟ ! ـ هكذا وقف المسيح من قديم يسأل الناس . ولا نزال بحاجة إلى إلقاء هذا السؤال اليوم . فالمجتمع الذى يعطى أفراده مكان الخبز حجارة ، ومكان السمك أفاعى . لايحق له أن يلومهم إذا أعطوه بدورهم مكان الفضيلة رذيلة ، وبديل الحسنة سيئة . . ! ونحن نكتفى بحديثنا عن المساوىء الناجمة عن المباراة غير المتكافئة فى الفصل السالف . ونشير الآن فى إيجاز إلى العلاج الذى يقينا شر هذه المساوىء. والعلاج يتلخص فى هذه العبارة «المساواة .. أو المباراة المتكافئة» وتحقيق هذا الهدف لا يملأ المجتمع بالفضائل المرتبطة بالعدل وحدها . بل وبالفضائل الهائلة المرتبطة بالرخاء أيضا . وصدقونى إذا قلت لكم : ليس هناك مكان تزدهر فيه الفضائل مثل المجتمع الذى يفيض ثراؤه ورخاؤه على أهله . المجتمع المتأنق الذى يحوى خير الأمور وأجمل الأشياء . إن أيلافنا المعانى السامية العظيمة ، لن يتأتى إلا إذا تعودنا رؤيتها أولا فى المحسوسات التى تحيط بنا وتعيش معنا . إن الصور الذهنية لما نلبس ونطعم . وللبيوت التى نسكنها ، والأثاث الذى فى هذه البيوت . عارمة الاتصال بسلوكنا .

وبعبارة أخرى . ولكن قبل أن أسوق هذه العبارة أرجو القارىء أن يسير مع هذه السطور على مهل .

لقد سبق أن قلنا : إن أكثر الفضائل رسوخا وثباتا ، تلك التى تزجيها قوة اليقين العقلى . أى التى تصير جزءا من نظرتنا إلى الحياة وفلسفتنا تجاهها . وعقولنا إنما تكون أحكامها وبالتالى يقينها من رغباتنا وانتباهنا وملاحظاتنا وتجاربنا . فالرجل الذى تدور ملاحظاته وأخيلته حول المحسوسات الرديئة يحمل غالباً نفساً رديئة . وبالعكس منه ذلك الذى تحيط به محسوسات نضرة جميلة ..

ولعل هذا المعنى كان يملأ وعى رسول الله عليه السلام حين كان يقول للناس : « كلوا أطيب الطعام ، والبسوا أجمل الثياب ، وانتعلوا أحسن النعال . وليمش الواحد منكم بين الناس ، وكأنه شهبة مضاءة » ..

وحين كان يقول لهم : — « إن الله جميل يحب الجمال . . نظيف يحب النظافة . . ووالذى نفس محمد بيده لن يدخل الجنة إلا نظيف » ..!

وأيضاً هذا هو الذى كان يعنيه العالم النفسانى العظيم « ادلر » حين كان يكتب لكثير من مرضاه الذين يشكون فوضى الشخصية هذه العبارة اليسيرة الجليلة : « رتبوا بيوتكم » . . !!

إن المشاهد الجميلة توجد لنا مستويات عالية وحوافز شريفة ، والأرواح الزكية تطرب لرؤية الجمال ويزداد ثراؤها الأخلاقى بالشخوص إلى الحسن . . ولا تضحكوا إذا قلت لكم : أننى حاولت أن أعرف أيهما

أكثر حظا من اللياقة الاجتماعية — الذى يأكل على « سفرة » أم الذى يأكل على « طبلية » وأجريت اختبارى هذا على ثلاثة وأربعين ؟ فخرجت بنتيجة تساوى فى النسبة المئوية ثمانين للأول وعشرين للثانى . .

إن الفارق بين المتوحشين ، والمتحضرين ليس فى تركيبهم العضوى ، ولا فى بنائهم العقلى . . ولكنه فى المحسوسات التى يأخذ كل منهما من ملاحظتها مادة عقله وتفكيره . فلكى يتاح لعقولنا ، ولأرواحنا أن تبصر رؤى الرفعة والعظمة — يجب أن نحوطها بكل ماهو عظيم ورفيع . . إن طريقة الأكل ومادته ، وطريقة النوم ووسائله وجمال البيوت أوقبحها ، والتنسيق الذى تشرق به الأشياء ، أو الفوضى المظلمة — كل ذلك عامل هام فى تحديد سلوكنا . والرخاء وسيلة الناس لكل ما هو ناضر وجميل . والمباراة العادلة المتكافئة هى التى تستطيع أن تهب الناس رخاء وأمنا . .

أما كيف نظفر بالمباراة المتكافئة ؟ فالجواب على هذا السؤال فى كتابنا السابق « الديمقراطية . . أبدا » إذ نادينا فى الفصل الأخير منه بضرورة الأخذ بـ « الاشتراكية التعاونية » أى بنظام « الأنتاج التعاونى » الذى يجعل الانتاج من المجموع وللمجموع — ويقى المجمع شرور المبالغة فى تكوين الثروات الفردية التي لا تستطيع مهما تحسن نوايا أصحابها إلا أن تعتمد على الاستغلال وامتصاص الدماء . . .

إن كافة القيم فى مجتمع المباراة تخضع لمعايير ضالة مخربة . . والسباق فيه يعتمد على القمار وشراء الذمم . فبلاد كالولايات المتحدة مثلا ، مع كونها حصناً من حصون المسيحية تضطرها المباراة هناك إلى أن تكتب

على واجهات بعض كنائسها الكبيرة بالأضواء اللألاءة : « هنا صلاة ، وعشاء » ..!!!!

وها هى ذى صحافتنا تضطرها المباراة إلى شراء القارىء باليانصيب . حتى لقد بدا وطيس المنافسة بينها حاميا . .

ومن يدرى ؛ فلقد بتنا نخشى أن نقرأ غداً على غلاف كتاب للدكتور طه حسين ، أو كتاب معرب لبرناردشو هذه العبارة – « احتفظ بالكوبون المرقوم على أسفل الغلاف ، وتقدم به إلى المؤلف ، أو الناشر لتربح مائة جنيه » .. !!!!

وهكذا تفسد المباراة أجمل ما فى الإنسان ، وهو فكره . إذا تربطه فى غمار هذا الإيحاء والاغراء بالكلمة التى تقوده إلى مائة جنيه ، لا بالكلمة التى تهديه إلى الحقيقة . . كما أنها تعتاق نموّ اهتماماتنا الذاتية بالثقافة الحرة . ، وتفسد الذوق الإنسانى الذى هو زينة الإنسان ونافذته على الحياة . . ! ترى كيف يتاح لأمتنا أن تنشىء لنفسها شخصية متسقة نامية متعففة ، وهذه الآفات تنهشها وترعاها . . ؟ !

إننا لن نكون شيئا ما فى هذا العالم حتى نعيد بناء شخصيتنا المنهارة . والناس لن يعنوا بتجويد شخصياتهم إلا إذا أحسوا عناية المجتمع بهم . وإنهم لمنتظرون . ؛ وقبل أن نمضى للخطوة الخامسة دعونى أذكركم بكلمة المسيح مرة أخرى :

– « أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجارة . . وإن سأله سمكة ، يعطيه أفعى . » . . ؟ ألا وإن المباراة غير المتكافئة ، لشرّ من الحجارة . وشرّ من الأفعى . .

(٥) احترام الحياة ..!

الناس الفضلاء .. هل يصنعون أم يولدون.؟الذى نعلمه أنهم يصنعون. وكما قلنا فى الفصل الأول : أن الأنسان لا يولد فاضلا . ولا يولد رديئا . إنه يولد فحسب . ونحن بهذا لا نريد أن تنكر أثر الوراثة . وإنما نلقى أكثر المسئولية على البيئة . وعلى الطريقة التى نستجيب بها فيما بعد للبيئة والوراثة معاً . وهنا،عنصران من أهم العناصر التى تجعل الاستجابة سوية فاضلة هما ــ الأرادة ، والمثل الأعلى .. إن تكوين الأخلاق يحتاج إلى زمن طويل . فلا بد لنا من مثل أعلى نحبه ونجله ، ويظل هذا المثل يخفق من بعيد كالراية مناديا الذين تعييهم مشقة السفر كى يثبتوا على الطريق . ولا بد من إرادة يهيب بها المثل الأعلى ؛ فتساند الموكب المحفوف بالأخطار . وإذا كانت الفضائل زهورا حلوة العبير ؛ فالمثل العليا جذورها . ونحن نعرف أن الزهرة إذا فصلت عن جذرها ذهبت نضرتها وغاب أريجها .

فالمثل الأعلى بالنسبة لى ، ولك ، وللآخرين يعتبر منبع الحياة الأخلاقية كلهاــ والمثل الأعلىحين يوجد ، يلتقط إرادتنا التائهة فى أعماقنا، أجل . فكل واحدنا يستطيع أن يكون صاحب إرادة متفوقة ، ومشكلتنا فقط ــ أن نعثر على إرادتنا الكامنة فينا . احفظ هذا جيدا . . أنت بلا إرادة وبلا مثل أعلى ، ظلّ ملقى على الأرض . والأرادة والمثل الأعلى قريبا المنال . ولعلّ سائلا يسأل : لماذا إذن لانعثر عليهما فى مجتمعنا إلاقليلا . ؟ والجواب : لأننا نبحث عنهما فى السماء ، وهما معنا على الأرض . ولذا فأن هؤلاء الذين نراهم يسقطون من حالق ، ويتمرغون فى التراب بعد أن كانوا يبدون فى أعيننا من أصحاب المثل العليا ــ هؤلاء ، لو كان الذى معهم

مثلا أعلى بحق ، لما تقطعت بهم الأسباب . ولو كانت إرادتهم واقعا لا خيالا ، لجنبتهم حفر الطريق . والآن يقتضينا البحث أن نبين نوع الأرادة التى لا تخون صاحبها ، ونوع المثل الأعلى الذى لا يختفى ضوؤه من الطريق . .

هناك أمثلة عليا زائفة ، يلتمس لهاعقلنا الواعى منطقا تسويغيا يسوغها ـ ويبررها به ـ وهذه يسقط أصحابها حتما فى الهاوية . . وهناك احتراف للمثل العليا . أبطاله أناس يرتدون المثل الأعلى ليتقوا به رياحا معينة ، أو ليواجهوا به موقفا خاصا . ثم بعد هذا ينزعون عنهم هذا اللباس الذى لا تطيقه أرواحهم المريضة .. ونحن مسقطون هؤلاء من حسابنا ـ ولا نهتم إلا بضحايا المثل الأعلى الزائف ، لأنهم طيبون وإن كانوا مخطئين . كيف يتقى أحدنا الوقوع فى براثن مثل أعلى زائف . . ؟ هناك معيار للمثل الأعلى الصادق يدلنا عليه العلم بعد طول تجريب . وذلك المثل هو الذى ينتهى بنا إلى تحقق الذات وسعادتها ـ فليس مثلا أعلى هذا الذى يملأ الشخصية صراعا وعراكا . بل هو الذى يناديها إلى توافق تام بين جميع اندفاعاتها ورغباتها وغرائزها . ومن ثم ؛ فهو كما يقول العلامة « هادفيلد » ـ « فكرة ذات صفة خاصة . جديرة بأشباع النفس إلى الاكتمال ، ومتفقة مع طبيعة الأشياء بشكل يمكنها من أن تجتذب إليها انفعالاتنا كلها . »

ويريد هادفيلد بكون المثل الأعلى فكرة ذات صفة خاصة ـ أنه منطو على طاقة هائلة فهو كالجرم السماوى الذي يتحكم فى حركات المدّ والجزر . .

وإذن فالمثل العليا التى تقوم على تحدّى طبيعتنا هى الزائفة ، ومثل هذا يقال فى الأرادة . فالأرادة الصادقة هى التى يكون نشاطها تعبيرا عن الذات لا تحدياً لها . إن تحدي طبيعتنا الإنسانية يخلق قوة مناوئة للأرادة ومعطلة لرسالتها هى الاندفاعات . فالخطوة الهامة فى طريق

الاكتمال الخلق هى ـ تصحيح فهمنا الضال للأرادة وللمثل الأعلى .
إن الشرق بلاد العمالقة ، ومصر بالذات بلاد الفراعنة . ولذا ؛ فالأرادة فى وعينا كائن سحرى يقول للشىء كن ؛ فيكون .. ولكن لا . وكل هذه أوهام أزجاها دخان البخور . (!) أما الأرادة فليست سوى وظيفة للذات التى لا انقسام فيها ولا كبت ولا معارك . ، وكما أن إرادتك مهما تكن قوتها وجبروتها لا تستطيع أن تغير مسار النجوم ؛ فهى كذلك لا تستطيع أن تغير مجرى الطبيعة الإنسانية . وإدراك هذا يهدينا إلى الأرادة الصادقة المسيطرة التى لا بد منها للاستقامة والفضيلة . . قلنا إن المثل الأعلى وثيق الصلة بالأرادة فهو الشريان الذى يهبها الحياة .وهو الذى يثيرها إلى العمل والنشاط الهادف . والمثل العليا تختلف وتكثر بالنسبة للفرد وللجماعة . فهناك فى بلادنا من مثلهم الأعلى نبذ التدخين ، ومن مثلهم الأعلى إتقان الصلاة ، ومن مثلهم الأعلى غض البصر عن النساء ، ومن مثلهم الأعلى الزهد فى المال ، ومن مثلهم الأعلى ترك المسكرات ، ومن مثلهم الأعلى ـ النوم مبكراً . . . ! ! . ونحن لا نضيق ذرعا بمثل هذه المثل، وإنما نضيق ذرعا بالوقوف عندها . . إن المثل الأعلى لايستحق هذا الوصف ولا يكون مجديا وخلاقا إلا إذا كان رائدا لجميع إمكانيات الذات ورغباتها ؛ وطبيعى أن شيئا مثل نبذ التدخين أو غض البصر عن النساء لا يصلح وحده أن يكون الأطار الذى تتحقق الذات داخله . فلنبحث لنا عن مثل أعلى شامل وبليغ . . إنه ما من أمة على ظهر كوكبنا هذا ـ انتقلت من الغابة إلى المدينة ، وشادت لنفسها حياة خلقية رفيعة إلا وكان لها مثل أعلى ينتفض بالحياة والعزم . فما المثل الأعلى الذى يستطيع أن يهدى خطوات أمتنا خلال المرحلة الفاصلة التى تجتازها اليوم . . . ؟ ؟ ابحثوا عنه معى أيها

القراء ، فنحن كأمة ليس لنا ـ الآن ـ مثل أعلى رشيد . عندنا كثير من المثل العليا الزائفة . والويل لنا منها إذا طال مكثها بيننا

لقد ضرب العدل التاريخي مثلا ، رجلين : أحدهما وهب أمته مثلا أعلى زائفاً ؛ فدمرها به تدميرا .. والثانى أعطى أمته مثلا أعلى صادقاً ؛ فأحياها وبث فيها من كل خير بهيج

ألا فارثوا لهتلر . . وانحنوا إجلالا لغاندى . .

لقد ضلل الفوهرر ألمانيا حين جعل مثلها الأعلى ـ القوة الباغية . . وما أتعس الذين يتوهمون أن هتلر وهب ألمانيا مجداً وعلماً وتفوقاً . . لقد كانت ذات مجد وعلم وتفوق قبل أن تلفظه الأرحام . . وقبل أن يولد شهدت برلين مؤتمرا لعلماء الذرة . . وقبل أن يولد جده العاشر اخترع « يوحنا جوتمبرج » الطباعة وأخرج للدنيا أول كتاب مطبوع !! فهتلر بمثله الأعلى الزائف لم يضف لألمانيا سوى القرصنة المسلحة التى أودت بها ومزقتها . . وحتى القوة التى جعلها مثله الأعلى كانت ضعفاً وبيلا ـ فقد كانت قوة جزارين .. والجزار شجاعته فى سكينه ، فإذا جرد منها لم يجد فى روحه شجاعة تسعفه ، ولا فى قلبه إقداما يستردفه

إن قوة الخلق التى تنبع من العدل . وقوة العقل التى تنبع من الحرية ، وقوة الروح التى تنبع من كرامة الأنسان ـ هذه القوى النبيلة الفعالة جرد منها الشعب الألمانى ، وأعطى مكانها قوة باغية باطشة . .

وإني ليطيب لى كثيراً أن أسأل نفسى : ما الثمن الذى دفعته ألمانيا لقاء إيمانها بهتلر ، وبمثله الأعلى الزائف . . ؟ وما المثوبة التى كوفئت بها الهند جزاء إيمانها بغاندى ، وبمثله العليا الصادقة . . . ألاما أعظم الفارق بين الوطن الذى تركه هتلر مستعمرة .. ، والمستعمرة التى خلفها غاندى وطنا .. !

فعلى ضوء هذه المثلات والعبر ، تعالو نبحث عن مثل أعلى لنا ـ أيها الأصدقاء .

وإنى لأقترح أن يكون هذا المثل ـ احترام الحياة . ، أجل . . هذه هى الحقيقة التى أبحث عنها . . احترام الحياة .

إن البقاء اليوم للقوى الأنسانية التى يدفعها احترام الحياة إلى العمل الأيجابى من أجل رخاء الأنسان وسلامه ومن أجل ثراء عقله ، وعافية نفسه . .

انظروا . . أى هؤلاء الرجال تعطر البشرية اليوم وجودها بذكرهم . ، وتجعل أسماءهم ترنيمة عذبة على فمها الشكور . . ؟

— دارون . أم بسمارك . . ؟ ، باستير . أم نابليون . . ؟ كونفوشيوس . أم جنكيزخان . . ؟ ، ماركونى . أم الدوتشى . . ؟

إنها اليوم لا تذكر سوى الذين آزروا الحياة ووقفوا عند مشيئتها . فلنسر على الدرب . إن من سار على الدرب وصل . .

واحترام الحياة عصمة ، أو شىء يشبه العصمة . . هو كذلك بالنسبة لنا كأمة . ، وكأفراد . ؟ فالفرد الذى يجعل احترام الحياة مثله ورائده وإلهامه لا يكاد يرتكب إثماً . .

إن الحياة فى عينه وفى وعيه قصيدة رائعة فاتنة عظيمة . وهو يعمل جاهداً لتكون أيامه على هذه الأرض بيتاً مشرقا يأخذ مكانه بين أبيات القصيدة الخالدة . ؟ فإذا عجز عن أن يضيف إليها جديداً ؟ فلا أقل من أن يكفّ عنها أذاه . فلا يشوّه بهاءها . ولا يدنس قدسها ...

أعرف «إنسانا» دعته نفسه إلى الإثم بعد طول صيام . وحين وقف على عتبة الشهوة ، شرع يسأل نفسه : ـ أهذا الذى سأفعله تشويه للحياة ،

وحنث بالعهد الذى أعطيته لها .. ؟ ـ ولما أجابه الضمير : نعم . قال : ـ إذن لن أشوه الحياة ، ولن أنقض بيعتها . وليس ذلك فحسب . بل قرر أن يتخذ من الموقف مزية . ؟ فانطلق فى أرض الأثم يدرس تربتها ، ويتحرّى زرعها النكد . لينظر فيما بعد كيف يمكن أن تعود أرضاً طيبة، زرعها نضير ، وترابها طهور ...

ولقد ألقاه كثيراً ؛ فأسأله : ـ ما دينك الذى يصلك اليوم بالسماء ..؟ فيجيبنى وكأنه رسول يبشر بوحى جديد ـ إنه احترام الحياة . .

إننى أرشح لأمتنا هذا المثل الأعلى . ولن تجد مثله سبباً ينقذها مما هى فيه ـ إنه فضلا عن توطيده جميع أصول الدين وفضائله ، يهدى الفرد كما يهدي الجماعة إلى التزام ما تكتشفه الإنسانية من قيم وأفكار ونظم تزيد من سعادة الإنسان . . وهو بهذا ـ أعنى احترام الحياة ـ يفسح المجال الذى تحقق فيه النفس الإنسانية اكتمالها ، إذ تنطلق نحو فضائل ترومها ، وتتناغم مع استعدادها .

واحترام الحياة كمثل أعلى لنا ـ سيفضى بنا إلى المثل الأعلى الذى تلتزمه الحياة نفسها .. وهل للحياة مثل أعلى .. ؟ .. نعم . هو الواجب . إن الحياة بكل أشيائها تؤدى واجبها على نحو مدهش . والواجب عندها . هو القانون . فالشمس تشرق على الكون ، والرياح تسوق السحاب ، والنحلة تخرج الشهد ، والأرض تنبت الحبّ ، والشجرة تلقى الثمر . . وكل ذلك يتم باسم الواجب ، دون انتظار لجزاء أو شكور .

واحترام الحياة كمثل أعلى لنا سيصوغ أخلاقنا فى قالب مبادىء الحياة ذاتها . وارتباطنا بهذه المبادىء سيكون أوفى ضمان لنا ضد الانحراف نحو المثل العليا الزائفة .

فمن مبادىء الحياة التي ستصاغ أخلاقنا في قالبها ـ التكيف وهو يدعونا إلى تكييف سلوكنا حسب المفاهيم الجديدة والصادقة للفضيلة ؛ فلا نري في الاختلاط وزراً ، ولا في الفنون الجميلة عاراً ـ لعلكم تذكرون وزير المعارف بالنيابة الذى ألغى الرقص التوقيعى من مدارس البنات منذ خمسة أعوام ، وهطلت عليه برقيات التأييد من الهيئات الدينية ورجال الكهنوت . . ! مع أن هذا الرقص التوقيعى شىء بعيد كل البعد عن هزّ الخصور والبطون . إنه تعبيرات فلسفية متسامية . ولقد كان يوماً ما ولا يزال فى بعض البقاع صلاة دينية يناجى العابدون به ربهم العلى الكبير .

إنه إذا كان التكيف مع الطبيعة هو الذى أبقى الانسان على هذه الأرض حتى اليوم . ؟ فإن التكيف مع الحضارة هو الذى يحميه اليوم من الانقراض والذوبان . . ومن العسير علينا أن نؤمن بالتكيف إلا إذا جعلنا مثلنا الأعلى ـ احترام الحياة .

ومن مبادىء الحياة التى ستصاغ أخلاقنا فى قالبها كذلك ـ التأمل . . إنه الهاتف الذى يدعو الحياة للتكيف ، ويهدى خطواتها إلى الارتقاء . وليس هناك شىء سوى التأمل يتجاوز بنا المعارف القديمة صاعداً بنا إلى حقائق جديدة . وما دمنا نريد أخلاقا راسخة وفاضلة ، فلا ملاذ لنا سوى المعرفة التى هى ثمرة مبدأ الحياة الملهم . ألا وهو : التأمل . .

ومن مبادىء الحياة أيضاً : الرسوخ . . وهو رسوخ فى خدمة التكيف لا ضدّه . . انظروا الحياة فى نقلها المعجزة الباهرة . إنها لا تنتقل خطوة حتى تؤمن الأرض التى تقف عليها تأميناً وطيداً . وكل نقلة من نقلها تعتبر مصباً تأخذ مما قبلها ، ومنبعاً لما بعدها . . ولذا ؛ فليس فى فلسفة الحياة قديم وجديد . . إنه تيار تتدافع موجاته ، وأوله موصول

بآخره فى تآخ عجيب . . انظروا الانسان . إنه لا يزال يحمل فى تكوينه الجسماني آثار أصوله القديمة جداً . . لقد انقرضت بعض أعضائه الغابرة . بيد أن جذور هذه الأعضاء البائدة لا تزال ثاوية فيه . . فلماذا ياترى ..؟ إنه رسوخ الحياة الذى يتفاعل مع التكيف ليؤمنا بقاء الانسان . وبقاء الحياة نفسها . . ونحن ، ما أحوج أخلاقنا إلى الانصباب فى قالب هـذا المبدأ ـ الرسوخ . . فكثيراً ، وكثيراً جداً ما ينقلب الصادق فينا كذوباً ، والأمين خائناً ، والعفّ عربيداً ، والشجاع جباناً ، والسيد عبداً ذليلا ، والصريح منافقاً ، والمهذب سفيهاً .. !! ـ أتدرون لماذا ـ ؟ لأن أخلاقنا تفقد عنصر الرسوخ ، وهى تفقده لأنها مجرد هوايات تعن لنا يوماً أو بعض يوم . وليست فلسفة ثابتة ، ولا منهاجاً قائماً . وليس لها مثل أعلى يهتف بها ويحميها . .

وهكذا ؛ فإن احترام الحياة يهدينا إلى حياة خلقيّة جديدة وسامية ؛ فلنجعل منه رائداً وإماماً .

وأخيرا .. من يحكمكم يا غلام .. ؟؟

دخل على المصور وفود من الأقاليم . ووقف خطباء بعض الوفود يدبجون تحيات يزجونها إلى المنصور . وإذ كان أحدهم يتكلم ويسرف على نفسه فى المديح شق الصفوفَ غلام من وفد آخر لم يأت دوره فى الحديث . وصاح :

ـ « كلا ، يا منصور . إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً . . ووالله إن الناس ليستعدون عليك سهام القدر ودعاء السحر .. ويسألون

الله فى حياء قائلين : يا ربنا ، لماذا خلقت المنصور . . ؟ وإذا كان لا بد من أن تخلقه ؛ فلماذا رزأتنا به . » . ؟ ؟

وانبهر المنصور ، وفاح البشر من وجهه . وسأل الغلام قائلا :

— من الوالى الذى يحكمكم — يا غلام . . ؟ — فوالله إنك لحسنة من حسناته . ولولا أنه يحسن تأديبكم ، لما وجدناك هكذا شجاعا . . ! !

أجل — من يحكمكم ياغلام . . ؟ تلك هى المشكلة . . .

إننا نضع الدولة فى مكانها الذى تحدده تبعاتها حين نجعل الحديث عنها ختاما للفصل وللكتاب . وسنوجز حديثنا عنها فى سطور . لأننا نؤثر أن تكون علاقة الدولة بالأخلاق علاقة جانبية . فالأخلاق إلى حد ما كالعقائد ، لا يساق الناس إليها ولا يكرهون عليها . وإن خير ما نفعله لنأخذ الناس إلى الفضيلة أن نملأ حياتهم بصور جذابة وفاتنة للحق وللفضيلة . ولسنا نريد بجعل علاقة الدولة بالسلوك جانبية — أن نضائل من مسئوليتها الضخمة والأكيدة بل نريد تحديد هذه المسئولية ، وتحديد علاقة الدولة بالأخلاق . هذه العلاقة التى تتمثل فى أن تكون الدولة حافزا وحارساً . . فما معنى أن الدولة حافز وحارس ؟

. . إن وضعها كحافز يتطلب أن يتمّ تكوينها وفق المبادىء الخلقية . . ذلك أنها لا تستطيع أن تحفز الناس إلى فضائل تقوم هى على أنقاضها . . وصفتها كحارس يتطلب منها أن تحرس التطور الصاعد للمسلك الخلقى من هجمات الرجعية وفضولها . .

وكلا الأمرين يتطلب منها — أى الدولة — ثقة وطيدة بالعلم ، وبنفسها . . أما الثقة بالعلم فستقنعها بأنه لا بقاء لها ولا نماء لمجتمعها إلا فى ظل فضائل تقوم على المعرفة الطليقة . وعندئذ تعنى بالفضيلة ، وتعنى بالمعرفة . وتعنى

قبل هذا بأن تعيش فى نطاق هذين المبدأين — المعرفة ، والفضيلة . .

وأما ثقتها بنفسها ؛ فستربأ بها عن أن تساوم الرجعية على مستقبل الأمة ومصيرها — وتنق عن عزمها المخاوف الباطلة التى قد توجسها من العلم ، ومن المستقبل . .

هذا حديث عام عن الدولة — أىّ دولة — ؛ فإذا نحن طبقناه على بلادنا قلنا : إن الظروف اليوم مواتية لقيام دولة من ذاك الطراز . . دولة تكون للأخلاق حافزاً ، وحارساً بالمفهوم الذى سبق . ولكن علينا لكى نبلغ هذا المستوى أن نوفر لأنفسنا القدرات والامكانيات التى ترفعنا إليه ، وأن يسير سلوكنا من الآن وفق ما تتطلبه هذه الغاية الكبرى . وأظنكم تدركون ما أريد أن أقول . . .

بعد هذا يواجهنا واجب آخر . . فنحن نرى أن تقوم فورا فى بلادنا « وزارة للتربية والسلوك . » أو أن تتحول وزارة الشئون الاجتماعية أو وزارة الارشاد ، أو هما معاً إلى الوزارة التى نقترحها .

ما رسالة هذه الوزارة . . . ؟ — إنها بإيجاز : توحيد جميع ضروب النشاط الاجتماعى ، والدينى ، والصحى ، والثقافى الذى يتصل بأخلاق الفرد ، وسلوك الناس . والاتجاه به فى خط طول واحد يقوم على الفهم الصحيح للمشكلة الأخلاقية ، ويهدف إلى جمع الأمة على سلوك موحد مستقيم . .

أما أن ندع الناس يستمعون فى المسجد والكنيسة إلى توجيهات . ثم يستمعون فى المدرسة أو النادى ، أو الاذاعة إلى نقيضها ؛ فعمل يدعو للرثاء . . . ؟

إن قسم المساجد فى وزارة الأوقاف ، وقسم الوعظ فى الأزهر ، والطرق الصوفية . والشئون الدينية بالإذاعة ، والمنهج الدينى بوزارة

المعارف يجب أن توحد جميعاً تحت قيادة واحدة واعية ، واضغطوا كثيراً على كلمة « واعية » ثم تعمل جميعاً كقسم من أقسام وزارة التربية والسلوك . فى خدمه المسلك الخلقى للفرد وللجماعة . .

كما تضم الوزاره أيضاً قسما آخر يشرف إشرافا تاما على النشاط المدرسى . .

وقسما ثالثاً يشرف على الحياة الصحية والرياضية فى المجتمع ، ليعنى أنشاء المصحات النفسية ، والأندية الرياضية . ويبحث عن الوسائل التى تنقل هذا الشعب من المقهى والطريق . . إلى النادى الرياضى والنادى الاجتماعى . . وقسما رابعاً خاصاً بالإحصاء . . نحن نعلم أن فى بلادنا مصلحة للأحصاء ـ ولكنها شىء مختلف عما نريد اختلافا بعيداً . . إننا نريد إحصاء للبواعث ، لا للوقائع . . بواعث الرذيلة ، وبواعث الفضيلة . . ونريد مثلا أن نعلم إن كان من الخير لتقويم السلوك الجنسى ـ أن نبقى المدارس الداخلية للبنين . وللبنات ، أم نلغيها . . ؟ ! ونريد أن نعرف مثلا : هل تكثر حوادث الجريمة فى الأحياء الشاغرة من المكتبات ومن الأندية على الأخرى التى بها فروع لدور الكتب وأندية اجتماعية ورياضية . . وما نسبة هذه الزيادة . . . ؟ . وأيضاً نريد أن نعلم : ما نسبة الانحراف الخلقى بين الشباب فى جماعة مختلطة . كالتعليم الجامعى ، وأخرى غير مختلطة كالتعليم الثانوى . . نريد أن نعرف كل هذا ، وأكثر من هذا ثم نرسم سياسة أخلاقية على بينة من هذه المعرفة .

إن قيام وزارة للتربية والسلوك فى بلادنا تشرف على كل ما يتصل بالمسلك الخلقى لعمل رائع وعظيم ، بقدر ما هو حتمى وواجب .

***

وبعد : فتلك صفحات حملت إلى القراء وجهة نظر نؤمن بها

وما نحسب الحديث فى موضوع الكتاب قد انتهى ، فلا يزال هناك شأ روى ، وحديث يقال . . وأغلب الظن أننا سنعود إليه فى يوم قد يكون قريباً .

ونحن لا ننكر أن السير فى الطريق التى رسمها الكتاب سيجشمنا كثيراً من الأخطاء . ولكن أرونى غاية واحدة من غايات البشر يبغلها الناس دون أن يتعثروا فى الخطأ . وأرونى عاقلا واحداً ينصرف عن الغاية المثلى بسبب هذه العثرات . .

إن الأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسى « جويير » :

ــ لكى تبلغ مطالع الضوء ، لا بد لك من اجتياز السحاب . .

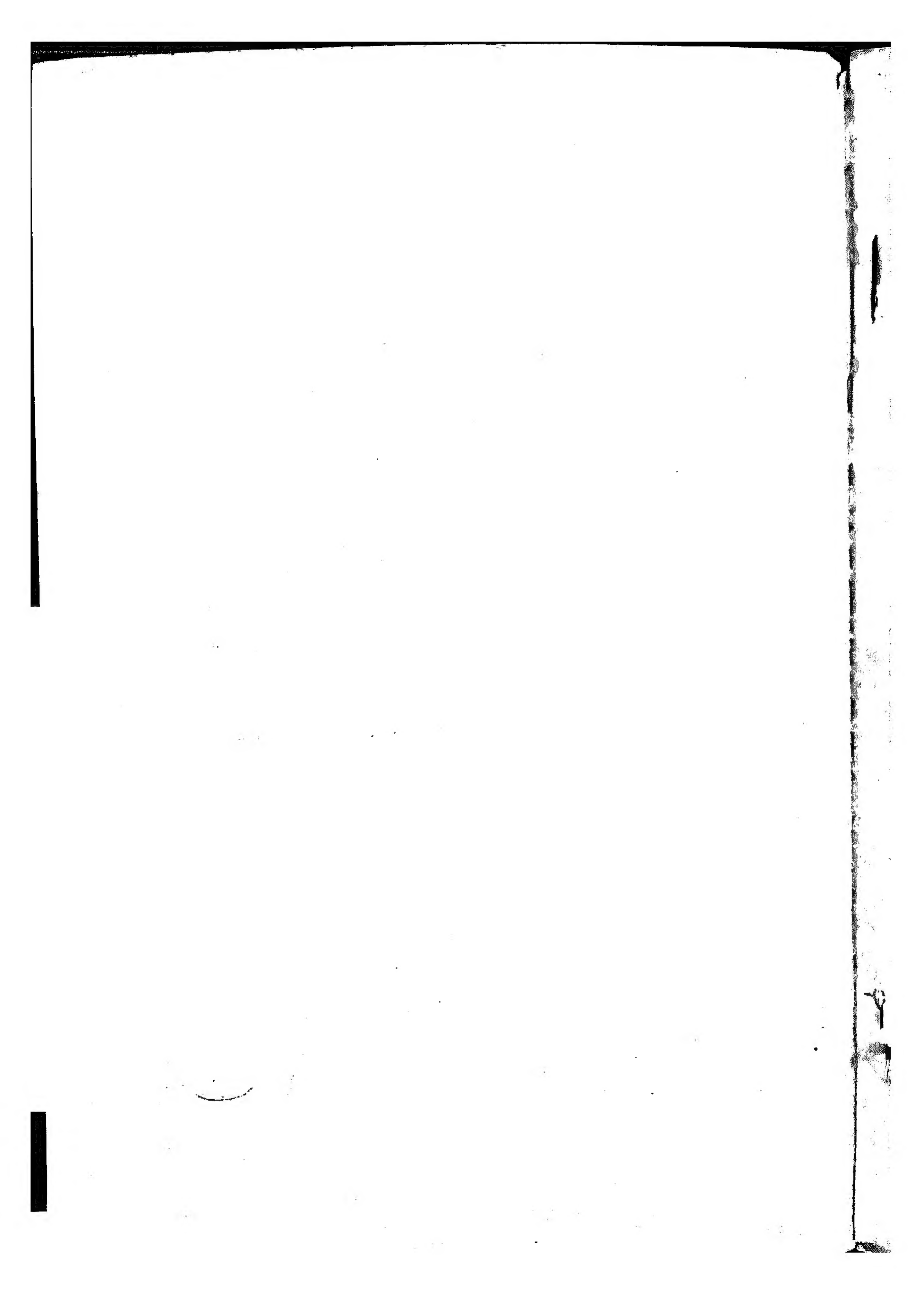
وأنا أعرف سبباً واحداً قد يدعونا إلى تهيب هذا الطريق ــ ذلكم هو ما يتطلبه من تغيير عالمنا العقلى .. ولكنى أقول لكم : إن هذا التغيير ضرورة بيولوجية ؛ فأما هو . وإما الانقراض .

إنه لا مكان فى الحياة للذين يتخلفون عن قوانينها ، ويعصون مشيئتها .

ألا وإن مشيئتها أن ننمو ونتجدد ، والنمو والتجدد يعنيان التغير ، والتطور . ، فلنغير ما بعقولنا . ، ولنغير ما بأنفسنا . .

ولنمض مع القافلة . . إن المستقبل ينادينا .







الثمن ١٢ ص